

جامعة الأزهر

مشروع إهداء نسخة إلكترونية لمجلة كلية

اللغة العربية بإيقاي البارود جامعة الأزهر

إعداد وإشراف

أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب

رئيس قسم الأدب والنقد

مجلة

كلية اللغة العربية

بدمهور

العدد الخامس

١٤٠١هـ - ١٩٨٨م

مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة كلية

اللغة العربية بإتفاق البارود جامعة الأزهر

إعداد وإشراف

أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب

رئيس قسم الأدب والنقد

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بدمشق

مجلة

كلية اللغة العربية

إشراف

أ.د. محمود علي السمان

عميد الكلية

● أسرة التحرير

أ.د. محمد سعد فشنوان

د. عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم

د. الشحات محمد عبد الرحمن أبو سميت

العدد الخامس

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتاحية العدد

بقلم أ.د. محمود السمان
عميد الكلية

أحمد الله تعالى - وأصلى على رسوله الكريم وبعد ...

فقد قيل ان قيمة العلم تتحدد بشرف مقصده ، وسمو هدفه ،
وشدة الحاجة اليه ، وكثرة الانتفاع به ، ولهذا صدرت علوم الحديث
والتفسير والفقه ، لأنها ترتبط ارتباطا وثيقا مباشرا بالقرآن الكريم
والسنة النبوية المطهرة ، فهما ودراسة وشرحا وحكما .. ولهذا كذلك
قدمت علوم اللغة والأدب والبلاغة ، لأنها تتصل اتصالا مبينا وقويا
بكتاب الله وسنة رسول الله تحليلا وتعليلا وتذوقا .

فبلاغة القرآن والحديث ليست مقصورة على ما فيهما من أحكام
وعبادات ومعاملات وعقائد وشرائع ، ولكنها تشمل ذلك كله ثم تتعداه
الى جمال الألفاظ ودقتها ، وحسن الأساليب وروعيتها ، ومن هنا كان
كثير من سحر القرآن الكريم حين نزل على العرب - وهم أفصح
الأمم قاطبة - فلم يأسرهم ما جاء به من الاخبار عن الله وعن الأمم
السابقة - وقد نزل على الرسول النبي الأمي فحسب - ولكن أسرهم
وسحرهم ما صيغ به من لغة وما احتوى عليه من أدب وبلاغة - وهم
اللسن المقاول ، وأرباب اللغة الفصحاء .

وقد كان القرآن كذلك بالفعل فقد تحداهم من نزل عليه أن يأتيوا
بمثله أو بسورة من مثله أو بآية منه فعجزوا ، بل لقد نطق بذلك

منهم المنصفون من أهل الشرك ، وها هو أحدهم يسمع من رسول الله صلوات الله عليه وسلامه لبعض آيات القرآن فيعود الى قومه تختلط الدهشة في نفسه بالاعجاب ، قائلاً : والله لقد سمعت من محمد كلاماً أنفاً ، ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له الحلاوة وان عليه لطاوة ، وأن أعلاه لثمر ، وان أسفله لمغدق ، وأنه يعلم ولا يعلم عليه .

وقد كان سماع عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يسلم لبعض آيات كريمات من سورة طه — وكان هو من هو عداً للاسلام والمسلمين ، وكان قد ذهب لمعاوية أختسه وزوجها اللذين سمع عنهما أنهما أسلما — كان سماع عمر لآيات من القرآن الكريم من تلك السورة الكريمة سبباً في اسلامه .

وليس ما ذكرناه الا مثليين لألوف من الأمثلة التي تأثرت بلغة القرآن وبلاغته قديماً في عهد رسول الله وصحابته وحديثاً في العصور الحديثة ، وسيظل أثر القرآن في ذلك قائماً ودائماً الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فكليات اللغة العربية بالأزهر الشريف اذا قامت بمهمة تعليم اللغة وأصولها وبلاغتها وآدابها — انما تقوم بمهمة جليلة ، لأنها تخدم بذلك كتاب الله في جانب من جوانب اعجازه الكبيرة المتنوعة ، فتعد أبنائها لحمل رسالة لغة القرآن وأدب القرآن وبلاغة القرآن ينشرونها في الناس ، ويعلمونها لكل الأجيال المتعاقبة ، فيظل القرآن نشيد المرتلين والمتعبدین يرحلون به ألسنتهم ، ويهتدون به مشاهيرهم ، ويثابرون به صغورهم ، ويريحون به أفئدتهم .

ولكن كلية اللغة العربية بدمهور وهكذا بقية كليات جامعة الأزهر — حفظها الله — ترى أن المهمة الكبرى التي تقوم بها ينبغي أن تعم

جماهير القراء ولا تخص خاصة الطلاب من المتدقين بها ، فهي لذلك
تعدد الندوات الأدبية ، وتقيم المهرجانات الشعرية •• وهي لذلك
تصدر النشرات والمجلات التي تؤدي بعض ما يؤديه الدرس المنتظم في
اشاعة الكلمة الصحيحة ، والمغة الفصيحة ، والأدب الرائق •

وقد صدرت الكلية أربعة أعداد من مجلتها ، كانت لها أصداء طيبة
على المستويين العام والخاص بما حوت من بحوث جديدة ومبتكرة لغة
وأدبا وبلاغة •

واليوم تصدر الكلية خامس أعداد مجلتها حاملة ما يحقق بعض
أهدافها من نشر الوعي اللغوي والأدبي والنقدي والبلاغي للناس
كافة •

وأنا لندعو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ،
وأن يثيب القائمين على هذه المجلة كفاء ما يقدمون للناس من عطاء •
والله سبحانه وتعالى من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم
النصير •••

د• محمود علي السمان
عميد الكلية

التقديم والتأخير بين الإمام عبد القاهر والمتأخرين

د. الشحات محمد عبد الرحمن أبو سنيت

تقديم

لم تتل قضية التقديم والتأخير حقها من البحث والحراسة عند البلاغيين إلا في القرن الخامس الهجري على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١ هـ) في كتابه « دلائل الإعجاز » .

وليس معنى هذا أن هذه القضية لم تطرح على بساط البحث قبل عبد القاهر ، فقد أشار لها كثير من العلماء السابقين عليه ، ولكنهم لم يتوسعوا في دراستها ولم يهتموا بكشف أسرارها مثله .

فشيخ النحاة سيبويه (ت : ١٨٠ هـ) يروى عن الخليل بن أحمد (ت : ١٧٥ هـ) حكمه على بعض أمثلة التقديم بالحسن ، وعلى بعضها بالقبح (١) .

وسيبويه يتناول التقديم والتأخير بالحديث في أكثر من موضع من كتابه ، فيقول في باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول : فان قدمت المفعول وأخرت الفاعل كقواك : ضرب زيدا عبد الله ... وكان حد اللفظ فيه أن يكون مقدما ، وهو عربي جيد كثير ، كأنهم انما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أئس ، وإن كان جميعا يهملهم ويعنيانهم (٢) . واستحسن تقديم الاسم إذا كان المسرؤا

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي : ٥٨ .

(٢) الكتاب : ١٤/١ ، ١٥ .

عنه ، وتقديم الفعل إذا كان السؤال عنه (٣) وأشار الى التقديم في أبواب كثيرة من الذخيرة (٤) •

وقد أشار عبد القاهر الى كلام سيبويه عن التقديم والتأخير ، وتركيزه على أن التقديم يكون للعناية والاهتمام وحكى ما ذكره أن تقديم الحديث عنه يفيد التنبيه له ، كما في قولك : عبد الله ضربته ، فانما قلت : «عبد الله» تنبيهه له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء (٥) •

وأشار الفراء الى التقديم والتأخير (٦) كما أشار اليه أبو عبيدة (٧) وعرض له ابن جنى في كتابيه : « الخصائص » و « المحتسب » (٨) •

وأكثر ما ذكره المساجقون على عبد القاهر في قضية التقديم والتأخير خاص بالقواعد النحوية ، ومن ثم ظلت أسرار هذا الباب مكونة حتى برزت على يد الامام عبد القاهر •

وهذا البحث يتناول بالدراسة قضية التقديم والتأخير بين عبد القاهر والتأخرين كالسكاكي والخطيب وغيرهما •

وقد عرضنا فيه آراء الامام عبد القاهر في هذا الباب بمختلف فصوله ، وبيننا موقف المتأخرين منها ، ووازننا بين الآراء مؤيدين ما تؤشحه الأدلة وتقويه الحجج ، كما سيري القارىء لهذا البحث •

(٣) السابق : ٤٨٣/١ ، ٤٨٧ •

(٤) ينظر الكتاب : ١٩/١ ، ٦١/١ ، ٢٨٥/١ •

(٥) ينظر دلائل الاعجاز ١٠٧ ، ١٣ : ١ ، ١٤٥ ، والكتاب : ٤١/١ •

(٦) ينظر معاني القرآن : ١٩٥/٢ •

(٧) مجاز القرآن : ١٨٥/١ •

(٨) الخصائص : ٣٨٢/٢ ، والمحتسب : ٦٥/١ ، ٦٦ ، ١٣٥ •

التقديم التأخير عند الامام عبد القاهر

تناول الامام عبد القاهر في بحثه للتقديم والتأخير أهمية هذا الباب ، واغفال المتقدمين له ، وقسم التقديم ، وتكلم عن أسرار التقديم والتأخير في الأساليب المختلفة ، وسنمضي معه في رحلته مع هذا الباب ، لنقف على آرائه ، ونسأله ما أظهره من أسرار .

أهمية هذا الباب واغفال المتقدمين له :

بدأ الامام عبد القاهر تناوله التقديم والتأخير بالإشارة الى أهمية هذا الباب فقال : هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن ، واسع التصرف، بعيد الخاية لا يزل يفترقك من بديعة ، ويغضي بك الى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن أراقك وأطف عندك ، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان الى مكان (٩) .

وبين عبد القاهر عدم اهتمام المتقدمين ببحث أسرار هذا الباب واكفائهم بقولهم في الشيء المقدم : انه قدم للعناية ولذا نرى بيانه أهم . كما قال سيبويه وهو يذكر الفاعل والمفعول (١٠) : كأنهم يقدرون الذي بيانه أهم لهم ، هم ببيانه أغنى ، ان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم « ولم يذكر في ذلك مثالا (١١) » .

وذكر عبد القاهر تفسير النحويين لكلام سيبويه فقالوا : اذا كان يعنى الناس في فعل ما من وقع عليه هذا الفعل دون الذي أوقعه فانهم يقدرون المفعول على الفاعل ، واذا كان يعنيتهم في فعل ما من الذي أوقعه فأنهم وأحدثه فانهم في هذه الحالة يقدمون الفاعل على المفعول ...

(٩) دلائل الاعجاز : ١٠٦ .

(١٠) الكتاب : ١٥/١٤/١ .

(١١) دلائل الاعجاز : ١٠٧ .

واستجاد عبد المقاهر هذا التفسير وقال : انه ينبغي أن يعترف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير .

وبين عبد المقاهر أنه لا يكفي أن يقال في الشيء : انه قدم لعناية ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم .

ولما كان الناس أن هذا كاف في بيان سر التقديم صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوتوا الخطب فيه ، حتى رأى أكثرهم أن تتبعه والنظر فيه ضرب من التكاف ؛ وكذلك صرفوا النظر عن سائر أبواب البلاغة الهامة ، كالحذف والتكرار والاظهار والاضمار ، والفصل والوصل (١٢) ش

وينبغي الامام على هؤلاء تساهلهم في أمر هذه الأبواب ، وبين أن ظنهم هذا قد أضرى بهم ، وذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا : مقاديرها ، وحدهم عن الجهة التي هي فيها .

ويتساءل الامام في عجب : ان كانت هذه أموراً هينة ميسورة . من أين كان نظم أشرف من نظم ؟ وبم عظم التفاوت واشتد الجباين وترقى الأمر الى الاعجاز ، والى أن يقر أعناق الجبابرة ؟

أو ههنا أمور تحيل في المزيه عليها ، ونجعل الاعجاز كان بها ، فتكون تلك الحوالة لنا عذرا في ترك النظر في هذه التي معناه والاعراض عنها ، وقلة البالاة بها ؟

ويشدد الامام على هؤلاء المتساهلين ويعظم انكاره عليهم فيقرر

أن هذا التهاون أن نذار العاقل ، خيانة منه لعقله ودينه ، ودخولا فيما
بذى الخطر ويغض من قدر ذوى القدر •

ويزداد عجب عبد القاهر من أمر هؤلاء الناس حيث يهتمون
بالأمور التى لا تدل على الاعجاز ولا يضر عدم معرفتها ، ويتهاونون فى
موضوعات البلاغة التى هى دلائل الاعجاز آيات الفضل والامتياز
فيقول :

وهل يكون أضعف رأيا ، وأبعد من حسن التدبر منك إذا أهمك
أن تعرف الوجوه فى « أفدرتهم » والامالة فى « رأى القمر » وتعرف
« الصراط » و « الزراط » وأشباه ذلك مما لا يعدو ملك فيه اللفظ
وجرس الصوت ، ولا يمنعك أن لم تعلمه بلاغة ولا يدفعك عن بين ،
ولا يدخل عليك شك ، ولا يعلق ذهنك باب معرفة ولا يفضى بك الى
تحريف وتبديل ، والى الخطأ فى تأويل ، والى ما يعظم فيه المعاب
عليك ، ويحيل لسان القادح فيك ، ولا يعنيك ولا يهيك أن تعرف ما
ذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك ... وكان أكثر كلامك فى التفسير ،
وحيث تخرص فى التأويل ، كلام من لا يبنى الشئ على أصله ،
ولا يأخذه من مأخذه ، ومن ربما وقع فى الفاحش من الخطأ الذى
يبقى عاره وتشنع آثاره (١٣) •

والتقديم فى الأساليب لبليغة لا بد من سر يقتضيه ، وعلة ترجحه ،
ومن ثم بين الامام أن من الخطأ أن يجعل التقديم مفيدا فى بعض
الكلام ، وغير مفيد فى بعض ، وأن يعالج قارة بالعناية وأخرى
بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذلك
سجعه ، ذاك لأن من البعيد أن يكون فى جملة الم نظم ما يدور قارة
ولا يدل أخرى ، غمقى ثمت فى تقديم المفعول مثلا فى كثير الكلام أنه

قد اُختص بمادة لا تقول تلك الفائدة مع الأخير فلقد وجب أن تكون تلك القضية في كل شيء وكل حال (١٤) •

ونظرة فيما نقلناه من نصوص عن الإمام عبيد القاسم نجد أنه يقرر بها يلي :

١ - تهاون كثير من الناس في فهم الموضوعات البلاغية وتفريطهم في اعلم بها والبحث في أسرارها •

وإذا كان هذا مما لاحظته الإمام وعابه على المتقدمين ، فإنه قد تجدد وزاد في هذا العصر حتى برزت الدعوات الى هدم البلاغة العربية ، وهجر اللغة الفصحى بوجه علم ، مما يقتضي من العلماء والمهتمين بأمر الاسلام و لعروبة وقفة صلبة في وجه هذه الدعوات •

٢ - طرح الأحكام العامة في لحكم على الأساليب ، ورفض النقد الذي لا يقوم على التحليل والتعليل ، وكشف أسرار التراكيب واظهار خصائص الأساليب •

٣ - تفاوت النظم تبعاً لما فيه من خصائص وسمات ، وارتقاء النظم على غيره بسبب اشتماله على هذه الخصائص حتى نصل الى أعلى نظم وأرفعها ، والذي باغ حد الاعجاز وهو القرآن الكريم •

٤ - علوم البلاغة هي التي تكشف عن اعجاز القرآن الكريم ، وتعين المفسر على فهم كتاب الله فهمها صحيحاً خالياً من الخطأ ، ومن ثم يتعين على الناظر في كتاب الله لتفسيره أن يحيط دائماً بها •

ولا تغني المعرفة بوجوه القراءات وغيرها من الأهرار اللفظية في فهم القرآن ، بل لابد من البراعة في البلاغة والبيان ، لتحقيق السلامة من الأخطاء في تفسير آيات الله وتأويلها •

ولا يفهم من كلام عبد القاهر أنه يدعو إلى إهمال علم من العلوم .
كعلم القراءات أو غيره ، فهذا ما لا يقصده بحال ، إنما يقصد بكلامه
بيان أهمية البلاغة في كتاب الله ومعرفته اعجازه ، وإنها أولى بالمعرفة
والانتقان في هذا المجال .

وقد تأثر الزمخشري بهذه الفكرة ، وذكرها في مقدمة تفسيره
فبين أن علم التفسير لا يتم عاطية . وأجالة النظر فيه إلا لرجل قد
برع في تأمين مختصين بالقرآن ، وهما : علم المعاني وعلم البيان (١٥) .

٥ - للتقديم والتأخير في الأساليب فوائد وأسرار تقتطلب البحث
عنها : ولا يصح الاحتفاء بتعليقها بالعناية ، أو ببعض الألفاظ
كمراعاة السجع والقوافي ، وغير ذلك ، ومن ثم يرى أن تعليل البلاغيين
لبعض حور التقديم وإحذف بأنها للمحافظة على السجع ، أو الناصلة
تعليل سطحي ، ينبغي عدم الانصرار إليه ، ويلزم التأمل في الأساليب
التي علاوها بذلك للبحث فيها عن أسرار معنوية عميقة .

أقسام التقديم :

قسم الأول : التقديم الذي قسمين (١٦) :

أولهما : التقديم الذي نية لتأخير ، وذلك في كل شيء أقررت مع
التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر
الابتداء إذا قدمته على ابتداء والمفعول إذا قدمته على الفاعل ، كقولك :
منطلق زيد ، وضرب عمرا زيد ، فمعاوم أن « منطلق » و « عمرا »
لم يخرج بالتقديم عما كانا عليه ، من كون هذا خبر مبتدأ ومفعول
بذلك وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من آجله ، كما يكون إذا أخرت .

(١٥) الكشاف : ١٥/١ ، ١٦ .

(١٦) دلائل الإعجاز : ١٠٦ .

ثانيهما : تقديم لا على نية التأخير وذلك في كل شيء نقل بسبب التقديم من حكم ومن اعراب الى اعراب : ومثال ذلك : أن تجيء الى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ، ويكون الآخر خبرا له . فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذاك على هذا ومثال ذلك : ما تصنعه بزيد والمطلق ، حيث نقول مرة : زيد المطلق وأخرى : المطلق زيد ، فأنت في هذا لم تقدم « المطلق » على أن يكون متروك على حكمه الذي كان عليه مع التأخير ، فيكون خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن تنقله عن كونه خبرا الى كونه مبتدأ ، وكذلك لم تؤخر « زيدا » على أن يكون مبتدأ كما كان . بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ الى كونه خبرا .

ثم تناول الامام عبد القاهر بعد ذلك أسرار التقديم في الأساليب المختلفة ، فتكلم عن التقديم في الاستفهام ، والنفي ، والتقديم في الخبر المثبت والنفي وتقديم مثل وغير ، وتقديم النكرة وتقديم الفاظ العموم وسنعرض لما ذكره في كل ذلك .

أولا : التقديم والتأخير في الاستفهام :

١ - تقديم المسند اليه وتأخيره :

تحدث عن عبد القاهر عن تقديم المسند اليه وتأخيره على الفعل الماضي ، والفعل المضارع في حال الاستفهام الحقيقي وغير الحقيقي ومحور كلامه في كل ذلك : أن المستفهم عنه هو ما يلي الهمزة ، فإذا قدمت الفعل وبدأت به كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قدمت الاسم وبدأت به كان الشك في الفاعل من هو ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم من هو الفاعل .

وبدا ببيان في الاستفهام الحقيقي مقال . نقول : أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله ؟

أفرغت من الكتاب لادى كنت تكتبه ؟ نادأ فى هذا ونحوه وبالفعل لأن السؤال عن الفعل نفسه ، والشك فيه ، لأنك فى جميع ذلك متردد فى وجود الفعل وانتقائه ، فيجوز أن يكون قد وقع ، وأن يكون لم يقع .

وتقول : أنت بنيت هذه الدار ؟ أنت قلت هذا الشعر ؟ أنت كتبت هذا الكتاب ؟ فتبدأ فى هذا كله بالاسم ، لأنك لم تشك فى وقوع الفعل ، بدليل أنك أشرت إليه واقعا ، وإنما شككت فى الفاعل من هو ؟ أنت أم غيرك (١٧) .

وعلى هذا النحو تجيء الأساليب العربية ، فيقدم فيها ما يستفهم عنه ، وما يشك فيه ، من فعل ، أو فاعل ، أو معقول ، أو حال ، أو غير ذلك .

فاذا قدم المتكلم ما لا يشك فيه ، ولا يستفهم عنه ، كان كلامه فاسدا وقد بين عبدالقاهر هذا فقال : فلو قلت : أنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أنت قلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ أنت فرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ — وأنت تشك فى الفعل وتسال عن وقوعه من عدمه — خرجت من كلام الناس .

وكذلك لو قلت : أبنيت هذه الدار ؟ أقلت هذا الشعر ؟ اكتب هذا الكتاب ؟ — وأنت تشك فى الفاعل وتسال من هو ؟ — قلت ما ليس بقول ؟ ذلك لفساد أن تقول فى الشيء المشاهد الذى هو نصب بينك أموجود أم لا (١٨) .

وقد علل الامام سعاد الكلام الأخير بعلة عقلية هوية . فمن اشارة المتكلم الى الفعل تقتضى وجوده ، وتقديم الفعل يقتضى الاستفهام عن

(١٧) ١ . ٢ دلائل الاعجاز ١١١ ، ١١٢ .

(١٨) دلائل الاعجاز : ١١١ ، ١١٢ .

وجوده، وفي هذا تناقض ، ذلك لا يحفل أن يستفهم الانسان عن وجود شيء موجود وهو يشاهده ويشير اليه *

ولم يعلل عبد القاهر فساد الكلام الذي قبله ، وعلة فساده ظاهرة وهي : أن تقديم الفاعل يقتضى وقوع الفعل ووجوده ، وأن الاستفهام عن فاعله من هو ؟ وقولك : التي كنت على أن تبنيها وما يشبهها في باقى الأمثلة يفيد أن الشك في الفعل وأن المطلوب معرفة وقوعه من عدم وقوعه (١٩) *

ورأى عبد القاهر في فساد الأمثلة لمباينة وما شاكلها مخالف لرأى سيبويه الذى أجازها وحكم عليها بانصحة ، وبين أن المسئود عنه في قولك : أزيد عندك أم عمر ؟ وأزيدا لقيت أم بشرا ؟ هو أحد الشخصين، وفي هذه الحالة يكون تقديم الاسم أحسن ، ولو قلت فيه : أزيدك زيد أم عمرا ؟ وأنشيت زيدا أم بشرا ؟ كان جائزا حسنا ولكن تقديم الاسم أحسن منه وإذا سألت عن الفعل قلت : أضريت زيدا أم قتلت ؟ فتبدأ بالفعل وهو الأحسن (٢٠) *

ومن هذا نرى أن رأى عبد القاهر مخالف لرأى سيبويه في الحكم على هذه الأمثلة ونحوها *

وقد ذكر ادمايينى رأى سيبويه السابق ، وما ل أن مثل هذا الرأى لابن عصفور في المقرب ، وعلق الشمس الأنبيى على ما ذكره الدمايينى بقوله : أن كان مراده بين طريقة اسحاة غالأمر ظاهر ، وأن كان مراده معارضة كلام المصنف بكلامهم ففيه أنه لا يعترض بمذهب

(١٩) ينظر دلالات التراكيب : ٢١٧ *

(٢٠) الكتاب ١/ ٤٨٣ ، ٤٨٧ *

- على مذهب ، لأنه قد يكون الأحسن عند النحوى واجب عند البليغ .
- على أنه يمكن حمل كلام المصنف على الأحسنية (٢١) .

وناقش الأستاذ / لدكتور محمد أبو موسى هذه المسألة في كتابه « البلاغة القرآنية » ولم يسلم بحمل كلام عبد القاهر على الأحسنية ، وقال أن عبارته صريحة في أن هذا الأسلوب فاسد وخطأ وحارج من كلام الناس ، وأيد رأى سيبويه في صحة هذا الأسلوب لأنه شافه الأعراب ونقل عنهم ولم ينتهياً مثل هذا لعبد القاهر (٢٢) .

وعاد الدكتور أبو موسى لهذه المسألة في كتابه « دلالات التراكيب » وقال : أن الجواز الذى ذكره سيبويه لا مشاحة فيه ، وما ذكره عبد القاهر مما يتصادم مع كلام سيبويه إنما هو الأسلوب الأشهر والأفصح ، وإن عبد القاهر مخالفته خروجاً عن كلام الناس ، وفي عبارة سيبويه ما يشير إلى ضعف الأسلوب الذى رفضه عبد القاهر (٢٣) وأرى بعد عرض هذه الآراء أن كلا من الشيخين قد حكم على الأساليب بمقتضى مذهبه : فسيبويه يحكم على التركيب من منطلق الصحة النحوية ومن ثم رأى جواز هذه الأساليب لعدم مخالفتها للقواعد النحوية .

وعبد القاهر يحكم على التركيب من منطلق الصيغة البلاغية التى ترتفع فوق مستوى الصحة النحوية لتنتقى أفضل الأساليب الجائزة وأفصحها ، وترفض ما عداها .

ومن ثم قد يجيز بعض النحاة أسلوباً ويرى فيه البلاغيون خروجاً عن قواعد الفصاحة ومراسم البلاغة ، كما فى أمثلة ضعف التأليف والتعقيد .

(٢١) تجريد البياض مع تقرير الشمس الانبائى : ١١٤/٣ .

(٢٢) البلاغة القرآنية : ١٠٢ - ١٠٤ .

وعلى أساس الصياغة البلاغية التي تبحث عن أفصل الأساليب
رخص عبد القاهر الأمثلة المسبقة دون نظر إلى جوازها سهوياً .

ويمكن أن يكون قول عبد القاهر : خرجت من كلام الناس ،
مؤيداً لما ذكرناه من حيث يكون قصده بكلام الناس : كلام «فصحاء
والبلغاء لا الكلام» .

ومؤكد لأمام عبد القاهر ما سبق أن ذكره من أن المستفهم عنه
هو ما يلي انهمزة ، وأن تقديم الفعل يقتضى أن يكون النسك ميبه ،
والسؤال عن وقوعه أو عدم وقوعه ، وأن تقديم الاسم يقتضى أن يكون
النسك فيه والمطلوب ببيان من هو ؟ فيقول :

وما يعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم ،
أذلك تقول : كنت شعراً قط ؟ رأيت اليوم انساناً فيكون كلاماً مستقبلاً ،
ولو قلت : أنت قلت شعراً ، لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا ،
بالحال — وذلك أنه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا ،
لأن ذلك إنما يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص ذهري أن
تقول : من قال هذا الشعر ؟ ومن بنى هذه المدار ؟ ومن أذاك اليوم ؟
ومن أذن لك في الذي فعلت ؟ وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه
على معين ، فأما قل شعر على الجملة ، ورؤية انسان على الإطلاق
فمحال ذلك فيه ، لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن
عين فاعله .

ولو كان تقديم الاسم لا يوجب ما ذكرنا ، من أن يكون السؤال
عن الفاعل من هو ؟ وكان يصح أن يكون سؤالاً عن الفعل أكان أم لم
يكن ؟ لكان ينبغي أن يستقيم ذلك (٢٤) .

(٢٣) دلالات التراكيب : ٢١٩ .

(٢٤) دلالات الاعجاز : ١١٢ .

ففى هذا النص يسوق الامام دليلا آخر يؤكد الأصل الذى ذكر
فى تقديم الفعل وتقديم الاسم، وهو : صحه قولنا : أقلت شعرا قط ؟ أرايت
اليوم انسانا ؟ وفساد قولنا : أأنت قلت شعرا قط ؟ قولنا رأيت اليوم
انسانا ؟ وذلك لأننا سألنا فى المثالين الأولين عن الفعل لوقوع أو لم
يقع ، وفى المثالين الآخرين سألنا عن الفاعل ، والفاعل فى مثل هذه
الحالة لا يصح السؤال عنه ، لعدم تعيين الفعل ، وتحديد ولا معنى
للسؤال عن الفاعل فى فعل لم يحدد ولم يعين ، ولو أردنا
السؤال عن أن السؤال قد شعرا أو لم يقل ، أو رأى انسانا أو لم ير
انسانا لقد علمنا الفعل دما فى المثالين الأوليين ، وبهذا يتضح أن تقديم
الاسم ليس كتقديم الفعل .

وذكر الدكتور شوقي ضيف العلة فى فساد قولنا : أنت قلت
شعرا قط ؟ فقال : لأن المسائل جمع فى سؤاله بين اثبات الفعل والمسال
فى حدوثه ، اذ السؤال مسلط على الشخص لا على فعله فنان يشبه ،
ألا يضيف كلمة قط (٢٥) .

وهذه العلة ليست فى كلام عبد القاهر ، ولا تفهم منه ، وانما
ذلك فساد ذلك بما ذكرناه من عموم الفعل ولا معنى للسؤال عن فاعل
فعل لم يعين .

والدكتور شوقي ضيف يجعل سبب فساد السؤال كلمة « قط »
وكان القائل لو حذفها لصح السؤال ، وهذا ما لم يقله عبد القاهر
بدليل أنه حكم بفساد قولنا : أنت رأيت اليوم انسانا ؟ وليس فيه
كلمة « قط » (٢٦) .

الاستفهام التقريرى :

وبعد أن بين عبد القاهر سر تقديم كل من الفعل والاسم فى

(٢٥) البلاغة تطور وتاريخ : ١٧٣ ، ص ١٠٠ .

(٢٦) ينظر البلاغة القرآنية : ٩٧ ، ٩٨ ودلالات التاكيب : ٢١٧ .

الاستفهام الحقيقي ، أخذ في بيان ذلك في الاستفهام التقريري ، فذكر أن الأمر فيه لا يختلف عن سابقه ، فإذا قدم الاسم كان الغرض التقرير به ، وإذا قدم الفعل كان الغرض التقرير به .

ومثل للتقرير بالفاعل بقوله تعالى حذية عن قول فەروز : (أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) (٢٧) فلا شبهة في أنهم لم يمولوا ذلك لابراهيم عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد وقع منه بدليل أنهم أشاروا إلى الفعل في قولهم : «أنت فعلت هذا ؟» وقال هو في الجواب : (بل فعله كبيرهم هذا) (٢٨) ، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : فعلت ، أو : لم أفعل (٢٩) .

وقد استدل عبد القاهر على أن التقرير في الآية تقرير بالفاعل بدليين :

أولهما : إشارتهم إلى الفعل واقعا وحادثا ، ولا يعقل أن يسألوا عنه وهم يشيرون إليه .

ثانيهما : جواب ابراهيم عليه السلام بتعيين الفاعل ، ولو كان مؤلهم عن الفعل لمقال : فعلت أو لم أفعل .

ويثير الامام سؤالا عن الفرق بين التقرير بالفاعل والتقرير بالفعل هو : أنك إذا قلت : أنت فعلت ؟ كان غرضك أن تقرره بأن الفعل كان منه ، لا بأنه كان على الجملة ، غاي فرق بين الحالين ؟

ويجيب عن هذا السؤال بقوله : اذا قال : أفعلت ؟ فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره ، وكان كلامه من يومهم أنه

(٢٧) الأنبياء : ٦٢ .

(٢٨) السابق : ٦٣ .

(٢٩) دلائل الإعجاز : ٢١٤ .

لا يدري أن ذاك الفعل كان على الحقيقة ، وإذا قال : أنت فعلت كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره ، ولم يكن منه تردد في وقوع نفس الفعل ، وكلامه لا يوهم أنه لا يدري أوقع ذلك الفعل أم لم يقع ، بدليل أنه يقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار إليه كما في الآية (٣٠) .

الاستفهام الانكاري :

وخرج عبد القاهر من الاستفهام التقريرى الى بيان سر التقديم في الاستفهام الانكارى وأنه لا يختلف عن الأصل الذى ذكره ، فإذا قدم الفعل كان الانكار موجهًا الى الفعل ، وإذا قدم الاسم كان الانكار موجهًا اليه ، ومثل في ذلك بقوله تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة ابناءا امكم لتقرأون قولاً عظيماً) (٣١) وقوله تعالى (اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون) (٣٢) وبين أن الانكار فيهما منسوب على الفعل وهو انكار أن يكون الفعل قد كان من أصله وقد سماه البلاغيون : الانكار التذييى .

وأشار الى أن الاسم إذا قدم في هذا صار الانكار في الفاعل كقواك للرجل قد انتحل شعرا : أنت قلت هذا الشعر ؟ كذبت ، لست ممن يحسن مثله ، فأفكرت أن يكون القائل ، ولم تذكر الشعر (٣٣) .

وتحدثت عن صورته أخرى من صور انكار الفعل ، يأتي التقويى فيها أى صورة انكار الفاعل ، وضابطها كما يفهم من كلام عبد القاهر : أن يلى الهمزة معمول الفعل المنكر ، ويكون المراد انكار الفعل ، ولا يكون للفعل غير ذلك معمول من كونه واقعاً منه أو عليه ، أو رمنه

(٣٠) السابق : ١١٤ .

(٣١) الاسراء : ٤٠ .

(٣٢) الصافات : ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣٣) دلائل الإعجاز : ١١٥ .

لله ، أو مكانا ، فحيث انتفى ذلك المعمول انتفى الفعل لزوم لأنه ليس له الا ذلك المعمول . ومنها قوله تعالى : (قل آله أذن لكم أم على الله تفترون) (٣٤) ، الاذن راجع الى قوله تعالى (قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) (٣٥) ومعلوم ان المعنى على انكار أن يكون اذن من الله فيما قالوه من غير أن يكون هذا الاذن قد كن من غير الله تعالى فأضافوه الى الله ، الا أن اللفظ أخرج على هيئة انكار المفضل ، لأنه لا فاعل للفعل غيره ، فاذا انتفى الفاعل فقد انتفى الفعل من أصله .

ومنه قوله تعالى : (قل لذكرين حرم أم الأثيين أما اشتمت عليه أرحام الأثيين) (٣٦) أخرج اللفظ مخرجه اذا كان قد ثبت تحريم في أحد أشياء ، ثم أريد معرفة عين المحرم ، مع أن المراد انكار التحريم من أصله ونفى أن يكون قد حرم شيء مما ذكروا أنه محرم وذلك أن الكلام وضع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان ثم يقال لهم : أخبرونا عن هذا التحريم الذي زعمتم ، ذيم هو ؟ أي هذا أم ذاك أم في الثالث ؟ ليتبين بطلان قولهم ، ويظهر مكان الثرية منهم على الله تعالى (٣٧) .

التقديم في الاستفهام والفعل مضارع :

كان حديث الامام فيما سبق عن التقديم في الاستفهام والفعل ماض ، ومن ثم أخذ في الحديث عنه والفعل مضارع .

• (٣٤) سورة يونس : ٥٩ .

• (٣٥) سورة يونس : ٥٩ .

• (٣٦) الأنعام : ١٤٣ .

• (٣٧) دلائل الإعجاز : ١١٥ .

والأصل الذي قرره زيد القاهر من أن المقدم هو المنوط بالكلام
فعلا أو اسما أصل يجرى في جميع الحالات ولا يختلف الكلام إلا في
الأغراض التي يفيدها كل أسلوب .

وقد بين أن الفعل المضارع قد يراد به الحال أو الاستقبال .

فاذا قلت : أتفعل ؟ وأنت تريد الحال ، كان المعنى على أنك أردت
أن تقرره بفعل هو يفعله ، وكنت كمن يوهم أنه لا يعلم بالحقيقة
أن الفعل كائن .

واذا قلت : أنت تفعل ؟ كان المعنى على أنك تريد أن تقرره
بأنه النازل وكان أمر الفعل في وجوده ظاهرا ، ولا يحتاج إلى الاقرار
بأنه كائن .

وان كنت تريد بالمضارع المستقبل ، ويدت بالفعل فقلت : أتفعل ؟
كان المعنى أنك عمدت بالإنكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون
أو أنه لا ينبغي أن يكون فمثال الأول قول الشاعر :

أيقتلني والمشرقى مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أخوال

فهذا تكذيب منه لأنسان تهدده بالقتل ، وامكار أن يقدر على
ذلك ويستطيعه ومثال الثاني قواك لرحل يركب الخطر : أتخرج في
هذا الوقت ؟ أتذهب في غير الطريق ؟ أتغرر بنفسك ؟

وقد سمي البلاغيون القسم الأول : الإنكار التكذيبي ، وهو ما
يتوجه الإنكار فيه إلى نفس الفعل ، والقسم الثاني : الإنكار
التوبيخي ، وهو ما يتوجه الإنكار فيه إلى الانبغاء .

واذا بدأت بالاسم في المضارع المستقبل فقلت : أنت تفعل ؟
أو قلت : أهو يفعل ؟ كنت وجهت الإنكار إلى نفس الاسم المذكور

وَأَبَيَّتْ أَنْ تَكُونَ بِمَوْضِعِ أَنْ يَجِيءَ مِنْهُ الْفِعْلُ وَمَنْ يَجِيءُ مِنْهُ ، وَأَنْ يَكُونَ
يَهْتَكُ الْمَثَابَةَ (٣٨) •

وبهذا يؤكد الامم الأصل الذي ذكره في أول الباب من أن تقديم
الفعل يقتضى أن يكون الكلام موجهًا إلى الفعل وتقديم الاسم يقتضى
أن يكون الكلام موجهًا إلى الاسم •

٢ - تقديم المفعول في الاستفهام :

والأمثلة التي ذكرها الامم فيما سبق كانت في الحديث عن الفعل
والفاعل ، والأصل الذي ذكره ومضى في اثباته أصل عام لا يخص
بالمفعول والمفعول فقط ولكنه ينطبق على المفعول والمحال غير ذلك ، ومن
ثم أخذ الامم في تعميم هذا الأصل ، فتحدث عن تقديم المفعول
وأسرارها •

وقد بين أن حال المفعول في كل ما ذكره كحال الفاعل ، فتقديم
المفعول يقتضى أن يكون الكلام موجهًا إليه •

فإذا قصدت الإنكار وقلت : أزيدا تضرب ؟ كنت قد أنكرت
أن يزيد بضم زيد بمثابة أن يضرب ، أو بدو صم أن يجتـراً عليه ويستجاز
ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قدم « غير » في قوله تعالى (قل أغير الله
أأخذ وليا) (٤٠) وكان له من الحسن والمزية والغفامة ما لا يكون له لو
أنذر فقيل : قل أأخذ غير الله وليا ؟ وأتدعون غير الله ؟ وذلك لأنه قد
أحصل بالتقديم معنى قواك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟
أو أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى ؟

(٣٨) دلائل الإعجاز : ١١٦ • ١١٧ •

(٣٩) الأنعام : ١٤ •

(٤٠) الأنعام : ٤٠ •

من ذلك ؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قدم الفعل وذلك لأن الانكسار حينئذ سينصب على أن يكون الفعل فقط ولا يزيد على ذلك (٤١) وبهذا ينتهي حديث الامام عن التقديم في الاستفهام .

ثانيا : التقديم والتأخير في النفي :

١ - تقديم المسند اليه وتأخيره :

تحدث الامام في هذا الفصل عن تقديم المسند اليه وتأخيره على الفعل في حال مجيء المسند اليه بعد النفي :

ويصور حديثه حول أصل ثابت هو :

أن تقديم الفعل في المنفى يقتضى نفى الفعل عن الفاعل ولا يقتضى ثبوت وقوع هذا الفعل ؟ وأن تقديم الفاعل يقتضى نفى الفعل عن الفاعل ويقتضى ثبوت هذا الفعل ووقوعه من غيره .

يبين الامام ذلك فيقول : اذا قلت : ما فعلت ، كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول ، واذا قلت : ما أنا فعلة ، كنت نفيت فعلا ثبت أنه مفعول .

تفسير ذلك : انك اذا قلت : ما ضربت زيدا ، كنت نفيت عنك ضربه ، ولم يجب أن يكون قد ضرب ، بل يجوز أن يكون ضربه غيرك وأن لا يكون قد ضرب أصلا ، واذا قلت : ما أنا ضربت زيدا ، لم تقله الا وزيد مضروب ، وكان المقصد أن تنفى أن تذكر أنت الضارب (٤٢) وبهذا يكون التقديم للسائل على المنع في النفي مفيدا للتخصيص في رأى الامام عبد المتاخر .

(٤١) دلائل الاعجاز : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٤٢) دلائل الاعجاز : ١٢٤ .

ويؤكد على أن تقديم الاسم يقتضى وجود الفعل بمثال بين هو
قول المتنبي :

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضربت في القلب نارا

فالمعنى كما لا يخفى ، على أن المسقم ثابت موجود ، وليس
القصد بالنفى اليه ، ولكن الى أن يكون هو الجالب له ، ويكون قد
جره الى نفسه (٤٣) ويترتب على هذا الفرق بين تقديم الفعل وتقديم
الاسم صحة بعض الأساليب وفساد بعضها ، وهي في نفس الوقت
دليل على وجود هذا الفرق .

ففي حالة تقديم الفعل يصلح أن يكون المنفى عاما كقراك : ما قلت
شعرا قط ؟ وما أكلت اليوم شيئا ؟ وما رأيت أحدا من الناس .

وفي حالة تقديم الاسم لا يصلح ذلك ، فيكون قولك : ما أنا قلت
شعرا قط ؟ وما أنا أكلت اليوم شيئا ؟ وما أنا رأيت أحدا من
الناس ، فاسدا .

وقد عأل الامام فساد هذا بقوله : لأنه يقتضى المبال ، وهو
أن يكون ههنا انسان قد قال كل شعر في الدنيا ، وأكل كل شيء يؤكل ،
ورأى كل أحد من الناس ، فنفيت أن تكونه (٤٤) ولتفصيل هذه العلة
نقول : ان الامام عبد الفاهر وجمهور البلاغيين يرون أن قولك ما أنا
أهنت خالدا يقتضى ثلاثة أمور هي :

- ١ - التحصيص ، أى قصر نفى الفعل على الاسم المتقدم .
 - ٢ - ثبوت المافعل ونسليم حصوله ، وأنه منفى عن المسند اليه
- المقدم .

(٤٣) السابق : ١٢٥ .

(٤٤) السابق : ١٢٤ .

٣ - أن ثبوت الفعل لغير المسند اليه يكون على حسب النفي
عموما وخصوصا (٤٥) •

وبناء على هذا الأهر الثالث كانت الأمثلة السابقة فاسدة وذلك
لأن الفائل نفي عن نفسه الأعمال نفيا عاما ، ويترتب على ذلك أن تثبت
لغيره ثبوتا عاما ، فيكون انسان قد قال كل شعر في الدنيا ، وأكل كل
شيء يؤكل ، ورأى كل أحد من الناس •

وانما صحت الأمثلة التي قدم فيها الفعل مع أن النفي فيها عام،
لأن ثبوت الفعل فيها غير مسلم ، فصح نفيه ، ولا يازم من ذلك
الفساد ، لأنه منفي من أصله فلم يثبت بصورة العموم لأحد
مطلقا (٤٦) •

وساق عبد القاهر دليلين آخرين يؤكد بهما الفرق بين تقديم
الفعل وتقديم الاسم في النفي •

أولهما : أنه يصح لك أن تقول : ما قلت هذا ، ولا قاله أحد من
الناس ، وما ضربت زيدا ولا ضربه أحد سوى ، ولا يصح أن تقول :
ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس ، وما أنا ضربت زيدا ولا ضربه
أحد سوى ، بتقديم الاسم على الفعل لما في الأسلوب من التناقض •
وإذا قلت بعده : ولا قاله أحد من الناس ، حدث تناقض بين
مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية •

وكذلك إذا قلت : ما أنا ضربت زيدا ، أفدت نفي ضرب زيد عن
نفسك وأثبتته لغيرك ، فإذا قلت بعده : ولا ضربه سوى ، حصل
تناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية (٤٧) •

(٤٥) نذرات في البلاغة : ١٥٥ •

(٤٦) اسباق : ١٥٧ ، وينظر المطول : ١١١ •

(٤٧) ينظر دلائل الإعجاز : ١٢٥ •

ولإبطالان هذ الأسلوب وجه آخر هو : أن هذا التركيب يفيد ثبوت القول والضرب ، ونفيهما عنك ، ونفيهما عن جميع من عندك ، وعليه يازم ثبوت قول من غير قائل ، وضرب من غير ضارب ، وهذا محال (٤٨) .

ثانيهما : أنه يصح أن تقول : ما ضربت إلا زيدا ، بتقديم الفعل ، ولو قلت : ما أنا ضربت إلا زيدا ، كان لغوا من القول لا يصح .

وقد علل عبد القاهر فساد هذا القول بأن نقض النفي بـ « إلا » يقتضى أن تكون ضربت زيدا ، وتثنيك ضميرك ، وإيلاؤه حرف النفي يقتضى أن لا تكون ضربته ، فهما يتدافعا (٤٩) وقد علل السكاكي فساد هذا الأسلوب بنفس هذه العلة (٥٠) .

وعلل الخطيب فساد هذا القول بعلة أخرى هي : أن هذا التعبير يفيد نفي ضرب المتكلم لكل واحد منهم سوى زيد ، ويترتب على هذا أن إنسانا غير المتكلم قد ضرب كل واحد منهم ماعدا زيدا وهذا محال (٥١) .

وبهذين الدليلين ، والدلائل السابق عليهما أثبت عبد القاهر الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم في النفي .

وقد رأينا أنه حكم على بعض الأساليب بالفساد ، وبين علة فسادها ، ويازم لتصحيح هذه الأساليب أن يقدم الفعل فيها على الاسم ، فيقال : ما قلت شعرا قط ، أو ما قلت أنا شعرا قط ، أو ما ضربت أنا إلا زيدا أو ما رأيت أنا أحدا من الناس .

(٤٨) دراسات تفصيلية : ٢٦٧ .

(٤٩) دلائل الإعجاز : ١٢٦ .

(٥٠) مفتاح العلوم : ١١١ .

(٥١) الإيضاح : ٥٤/٢ .

أو يقدم الاسم على النفي فيقال : أنا ما قلت شعر قط ، وأنا ما رأيت أحدا من الناس ، وبهذا تصح هذه الأساليب (٥٢) .

ويرى الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم موسى أن الذي ذكره عبد القاهر من أن تقديم المسند إليه على الخبر المفعلى مع دونه والى حرف النفي يفيد التخصيص قطعاً ليس على إطلاقه ، وإنما هو امر غالب لا لازم ، لأن المتكلم حتى يسلط لنفى على الفاعل لا يلزم منه ثبوت الفعل ، لأن الفعل مسكوت عنه ، فيمكن أن يكون ثبت كما في أمثلة الاختصاص التى ذكرها عبد القاهر ، وقد يكون غير ثابت كما في قولنا : ما أنا قلت هذا ، أى هذا الذى تزعمون أنه قيل وقد جاء هذا التركيب فى القرآن الكريم من غير أن يكون دالاً على الاختصاص وذلك كقوله تعالى . (أو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأذهم بعتة فتبهتهم فلا يستطيون ردها ولا هم ينظرون) (٥٣) فقوله : « ولا هم ينصرون » « ولا هم ينظرون » قدم فيه المسند إليه على الخبر المفعلى وهو مسببون بحرف النفي ومع هذا يفيد التقوية فقط ، لأن الاختصاص يعنى أن غيرهم ينصر من عذاب الله وينظر حين تأذيه الساعة وذلك لا يكون (٥٤) .

وأرى أنه يمكن فهم ما فى الآيتين على التخصيص ، ويكون المراد - والله أعلم - أنه فرض أن هناك من ينصرون ومن ينظرون فهؤلاء الكادرون لا ينصرون ولا ينظرون ، مع اليقين بأنه لا نصر ولا انظار لأحد ، وفى هذا الأسلوب تنديد وتعريض بهم ، وتقطيع لحالهم ببيان اختصاصهم بذلك ، نظراً لما ارتكبوه من ذنب عظيم .

(٥٢) المطول : ١١١ ، والإيضاح : ٥٣/٢ ، ٥٤ .

(٥٣) الأنبياء : ٣٩ ، ٤٠ .

(٥٤) خصائص التراكيب : ١٧٩ .

٢ - تقديم المفعول في النفي :

وهذا الأصل الذي ذكره الامام في تقديم المسند اليه وتأخيريه في النفي طبقه أيضا على تقديم المفعول وتأخيريه ، فقال : اذا قلت ما ضربت زيدا ، فقدمت الفعل كان المعنى انك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد ولم تعرض في أمر غيره لنفي ولا اثبات ، وتركته مبهما محتملا .

واذا قلت : ما زيدا ضربت ، فقدمت المفعول كان المعنى على أن ضربا وقع منك على انسان ، وطمأن أن الانسان زيد ، فنفيت أن يكون أياه (٥٥) .

فتقدم الفعل على المفعول يفيد نفي ضربك لزيد ، ولا يثبت أنك ضربت أحدا غيره أو بنفيه .

وتقديم المفعول على الفعل يفيد نفي ضربك لزيد ، ويثبت أنك ضربت أحدا غيره .

ويترتب على هذا أنه يصح أن تقول : ما ضربت زيدا ولا أحدا من الناس ، لأن الفعل غير متعين ثبوته ، فيصح نفيه من أصله . ولا يصح أن تقول : ما زيدا ضربت ولا أحدا من الناس . وقوع التناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية ، لأن تقديم المفعول يمسد وقوع ضرب منك على أحد غير زيد تحقيقا لمعنى الاختصاص وقواك : ولا أحدا من الناس ينفي ذلك (٥٦) وبهذا بقى التناقض المؤدى الى فساد الأسلوب .

وبناء على الأصل المذكور أيضا يصح لك أن تقول : ما ضربت زيدا ولكنى أكرمته ، فتعقب الفعل المنفي بإثبات فعل هو ضده ، لأن الفعل

(٥٥) دلائل الإعجاز : ١٢٦ .

(٥٦) المطول : ١٩٨ .

الأول غير مثبت ، فالخطأ وقع في الفعل فرددت الكلام الى المصواب وهو الاكرام .

ولا يصح أن تقول : ما زيدا ضربت ولكنى أكرمته ، وذلك لأن الخطأ وقع في المصروب لا في الفعل ، فكان عليك أن ترد الكلام الى المصواب بتعيين المصروب ، حيث أن الضرب ثابت كما هو مقتضى تقديم المفعول ومن ثم كان عليك أن تقول : ما زيدا ضربت ولكن عمرا (٥٧) .

ومما سبق يرى أن تقديم المفعول على الفعل يفيد التخصيص في رأى الامام عبد القاهر .

والجار والمجرور يأخذ حكم المفعول في ذلك ، وقد أشار عبد القاهر لاي هذا فقال : وحكم الجار والمجرور في جميع ما ذكرنا حكم المنصوب ، فإذا قلت : ما أمرتك بهذا ، كان المعنى على نفسى أن تكون قد أمرته بذلك ، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر وإذا قلت : ما بهذا أمرتك ، كنت قد أمرته بشيء غيره (٥٨) .

فالفعل ثابت في حال تقديم الجار والمجرور عليه ، وغير مقطوع بثبوته أو نفيه في حال تقديمه على الجار والمجرور .

وبناء على هذا فلا يصح أن تقول : ما بهذا أمرتكم ولا بعيره لوقوع القناعض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الثانية ، كما قدمنا .

وتسرى هذه الاحكام على الظرف وحال ونحو ذلك (٥٩) .

(٥٧) دلائل الاعجاز : ١٢٧ .

(٥٨) دلائل الاعجاز : ١٢٧ .

(٥٩) المطول : ١٩٨ .

ثالثا : التقديم في الخبر المثبت :

بعد أن فرغ الامام من الحديث عن التقديم والتأخير في النفي عقد فصلا للحديث عن التقديم والتأخير في الخبر المثبت ، وقد بين في أوله أن تقديم الفاعل على الخبر الفعلي يقتضى أن يكون القصد بالحديث الى الفاعل ، كما سبق في الاستفهام والنفي •

ثم قسم الغرض من تقديم الفاعل وتقصده بالحديث الى قسمين :

الأول : أن يكون الغرض قصر المنع المذكور على المسند اليه المقدم •

والثاني : أن يكون الغرض افادة تقوية الحكم وتوكيده •

والقسم الأول كما قال عبد القاهر ظاهر جلي لا يتسلل بقديبيه بقوله : هو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له ، ونزع عم أنه فاعله دون واحد آخر ، أو دون كل أحد ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت في معنى فلان ، وأنا شفت في بابه تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به ، وتزيل الاشتباه فيه وتقر على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتب ، ومن البين في ذلك قولهم في المثل : أعلمني بخب أنا حرشته — أي صدته — وقد أوحى كلام عبد القاهر في هذا القسم الى البلاغيين بتقسيم القصر الى حقيقي وإضافي وتقسيم الإضافي الى أفراد وقلب وتعين •

والقسم الثاني : قد فصل الامام الحديث فيه فنكر ضابطه ومثل له بعدد من الأمثلة وحللها دقيقا ، وذكر السر في أن هذا القسم يفيد التأكيد والتقوية ، ثم ساق ثمانية أدلة لاثبات أنه يفيد التقوية والتأكيد

وهي تدور حول استعمال هذا الأسلوب في المقامات التي تحتاج الى تقوية الكلام وتأكيدہ .

وضابط هذا القسم كما قال الامام . أن لا يكون القصد الى الفاعل على معنى القصر ، ولكن على أنك أردت التحقق على السامع أنه قد فعل ، وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولا ومن قبل أن نذكر الفعل في نفسه ، لكي تباعده بذلك من الشبهة، وتمنعه من الإنكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التريد .

ومثاله قولك : هو يعطى الجزيل ، وهو يحب الثناء لا تريد أن ترغم أنه ليس هنا من يعطى الجزيل ويحب الثناء غيره ، ولا أن تعرض بانسان وتخطئه عنه وتجعله لا يعطى كما يعطى ، ولا يرغب في الثناء كما يرغب ، ولكك تريد أن تحقق على السامع أن اعطاء الجزيل وحسب الثناء دأبه ، وأن تمكن ذلك في نفسه (٦١) .

ومثاله في الشعر :

هم يفرشون اللبد كل طمرة وأجرود سباح يبذ المغالبا
لم يرد أن يدعى لهم هذه المصنفة دعوى من يمردهم بها ***
وانما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل ويقتعدون
الجياد منها وأن ذلك دأبهم من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم ، الا أنه
بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم ويعلم بديا قصده اليهم بما في نفسه
من الصفة لينبهه ذلك من الشك ، ومن توهم أن يكون قد وصفهم
بصفة ليست هي لهم ، أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط اليه
ومن البين فيه قول عروة بن أذينة :

سليمى أزمعت بينا فأمين تقولها أينا

(٦١) دلائل الإعجاز : ١٢٨ - ١٣٠ .

وذلك أنه ظاهر معلوم أنه لم يرد أن يجعل هذا 'الازماع' لها
خاصة ، ويجعلها من جماعة لم يزعم البين منهم أحد سواها هذا محال
ولكنه أراد أن يحقق الأمر ويؤكد ، فأوقع ذكرها في سمع الذي كلم
ابتهاء ومن أول الأمر ، ليعلم قبل هذا الحديث أنه أرادها بالحديث
فيكون ذلك أبعد له من الشك (٦٢) •

وذكر عبد القاهر لذلك مثالين من القرآن الكريم فقال : وأبين من
الجميع قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم
يخافون) (٦٣) وقوله تعالى (٦٤) (وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا
بالكفر وهم قد خرجوا به) (٦٥) •

ولم يعلق عليهما لظهور أن التقديم فيها لتحقيق الحكم وتأكيده
فمحال أن يكون قوله تعالى « وهم يخلقون » أنهم قد انفردوا بذلك
واختصروا به ، كذلك لا يمكن أن يكون قوله تعالى « وهم قد خرجوا به »
مقصودا به معنى القصر والاختصاص بهذه الصفة دون غيرهم •

السر في أن هذا القسم ينفذ التأكيد والتقوية :

وبين عبد القاهر السر في أن هذا القسم من تقديم المسند اليه
على الخبر الفعلي يفيد تقوية الحكم وتأكيده فقال : أن ذلك من أجل
أنه لا يأتي بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسفاده
اليه ، وإذا كان كذلك ، فإذا قلت : عبد الله ، فقد أشعرت قلبه بذلك
أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قسم
أو قلت : حرج ، أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له

(٦٢) دلائل الإعجاز : ١٢٨ - ١٣٠ •

(٦٣) الفرقان : ٣ •

(٦٤) المائدة : ٦١ •

(٦٥) دلائل الإعجاز : ١٣١ •

وقد مدت الاعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قول المهيأ له المطمئن ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وانفى للشبهة وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق .

وجملة الأمر أنه ليس اعلامك الشيء بغقة عقلا مثل اعلامك به بعد التنبيه والتقدمة له ، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الاعلام في التأكيد والاحكام . ومن هنا قالوا : ان لشيء اذا أضمر ثم فسر ، كن ذلك أقدم له من أن يذكر من غير مقدمة أضمار .

ويدل على صحة ما قلناه أن نعلم ضرورة في موله تعالى . (فانها لا تعمى الأبصار) (٦٦) . فخامة وشرفا وروعة لا تجد منها شيئا في قولنا : فان الأبصار لا تعمى ، وكذلك لسبيل أبدا في كل كلام كان فيه صميم قصة . . . ولم يكن ذلك كذلك الا لأنك فعلمه الله من بعد مقدمة وتنبيه أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطد ، ثم بدأ ولوح ثم صرح ولا يخفى مكان المزية فيما طرّفه هذا المطرئين (٦٧) .

فمسبب التقوية في هذا الأسلوب في رأى الامام : ما فيه من تشويقي المحاطب الحاصل بسبب تقديم المسند اليه على الخير وتنبيهه على أن حديثا سيدور بشأنه ليانفت اليه ، فيتحقق الحكم لديه، ويثبت في ذهنه ، وهذا الاعلام والتنبيه بمثابة التكرير في تأكيد الكلام . وتبع الراوى الامام في هذا المسبب (٦٨) .

وئل السكاكى هذه التقوية بعمله أخرى هي : أن المبتدأ يستدعى أن يستند اليه شيء فاذا جاء بعده ما يصلح أن يستند اليه صرفه الى

(٦٦) الحج : ٤٦ .

(٦٧) دلائل الاعجاز : ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٦٨) نهاية الايجاز : ١٢٣ .

نفسه ، فينعتد بهما حكم ، فاذا كان ما بعده متضمنا لضميره صرفه
ذلك الضمير اليه ثانيا فيكتسب الحكم قوة (٦٩) •

فمسبب التقريرية في رأيه تكرار الاسناد لاءك اذا قلت أنا خرجت ،
مفد أسندت الخروج مرة الى تاء الفاعل في خرجت • وأسندت جملة
خرجت الى الضمير « أنا » وهذا الضمير هو المقصود بتاء الفاعل
وبذلك تكرر الاسناد وهذا يؤدي الى تقوية الحكم وتأكيده • وتبعه في
هذا السبب « الخطيب » و « السعد » (٧٠) وغيرهما •

الأدلة على أن هذا القسم يفيد التقوية :

واسندل الامام على أن هذا القسم من تقديم المسند اليه على
الخبر الفعلي يفيد تأكيد الحكم وتقويته ودفع الشك عنه بثمانية أدلة
تدور حوله استعمالات الفصحاء لهذا الأسلوب في المواطن التي تحتاج
الى تأكيد الكلام وتقويته وتحقيقه ، وهي (٧١) :

١ - ان هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه انكار من
مذكر نحو أن يقول لرجل : ليس لي علم بالذي تقول : فتقول له .
أنت تعلم أن الأمر علي ما أقول ولكنك تميل الى خصمي ، ومنه قوله
فعالي : (ويقولون على الله الكذب هم يعلمون) (٧٢) وذلك أن الكاذب ،
لا سيما في الدين ، لا يعترف بأنه كاذب ، واذا لم يعترف بأنه كاذب ،
كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب ، فالمقام مقام انكار وهو
يمنصى التأكيد وقد حصل التأكيد بتقديم المسند اليه على الخبر
الفعلي •

(٦٩) مفاسح العلوم : ١٠٦ •

(٧٠) لايضاح : ٥٧/٢ والمطول : ١٨٢ •

(٧١) تنظر هذه الأدلة في دلائل الاعجاز : ١٣٣ - ١٣٥ •

(٧٢) آل عمران : ٧٥ •

٢ - أنه يجيء فيما اعترض فيه شك ، ندو أن يقول الرجل :
 كأنك لا تعلم ما صنع فلان ، فتقول له : أنا أعلم ولكنى أداريه • فلما
 تشكك في ذلمك أكدت له الكلام بالتقديم •

٣ - أنه يجيء في تكذيب مدع ، كقوله تعالى : (وإذا جاءكم
 قائلوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) (٧٣) ذلك أن قولهم
 « آمنا » دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به فالموضع
 هو وضع تكذيب •

٤ - أنه يجيء فيما القياس في مثله ألا يكون أى فيما يقتضى
 الفعل والمنطق ألا تكون (٧٤) كقوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة
 لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) (٧٥) وذلك أن عبادتهم لها تقتضى
 ألا تكون مخلوقة •

٥ - أنه يجيء في كل شيء كان حبراً على خلاف العادة ، وعمما
 يستغرب من الأمر • نحو أن تقول : ألا تتعجب من فلان ؟ يدعى
 العنليم ، وهو يعبأ بالبسير ، ويزعم أنه شجاع ، وهو يفزع •
 أدنى شيء •

٦ - أنه يحسن ويكثر في الوعد والضمن ، كقول الرجل : أنا
 أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقدم بهذا الأمر • وذلك أن من شأن من تعدده
 يتضمن له ، أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به ، فهو من
 أحوج شيء الى التأكيد •

٧ - أنه يكثر في المدح والفرح ، كقولك : أنت تعطى الجزيل ،
 أنت تجود حين لا يجود أحد ، وكقول زهير :

(٧٣) المائدة : ٦١ •

(٧٤) أسرار التقديم والتأخير : ٤٣ •

(٧٥) المرقن : ٣ •

ولا أنت تقري ما خلقت وبعس القوم يخلق ثم لا يعري
وكقول طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقز
وذلك أن من شأن المدح أو المفتخر أن يسمع السامع من ذلك
ويأخذهم من الشبهة فيما يمدح به أو يفتخر .

٨ - أن هذا الضرب من الكلام لا يكاد يجيء إذا كان الفعل مما
لا يشك فيه ولا ينكر . بل يؤتى بالفعل مقادما غير مبني على الاسم . إذا
أخبرت بالخروج عن رجل من عادته أن يخرج في كل غداة قلت : قد
خرج ، ولم تحتاج أن تقول . هو قد خرج ، ذاك لأنه ليس بشيء يشك فيه
السامع فتحتاج أن تحققه وإلى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه لتأكيد .

ويقف عبد الفاهر أمام هذا الدليل طويلا يتأمل بعض الأساليب
تأمل الخبير الذواقة ، ويجعل لكل مقام أسلوبه الملائم له . فهذا مقام
لا شك فيه ولا تردد فيناسبه أن يقدم فيه الفعل . وذاك مقام فيه شك
وتردد فيلائمه أن يقدم فيه الاسم وينبنى عليه الفعل ، ولا يصلح
تعبير في موضع آخر ، والا كان نابيا غريبا عن موضعه .

نصفى إليه وهو يتأمل ويقول : إذا علم السامع من حال رجل
أنه على نية الركوب والمضي إلى موضع ، ولم يكن شك وتردد أنه
يركب أولا بركب ، كان خبرك غيبه أن تقول : قد ركب . ولا تقول : هو
قد ركب .

فإن جئت بمثل هذا في صلة كلام . ووضعت بعد واو المحل حسن
حينئذ ، وذلك قولك : جئته وهو قد ركب . وذاك أن الحكم يتغير إذا
صارت الجملة في مثل هذا الموضع . ويصير الأمر بمعرض الشك وذاك
أنه إنما يقول هذا من ظن أنه يصادفه في منزله ، وأنه يصل إليه
من قبل أن يركب .

قلت : أن لك حينئذ لا يهوى قوته في اوجحه الأول : أفلا ترى أنك إذا استبطأت انفسنا فقلت : أتانا والشمس قد طلعت ، كان ذلك أبلغ في استبطائك له من أن تقول : أتانا وقد طلعت الشمس ؟ وعكس هذا أنك إذا قلت : أتى والشمس لم تطلع ، كان أقوى في وصفك له بالعجلة والمجيء قبل الوقت الذى كان أنه يجيء فيه من أن تقول : أتى ولم تطلع الشمس بعد .

هذا ، وهو كلام لا يكاد يجيء الا سببا ، وبما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبنى الفعل عليه كقوله :

« قد أغتدى والطير لم تكلم »

فإذا كان الفعل فيما بعد هذه الراى الى يراد بها الحال مضارعا ، لم يصح الا دينا على اسم . كقولك : رأيته وهو يكتب ودخلت عليه وهو يملئ الحديث ونقول النابغة الجعدي :

نمرزتها والديك يدعو صباحه اذا ما بذو نعش دنوا فتصوبوا

فليس يصلح شيء من ذلك الا على ما قرأه ، ولو قلت : رأيته ويكتب — ودخلت عليه ويملى الحديث ، ونمرزتها ويدعو الديك صاحبه لم يكن شيئا .

ومما هو بهذه المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم الا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى : (ان وليي الله الذى نزل به الكتاب ودو يتولى الصالحين) (٧٦) وقوله تعالى : (وثناو أساطير الأولين اكتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلا) (٧٧) وقوله تعالى :

(٧٦) الأعراف : ١٩٦ .

(٧٧) الفرقان : ٥ .

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) (٧٨) فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جىء في ذلك بالفعل غير مبنى على الاسم فقيل : ان وليى الله الذى نزل الكتاب ويتولى الصالحين ، واكتتبها فتتولى عليه ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فيوزعون ، لوجد اللفظ قد نجا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التى ينبغى أن يكون عليها •

وبهذا التأمل والتذوق بين لنا عبد القاهر أن تقديم الاسم وبناء الفعل عليه ينبغى التأكيد والتقوية ، ومن ثم فلا يأتى الا فى المقامات التى تحتاج الى تأكيد وتحقيق ، واذا كان المقام فى حاجة الى تأكيد وتقوية ولم يبين فيه الفعل على الاسم المقدم كان الكلام نابيا عن موضعه ، ولهذا اذا جئنا الى الامثلة التى قدم فيها الاسم وبنى عليه الفعل فغيرنا صورتها وقدمنا الفعل ، لوجدنا أن الكلام غير مستقيم لخروجه عما يجب أن يكون عليه •

والآيات الثلاث التى مثل بها الامام عبد القاهر فى ختام حديثه قد وردت فى مقامات تحتاج الى تأكيد وتحقيق ومن ثم قدم فيها الاسم وبنى الفعل عليه لاعتلاء مع المقامات الواردة فيها ، وتناسب مع سياق الآيات التى قبلها •

فالآية الأولى جاءت فى سياق آيات فيها استهانة بآلهة الكافرين ، وتسفيه لها ولعابديها ، وقد أشارت الآية الى القوة التى تدفع عن الرسول وتتولى نصرته رجاء صدرها مؤكدا (ان وليى الله الذى نزل الكتاب) ولهذا جاء قوله (وهو يتولى الصالحين) مؤكدا محققا بتقديم الاسم على الفعل لاعتلاء مع السياق •

وشئ آخر في هذا التقديم هو أن قوله (وهو يتولى الصالحين)
 دال على أن الله يتولاه عليه السلام بطريق الكناية لأنه يلزم من توليته
 سبحانه الصالحين أن يكون وليه عليه السلام لأنه سيد الصالحين
 وطريق الكناية تؤكد في إثبات المعنى من طريق التصريح ، فاقضى
 حسن السياق أن يجيء بجاء العبارة على ما هو عليه ، حتى لا تكون
 الحياغة فترة في هذا السياق التي علت فيه نبرة التوكيد (٧٩) •

والآية الثانية وردت في مقام يحتاج الى تأكيد ، حيث ان الكافرين
 ادعوا أن القرآن (افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) وقالوا أنه
 (أساطير الأولين اكتتبها) فهم في حاجة الى تأكيد كلامهم وتحقيق
 دعواهم فجاء الظم (فهي تملأ عليه بكرة وأصيلا) مقدما فيه الاسم
 على الفعل لافادة التأكيد والتحقيق الذي يحتاجه المقام (٨٠) •

والآية الثالثة بنى الفعل فيها على الاسم المقدم (فهم يوزعون)
 لأنها تتضمن خبرا غريبا هو حشر الجن والانس والطيور لسيما على
 هذه البيئة من الأيزار والداخل ، وهذا الأمر ، لعريب فحقاق النفوس
 الى ما يؤنسها به ، ويقرر عذرها ، ومن ثم جاء على هذه الصورة التي
 تفيد التأكيد والتحقيق (٨١) •

رابعاً - التقديم في الخبر المنفى :

وتحدث عبد النادر عن صورة أخرى من صور التقديم ، وهي
 تقديم المسند اليه على الخبر المنفى ، والكلام فيها كالكلام في تقديم
 المسند اليه على الخبر المثبت ، وعلى هذا فالتقديم فيها يندمل وجهين :

الأول : أن يدون الغرض من تقديم المسند اليه قصر مفي الفعل
 على المتقدم ، وإثباته لغيره ، ولم يهتم عبد القاهر ببيان هذا الوجه

(٧٩) خصائص التراكيب : ١٧٤ •

(٨٠، ٨١) خصائص التراكيب : ١٧٤ : ١٧٥ •

والتمثيل له ، لانه كما سبق في الخبر المشتب أمره واضح جلي لا اشكال فيه .

والثاني : أن يدون الغرض من تقديم المسند اليه تقوية الحكم وتأكيده ودفع الشك عنه كقولك : أنت لا تحسن هذا ، وهذا الأسلوب أشد لنفي احسان ذلك عنه من أن تقول : لا تحسن هذا ، واورأتيت بـ « أنت » بعد « تحسن » فقلت : لا تحسن أنت ، لم يكن له من القوة والشدة في النفي ما للأسلوب الأول .

ولذلك يستعمل الأسلوب الاول مع من هو أشد اعجابا بنفسه وأعرض دعوى في أنه يحسن ، فتزد عليه بالأسلوب المؤكد بتقديم الاسم لنكزيه في دعواه .

ومن أمثلة تقديم الاسم على الخبر المنفي لقصد تقوية الحكم وتأكيده قوله تعالى : (والذين هم بربهم لا يشركون) (٨٢) . وهو يفيد التأكيد في نفي الاشرار عنهم ، بخلاف ما لو قيل : والذين لا يشركون بربهم ، أو بربهم لا يشركون ، فانه لا يفيد ذلك .

وكذلك قوله تعالى : (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) (٨٣) وقوله تعالى : (فعصيت عليهم الأنبياء يؤمنذ فهم لا يتساءلون) (٨٤) وقوله تعالى : (٨٥) (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) (٨٦) .

(٨٢) المؤمنون : ٥٩ .

(٨٣) يس : ٧ .

(٨٤) القصص : ٦٦ .

(٨٥) الأنفال : ٥٥ .

(٨٦) دلائل الاعجاز : ١٣٨ .

والسر في أن تقديم المسند إليه على الخبر المنفي يفيد تقسوية الحكم وتأكيده عند الإمام ما سبق أن قررته في الخبر المثبت من أن تقديم المسند إليه فيه تنبيه وإيقاظ واعلام بما يأتي من كلام ليلتقاه المخطب بعد تقديم واعلام غيدخل في قلبه دخول المأنوس به ويستقر في ذهنه ويكون هذا بمثابة تكرار الكلام .

والسر عند السكاكي ومن تبعه هو ما فيه من تكرار الاسناد كما قدمنا .

خامساً - تقديم الفكرة على الفعل وتأخيرها :

وتحدث الإمام عبد القاهر عن تقديم الذكر على الفعل ، وتقديم الفعل عليها في الاستفهام وفي الخبر ، وبدأ بالحدِيث عن تقديمها وتأخيرها في الاستفهام ، فقال : اذا قلت : أجاءك رجل ؟ فأنت تريد أن تسأله هل كان مجيء من واحد من الرجل إليه ، فان قدمت الاسم فقلت : أرجل جاءك ؟ فأنت تسأله عن جنس من جاءه ، أرجل هو أم امرأة ؟ ويكون هذا ك اذا علمت أنه قد أتاك آت ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي ، فسبيلك في ذلك سبيلك اذا أردت أن تعرف جنس الآتي فقلت : أزيد جاءك أم عدهو ؟ (٨٧) فبين أن المسئـل عنه هو ما يلي الهمزة ، كما سبق في أول الباب ، فاذا قدم الفعل على المفاعل الفكرة كان الشك في الفعل ، وكان السؤال عن وقوعه واذا قدم الفاعل على الفعل كان الشك هوجها إليه ، وكان السؤال عنه ولأجل أنه فكرة فان السؤال يكون مطاوعاً به ببيان الجنس ، أو العدد لا ببيان عين الفاعل كما سبق في المعرفة . ولا يجوز عند قصد السؤال عن الفعل تقديم الاسم وقد بين بعد القاهر ذلك فقال :

« ولا يجوز تقديم الاسم في المسألة الأولى ، لأن تقديم الاسم يكون إذا كان السؤال عن الشئ ، والسؤال عن الفاعل يكون أما عن عينه أو عن جنسه ولا ثالث ، وإذا كان كذلك ، كان محالاً أن تقدم الاسم النكرة وأنت لا تريد السؤال عن الجنس لأنه لا يكون لسؤالك حينئذ متعلق ، من حيث لا يبقى بعد الجنس إلا العين ، والنكرة لا تدل على عين شيء فيسأل بها عنه » (٨٨) •

فتقديم الاسم بمعنى السؤال عن الفاعل ومن ثم لا يجوز عند حمل السؤال عن الفعل تقديم الاسم : وبين عبد القاهر أن السؤال عن الفاعل يكون إما عن عينه وإما عن جنسه ، فإذا كان معرفة يكون السؤال عن عينه ، وإذا كان نكرة يكون السؤال عن جنسه •

لأن النكرة لا تدل على عين شيء فيسأل بها عنه ، فلم يبق إلا أن يكون السؤال بها عن الجنس •

وإذا حصت النكرة بوصف من الأوصاف كان السؤال منصرفاً إلى هذا الوصف ، وقد بين عبد القاهر ذلك فقال : فإذا قلت : أرجل طويل جاءك أم قصير ؟ كان السؤال عن أن الجائي كان من جنس طوال الرجال أم قصارهم ؟ فإن وصفت النكرة بالجملة فقلت : أرجل كنت عرفت من قبل أعطك هذا أم رجل لم تعرفه ؟ كان السؤال عن المعطى ، أكان مهن عرفه قبل ، أم كان انساناً لم تتقدم منه معرفة له (٨٩) •

فالسؤال في النكرة المخصصة بوصف يكون مقصوداً به هذا الوصف ومن ثم كان السؤال في المثالين السابقين عن الوصف المخصص للنكرة لا عن جنس النكرة لأن الجنس معاروم من السؤال •

وقد يكون السؤال بالنكرة عن العدد لا عن الجنس ، كما إذا قلت : أرجل أُنْكَ أم رجلان ؟ فإن المقصود بالسؤال هنا هو كونه واحداً أو اثنين لا كونه رجلاً . وذلك أن الأصل في النكرة أن تكون للأواحد من الجنس ، ومن ثم يقع المقصد بها تارة إلى الجنس فقط كما إذا كان المخطب قد عرف أنه أُنْكَ آت ولم يدر جنسه أرجل هو أم امرأه فتقول له . أرجل أُنْكَ ؟ فيكون السؤال عن الجنس ، وقد يكون المقصد بها إلى الوحدة فقط . كما إذا كان مخاطب قد عرف أنه قد أُنْكَ من هو من جنس الرجال ، ولم يدر أرجل هو أم رجلان ؟ فتقول له : أرجل أُنْكَ أم رجلان ؟ فيكون السؤال عن العدد (٩٠) .

ثم تحدث الإمام عبد القاهر عن تقديم النكرة وتأخيرها في الخبر فقال : إذا قلت : رجل ههنا لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أنه قد أُنْكَ آت . فإن لم ترد ذلك من الواجب أن تقول : ههنا رجل ، فتقدم الفعل .

وكذلك إن قلت : رجل طويلاً ههنا لم يستقيم حتى يكون السامع قد ظن أنه قد أُنْكَ قصير ، أو نزلته منزلة من ظن ذلك (٩١) .

فبين أن أمر الخبر كأمر الاستفهام ، فإذا كان الكلام عن المفعول قدم الفعل وإذا كان الكلام عن الاسم قدم الاسم . وعند تقديم الاسم يكون الفعل ثابتاً وواقعاً ، ويكون كلامك مع من يعلم ويقوع الفعل ومقصودك أن تبين له جنس الفاعل أو عدده .

وتقديم النكرة على الفعل في الخبر يفيد تحصيل الجنس أو العدد كما هو واضح في كلام عبد القاهر ، فإذا قلت : رجل زارني يكر

(٩٠) دلائل الإعجاز : ١٤٤ .

(٩١) دلائل الإعجاز : ١٤٣ .

أن يكون ردا على من زعم أن الزائر امرأة ، ويعمن أن يكون ردا على من زعم أن الزائر رجلان أو أكثر .

ويتضح ذلك أكثر من كلامه على قول العرب : شر أهر ذا ناب ، وهو مثل يضرب عندهما تلوح أمارات شر كبير : حيث قال : إنما قدم فيه « شر » لأن المراد أن يعلم أن الذي أهر ذا ناب هو من جنس الشر لا جنس الخير ، فجري مجرى أن تقول : رجل جاعنى ، فزيد . أنه رجل لا امرأة ، وقول العلماء أنه إنما يصلح — للابتداء به وهو فكرة — لأنه بمعنى : ما أهر ذا ناب إلا شر ، بيان لذلك ، ألا ترى أنك لا تقول : ما أتانى إلا رجل ، إلا حيث يتوهم السامع أنه قد تتك امرأة ، ذاك لأن الخبر يفيض السفى يكون حيث يراد أن يقصر الفعل على شيء وينفى عما عداه ، فإذا قلت : ما جاعنى إلا زيد ، كان المعنى أنك قد قصرت المجيء على زيد ، ونفيتها عن كل من عداه ، وإنهما يتصور قصر الفعل على معلوم ، ومتى لم يرد بالنكرة الجنس لم يقف منها السامع على معلوم ، حتى نزع أنى أقصر له الفعل عليه ، وأخبره أنه كان منه دون غيره (٩٢) .

فبين أن تقديم النكرة يفيد التخصيص وأن التخصيص في قولهم شرا أهر ذاناب منصرف إلى الجنس ، وهو بمعنى : ما أهر ذاناب إلا شر كما قال العلماء .

وأشار إلى أن معنى التخصيص في المعرفة يختلف عن معنى التخصيص في النكرة ، ففي المعرفة يكون التخصيص موجهها إلى معين بذاته ، وفي النكرة يكون موجهها إلى الجنس ، وبرهن على ذلك ، بأنه إنما يتصور قصر الفعل على معلوم ، والمعلوم الذى تفيد النكرة هو الجنس .

وذكر السعد أن كلام الشيخ عبد القاهر لا يشعر بالفرق بين النكرة والمعرفة ، وأن النكرة قد قدمت على الخبر الفعلى ووليت حرف النفي كان الكلام للتخصيص قطعا ، وإن لم قل النفي احتمل الكلام للتخصيص وتقوية الحكم على قصد المتكلم (٩٣) .

ولكن المتأمل في كلام عبد القاهر يجده صريحا في أن تقديم النكرة على الخبر الفعلى لا يفيد إلا انتحاص سواء ولت النكرة أداة النفي أو لم تل أداة النفي ، فقولنا : ما رجل جاءنى ، مفيد للتخصيص وقرلنا : رجل جاءنى مفيد أيضا للتخصيص عند عبد القاهر .

وما ذكره السعد من أن تقديم النكرة قد يفيد تقوية الحكم كان يقال : رجل جاءنى ، فالمعنى أنه جاء ولا بد ، غير صحيح عربية لعدم صحة الابتداء بالنكرة إلا عند أرادة التخصيص فيكون مسوغا للابتداء بها وإذا لم يصح : ربية لم يصح بلاغة (٩٤) .

وبعد أن قدمنا رأى الامام في تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى فى الأحوال المختلفة نوجز وجهة نظره فيما يلى :

١ - أن المسند اليه اذا تقدم على خبره الفعلى واليا حرف النفى فانه يفيد التخصيص قطعا سواء كان المسند اليه معرفة او نكرة .
كما فى قولنا : ما أنا قلت هذا ، وما محمد أهان خالدا ، وما رجل جاءنى .

٢ - أن المسند اليه اذا تقدم على خبره الفعلى ولم يكن واليا حرف النفى ولم يكن نكرة فانه يحتمل أن يكون للتخصيص ، وأن يكون لتقوية الحكم وتأكيده .

(٩٣) المطول : ١١٥ ، والمختصر : ٧٢ .

(٩٤) بنية الايضاح : ٢٤٩/١ .

يمكن للتخصيص إذا كان المخاطب يعتقد أن الحكم على خلاف ما نقول ، وأنت تريد أن ترد عليه في ذلك • فإذا قلت : أنا أحضرت الكتاب وكان المخاطب يعتقد أن غيرك قد أحضره كان قولك مفيدا قصر احضار الكتاب عليك ، ونفيه عن غيرك •

ويمكن لتقوية الحكم وتأكيده في غير ذلك ، والذي يعين هذا ويحدده دلالة القرائن والأحوال •

٣ - أن المسند اليه إذا تقدم على خبره الفعلى لم يكن واليا حرف النفي وكان نكرة ، فانه يفيد التخصيص قطعا ، والتخصيص هنا قد يكون للجنس وقد يكون للعدد •

٤ - أن تقديم المفعول على الفعل يفيد التخصيص ، ويشبهه في ذلك مبائر المتعلقات كالجار والمجرور والظرف والمحال وغيرها •

رأى السكاكي :

عرضنا رأى الامام عبد القاهر في افادة التقديم التخصيص وتقوية الحكم ، ويرى السكاكي أن التقديم لا يفيد التخصيص إلا بشرطين :

الأول : أن يجوز تقدير كون المسند اليه في الاصل مؤخرا على أنه في المعنى فقط ، بأن يكون توكيدا للفاعل ، أو بدلا منه كقولك : أنا قمت ، فانه يجوز أن يقدر أن أصله : قمت أنا ، ويكون « أنا » توكيدا للفاعل - التاء - أو بدلا منه من ناحية اللفظ ، ويكون فاعلا من ناحية المعنى •

والثاني : أن يقدر كونه في الاصل مؤخرا على أنه فاعل في المعنى • فان انتفى واحد من هذين الشرطين فانه لا يفيد إلا تقوية الحكم فقط •

فالذى انتفى فيه الشرط الاول مثل : زيد قام ، فلو قدر أن لفظ « زيد » مؤخر في الأصل ، والتقدير : قام زيد ، لكان فاعلا في اللفظ والمعنى ، لا في المعنى فقط ، وتقدمه غير جائز والذي انتفى فيه الشرط الثانى : أن يقدر أن الكلام في مثل : أنا قمت ، مبنيًا من الأصل على المبتدأ والخبر ، وليس فيه تقديم وتأخير .

وعلى هذا فتقديم الاسم الظاهر المعرف لا يفيد عند السكاكى إلا تقوية الحكم فقط لأنه لو قدر تأخيره لكان فاعلا في اللفظ والمعنى . وتقدم الضمير بحتمل فيه أفادة التخصيص ، وأفادة تقوية الحكم ، فيفيد التخصيص إذا قدر كونه في الأصل مؤخرًا على أنه فاعل في المعنى ، ويفيد التقوية إذا قدر الكلام في الأصل مبنيًا على المبتدأ والخبر ، ولا تقديم فيه ولا تأخير .

وتقديم النكرة عند السكاكى مفيد للتخصيص في نحو : رجل جائع وما أشبهه ، وحدث على تقدير أنه في الأصل : جائع رجل ، ورجل بدن من شاعل جائع رئيس ، لأنه ، فيكون فاعلا معنويًا ، ونقاس هذا على ما ذكره النحاة في قوله تعالى : (واسروا النجوى الذين ظهروا) حيب جعلوا « الذين » بدلًا من واو الجماعة في « أسروا » .

والذى جعل السكاكى يذلف هذا التفسير في النكرة من تخصيص في مثل هذا هو المسوغ للابتداء بالنكرة ، ولو لم يكن فيه تخصيص لامتنع الابتداء بها لعدم وجود المسوغ .

واستلزم السكاكى في أفادة تقديم النكرة لتخصيص إلا يمنع من التخصيص مانع بأن تنتفى فائدة التخصيص في رد اعتقاد المخاطب كما في قولهم : شر أهر ذا ناب ، فلا فائدة في جعله من قبيل تخصيص الجنس لأنه لا يوجد من يتوهم أن المهر خسير لا شر حتى يرد عليه بأنه شر لا خير ، ولا فائدة في جعله من قبيل تخصيص العدد لثبوته من محال استعماله لأن معناه سيكون أن المهر شر لا شران وهذا غير مقبول .

ولما كان الاسم عبد القاهر وغيره من العلماء قد مضوا على أن التقديم في هذا المثال مفيد للتخصيص ، وأن معناه : ما أهر إذا ناب إلا نر جعل السكاكي انتكيز فيه لقصد التعظيم والتعويل فيكون المعنى نر فظيع أهر ذ ناب لا نر حقير ، ويكون تخصيص نوعيا في الوصف لا في الجنس ولا في العدد لوجود المانع من التخصيص فيهما عنده (٩٥) •

وبذلك التقى مع العلماء في المعنى الذي فسروا به المثل من رابطة أخرى •

ونجعل رأي السكاكي في فائدة تقديم المسند إليه فيما يلي •

١ - ما يفيد التخصيص فقط وهو لفكرة المتقدم على الخبر الفعلى نحو : رجل جاءنى •

٢ - ما يفيد تقوية الحكم فقط وهو الاسم الطاهر المعروف إذا تقدم على الخبر الفعلى نحو : على جاءنى •

٣ - ما يحتل التخصيص وتقوية الحكم وهو الضمير إذا تقدم على الخبر الفعلى نحو : أنا حضرت •

وعلى هذا نرى أن السكاكي لا يعتمد بالنفى ولا يعول عليه في إفادة التخصيص كما عول عليه عبد القاهر •

ويمكن أن يوازن بين رأي عبد القاهر ورأي السكاكي من خلال الأمثلة التالية :

١ - ما أنا أكرمت محمدا :

يفيد التخصص عند عبد القاهر ويحتل لتخصيص والمقوية عند السكاكي •

٢ - أنا ما أكرمت محمدا :

٣ - أنا أكرمت محمدا :

كل من المثالين يحتمل التخصيص والتقوية عند عبد القاهر وعند السكاكي •

٤ - ما محمد أكرم عليا :

يفيد التخصيص عند عبد القاهر والتقوية عند السكاكي •

٥ - محمد ما أكرم عليا :

٦ - محمد أكرم عليا :

كل من المثالين يحتمل التخصيص والتقوية عند عبد القاهر وكل منهما يفيد التقوية فقط عند السكاكي •

٧ - ما رجل جاعني :

٨ - رجل جاعني :

٩ - رجل ما جاعني :

الأمثلة الثلاثة تفيد التخصيص عند الامام عبد القاهر كما تفيد التخصيص عند السكاكي •

وعلة كل حكم من الأحكام السابقة ظاهرة بناء على ما قدمناه في شرحنا لرأى كل من عبد القاهر والسكاكي •

« ورأى السكاكي يتجافى مع شطرة اللغة ويسر أدائها لمعانيها ولا نعتقد أن هناك منكما يفكر في الصياغة هذا التفكير ، ويفترض أن : أنا قمت ، أصلها : قمت أنا ، ثم يخالف هذا الأصل ليفيد معنى الاختصاص ، فإذا لم ينشغل ذهن المتكلم بهذا المعرض قلنا أن عبارته

لا تفيد ما تفيد به عبارة غيره « (٩٦) فمثل هذا لا يخطر على بال المتكلمين الذين يعتقد بسلامتهم •

كما أن في رأيه تناقضا ، حيث اشترط في إفادة التقديم التخصيص أمرين كما قدمنا ، وطبق ما اشترطه على المعرفة واستثنى من ذلك النكرة فجعل قولنا : محمد جاءني مفيدا للتقوية ، وقولنا : رجل جاءني مفيدا للتخصيص مع أن لفظ « رجل » يستوي مع لفظ « محمد » في أن كلا منهما يصبح فاعلا لفظا ومعنى إذا قدر مؤخرًا ، ومن ثم كان يجب عليه أن يسوى بينهما في الحكم •

كما أنه ارتكب تكلف في اعراب النكرة حين أعربها على تقدير تأخيرها بدلا من فاعل جاءني ، وما ارتكب هذا التكلف إلا لجعلها فاعلا معنويا لا لفظيا حتى يجيز تقديمه •

ثم أنه أجاز تقديم الفاعل المعنوي كالتأخير والبدل دون الفاعل اللفظي مع أنهما سواء في امتناع التقديم مادام الفاعل فاعلا ، والقابض تبعًا ، بل امتناع تقديم القابض أولى ، لأننا نقدمه على متبوعه وعلى العامل في المتبوع الذي هو في الحقيقة عامل في القابض ، أما الفاعل اللفظي فهو متقدم على العامل فقط ، وما دام الأمر كذلك فالأولى الممع في المعنوي أو تساويهما في المفعول أما تجويز تقديم المعنوي دون اللفظي فتحكم من السكاكي دون موجب أو مرجح ، وأيضا لو قلنا : إن المتبوع حيث يقدم يكون على طريق الفسخ والقطع عن التبعية وهو جائز ، فكذلك الفاعل ، وجواز القطع في التامع دون الفاعل تحكم (٩٧) •

وهذا مما يضعف رأي السكاكي ويجعله غير حدير بالقبول •

(٩٦) خصائص البراكيب : ١٧٨ •

(٩٧) نظرات في البلاغة والاسناد : ١٦٩ • والمطول : ١١٧ -

سادسا : تقديم « مثل » و « غير » :

بعد الكلام عن التقديم في الخبر المنفى تحدث عبد القاهر عن تقديم « مثل » و « غير » وهو يرى أنهما إذا استعملتا في الكلام بقصد الكتابة من غير تعريض يكون تقديمهما كاللزام ، وهذا ما تجرى عليه الأساليب البليغة .

وفي ذلك يقول : وهما يرى تقديم الاسم فيه كاللزام : « مثل » و « غير » في نحو قول المتنبي :

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ويعتقد الدمع عن غربه

وقول الفاس : مثلك رعى الحق والحرمة ، وكقول القبيعي للحجاج : مثل الأمير يجهل على الأدهم والأشهب ، وما أشبه ذلك ، مما لا يقصد فيه — « مثل » أي انسان سوى الذي أضيف إليه ، ولكنهم يعنون أن كل من كان مثله في الحال والصفة ، كان من مقتضى القياس وهو جب العرف والعادة أن يفعل ما ذكر أو أن لا يفعل ، ومن أجل أن كن المعنى كذلك قال :

ولم أقل مثلك أعنى به سواك يا فردا بلا مثبه

وكذلك حكم « غير » إذا سلك به هذا المسلك فقول : غيري يفعل كذا ، أي معنى أنني لا أفعله ، لا أن يرمى بـ « غير » إلى انفساس فيخبر عنه بأنه يفعل ، ومنه قول المتنبي :

أرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وذاك أنه معلوم أنه لم يرد أن يعرض بواحد كان هناك فيستقصه ويصفه بأنه مضعوف يعر ويخدع ، بل لم يرد إلا أن يقول : أنني لست ممن ينخدع ويغتر ، وكذلك لم يرد أبو تمام بقوله :

وغيري يأكل المعروف سحبا ويشحب عنده بيض الأيادي

أن يعرض مثلاً بشاعر سراً ، فيزعم أن الذي عرف به عند المدوح من أنه هجاء . كن « أن ذلك الشاعر لا منه . هذا محال ، بل ليس إلا أنه سمى عن نفسه أن يكون ممن بكسر النعمة ويلزم (٩٨) »

فبين أن « مثل » و « غير » يلتزم تقديمهما في الأساليب ببلده إذا استعملتا بقصد الكتابة من غير تعريض بآخر .

وتفصيل ذلك : أن لـ « مثل » و « غير » حالتان (٩٩) .

الأولى : أن يستعملتا في معنأهما المظاهر ، فيقصد به « مشر » الحكم على مماثل آخر كقول امرئ القيس :

فمثلك حبل قد طرقت ومرضع فألهيتهما عن ذي تمائم محول

فغرضه من ذلك إرادة امرأة أخرى مماثلة لمن يخاطبه .

ويقصد به « غير » الحكم على متغير آخر كقول ابن شرف الفيرواني :

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم فكانت سبابة المقدم

فهو يريد أن شخص غيره هو صاحب الجناية .

وهذه الحالة غير مقصودة بكلام عبد الفاهر والمتقدم فيها ليس كاللزام .

الثانية : أن يستعملتا بقصد الكناية من غير تعريض بأحد فيكون الحكم على « مثل » بنى غير مقصود به الحكم على مماثل آخر . بل يكون حكماً على ما اضيف إليه « مثل » عن طريق الكناية . كقولك مثلك لا يهمل . وأنت تقصد بذلك : أنت لا يهمل .

(٩٨) دلائل الإعجاز : ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٩٩) ينظر المطول : ١٢٠ ونظرات في البلاغة : ١٧٠ .

ويكون الحكم بشيء على « غير » من مقصود به معايير آخر، وإنما يكون حتما بضد ذلك الشيء على ما أصيبت إليه « غير » كقولك :
غيري لا يفي بالعهد ، وأنت تقصد بذلك : أنك تفي بالعهد •

وهذه الحالة هي التي يعيها الامم عبد القاهر بحدِيثه وهي التي ضرب لها الأمثلة السابقة في كلامه •

وهو يرى أن هذه الحالة يكثر فيها تقديم « مثل » و « غير » للدلالة على تقوية الحتم وتحقيقه : ومنها تأكيد للحكم من ناحيته الكسبية أيضا ومن ثم فهذه الأساليب الكسبية الحتم وقوى من ناحيتين •
ناحية التقديم وناحية الكناية •

ووجه الكسبية في هذه الأمثلة أن فيها نقلا من المعلوم إلى الملام . دن قولك : مثلك يحشى الله ، يلزم منه أن المحاطب يحشى الله •

ومعروف أن أسلوب الكناية أبلغ وأكد من الأسلوب الصريح ، لأن إثبات احتم فيه يكرن كدعوى شيء بدليل وبينه ، حيث أن اذهن ينفق ل فيه من المعلوم لى لازمه ، وما دام المعلوم ثابتا فلازمه ثابت من غير شك •

وتقديم « مثل » و « غير » في حال استعمالها بقصد الكسبية من غير تعريض شيء مركوز في الضباع وجرب عليه أساليب تبليغاء • ومن ثم لا يستقيم الأسلوب ويكون الكلام مقلوبا عن وجهه الصحيح • إذا أخرا في هذه الحالة ، وقد بين ذلك لمام عبد القاهر فقال :
و استعمال « مثل » و « غير » على هذا السبيل شيء مركوز في الطبع ، وهو جار في عادة كل قوم ، فأنت الآن إذا نصفت الكلام وجدت

هذين الاسمين قدما ان أبدا على الفعل اذا دحا بهما هذا النحو الذي ذكرت لك ، وتري هذا المعنى لا يستقيم فيهما اذا لم يقدم : أفلا ترى أنك لو قلت : يثنى الحزن عن صوبه مثلك ، ورعى الحق والحرمة مثلك ، وبحمل على الأدهم والأشهب مثل الأمير ، وينخدع غيرى بأكثر هذا الناس . ويأكل غيرى المعروف سحنا ، رأيت سلافا مقلوبا من جهته ، مغيرا عن صورته ورأيت اللفظ قد با عن معناه ، ورأيت الضبع أبى أن يرضاه (١٠٠) .

مسألة : تقديم لفظ العموم على النفي وتأثيره :

هذه المسألة من التقديم لم يتقدم عنها الامام عبد الفهر في الباب لدى خصه بالحديث عن التقديم والتأخير . ولكنه مدواها بالبحث في حديثه عن اللفظ ودقة المعنى .

وقد بين ان الألفاظ الدالة على العموم مثل « كل » و « جميع » لها مع النفي حالتان :

الأولى : أن تقدم على أداة النفي ، فلا تدخل في حيزه ، وفي هذه الحالة تفيد عموم النفي وشموله كقولك : كل المدعوين لم يشهدوا من الحضور ، فمعناه : أنهم قد حضروا جميعا ، ولم يتخلف منهم أحد .

الثانية : أن تدخل في حيز النفي بأن تقدم عليها ، كما في لفظا أو تقديرا وفي هذه الحالة تفيد نفي العموم ، كقولك : لم يتخلف كل المدعوين على الحضور ، فمعناه : أنهم لم يحضروا جميعا . بل تخلف بعضهم عن الحضور ، وهذا ما تقدمت فيه أداة النفي لفظا ، ومثال تدهمت فيه تقديرا فوالك : كل المتروك لم أردهم بنصب « كل » على أنها معمول للفعل المنفي ، ورتبة العامل أن يقدم على معمول ، فالفعل المنفي مقدم على لفظ العموم تقديرا .

وقد تحدث الامام عبد القاهر عن المسألة الأولى فقال ... اذا قلت : كلهم لا بأنيك ، وكل ذلك لا يكون ، وكل هذا لا يحسن ، كنت نفيت أن يأتيه واحد منهم ، وأبليت أن يكون أو يحسن شيء مما أشرت اليه . ومما يشهد لك بذلك من الشعر قوله :

فكيف ؟ وكل ليس يعد حمامة ولا لأمريء عما قضى الله مزحل

المعنى على شيء لا يعدو حد من الفاس حمامة بلا شبهة ؟ ولو قلت : وكيف وليس يعدو حد حمامة ، فأخبرت « كلاً » لأفسدت المعنى ، وصرت تأك تقول : ان من الناس من يسلم من الحمام ويبنى حسدا لا يموت . ومثله قول دعبل :

فو الله ما أدري بأي سهامها

رميت وكل عندما ليس بالمكدي

أبالجيد، أم مجرى الوشاح وأدنى

لأتهم عيبتها مع الفاحم الجعد

المعنى على نفس لا يكون في سهامها مكد على وجه من المرجوء .
وإن النسي في ذلك ما جاء في حديث ذي اليمدين حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : انصرف الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا ذلك لم يكن . فقال ذو اليمدين : بهنس ذلك قد كان المعنى لا محالة على نفس الآخرين جميعا ، وعلى أنه ساء السلام أراد أنه لم يكن و حد منهما لا القسر ولا النفسين ، ولو قبل لم يكن كل ذلك لكان المعنى أنه قد كان بعضه (١٠١) .

فواضح من كلام عبد القاهر ان لفظة المصوم اذا صدمت على أداء النفي ، ولم يكن معها لا الفعل المنفي أفاد ذلك مصوم النفس وشموله ، وقد أيد قوله بالشواهد الدالة على ذلك .

وانما اشترطنا عدم كون لفظ العموم معمولاً للفعل النفي وهو لم يرد في حديث عبد القاهر الذي استثناءه ، لأنه ذكره في موضع قبله هذا حين تحدث عن قول أبي النجم :

قد أصبحت أم الديار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

ورواية البيت برفع « كل » وذكر النحاة أن الشاعر برمعه « كل » قد أدخل نفسه في شيء لا يجوز الا عند الضرورة ، ولا ضرورة هنا لأنه ليس في نصب « كل » ما يكسر له وزنا أو يمنعه من معنى أرادته وقد اعترض عليهم عبد القاهر في ذلك وبين أنه لم يرفع « كلا » الا لمعنى أرادته لا يتأتى له مع النصب ، وذلك أنه أراد انهما تدعى عليه ذنبا لم يصح منه شيئا البتة لا قليلا ولا كثيرا ، ولا بعسا ولا كلا ، والنصب يمنع من هذا المعنى ، ويتقضى أن يكون اتى من الذنب الذي ادعته بعضه .

وهذا لان النصب يجعل « كلا » معمولاً لأصنع ، فهو في حكم المؤخر عنه ، لتقدم رتبة العامل على الم معمول ، فيكون لفظ العموم داخلا في حيز النفي ، وليس متفردا عليه ، وهذا يجعله دالا على نفي العموم ، لا على عموم النفي كما هو مراد الشاعر .

والسر في أن تقديم لفظ العموم على النفي يفيد عموم النفي . أنك اذا بدأت « بكل » كنت قد بنيت النفي عليه وسلطت الكليه على النفي وأعملتها فيه ، وأعمل معنى الكليه في النفي يقتضى ألا يشذ شيء عن النفي وهذا ما بينه الامام عبد القاهر (١٠٢) .

وتحدث عبد القاهر عن الحالة الثانية ، وهي التي يتقدم فيها النفي على لفظ العموم فقال اذا تأملنا وجدنا عمل الفعل في

« كل » و لدل معنى لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن : مقول لم آلى كل القوم ، ولم آخذ كل الدراهم . ويكون المعنى أنك لفيت بعضا من القوم ولم تلق الجميع ، وأخذت بعض من الدراهم وتركت الباقي ، ولا يكون أن تريد أنك لم تلق واحدا من القوم ولم تأخذ شيئا من الدراهم (١٠٣) •

وسد دل عرد القاهر على هذا بمقاييس على لدهى ، فهو ظاهر فيه أسد انشهور . نقل : واعلم انه يلزم من شك في هذا مفهوم انه يجوز أن تقول : لم أر القوم كلهم . على معنى أنك لم تر واحدا منهم . أن تجرى لدهى هذا الجرى غفول . لا تحسب نفوس نفوس . على معنى لا تحسب واحد منهم . وأن يقول . لا تحسب الرجلين ذيهما . على معنى لا تحسب واحدا منهم . وأن يقول : لا تحسب رجلين كليهما على معنى لا تحسب واحدا منهما ، فان قال ذلك لزمه أن يديل قول لناس : لا تحسبهما معا . ولكن أصرب أحدهما ، ولا تأخذهما جميعا ولكن واحدا منهما ، وكفى بذلك فسادا (١٠٤) •

وبين السر في أن تقديم النفس على لفظ العموم يفيد نفى العموم بأن التأكيد بالناظ العموم ضرب من التقييد ، ومعنى نفيت كلاما فيه تأكيد من النفس وجه على التأكيد حصري ، وينصب عليه ، ماذا قلت لم أر القوم كلهم ، كنت عهدت بالنفس الى معنى «كل» خاصة ومن هنا تكون قد رأيت بعضهم ، ولم تر بعضهم (١٠٥) •

والسبب في حدوث نفى العموم أو عموم النفس هو النفس ، فمن تقدم النفس على لفظ العموم أفاد نفى العموم ، ومن تقدم العموم

• (١٠٣) السابق : ٢٨٥ •

• (١٠٣) السابق : ٢٨٥ •

• (١٠٤) السابق : ٢٧٨ •

• (١٠٥) السابق : ٢٨٠ •

على النفي أشد ، وهم النفي ، ولا تأثير للفعل في ذلك ، وقد بين عبد القاهر هذا فقال : واسلم أنه ليس للتأثير ما ذكرنا من أعمال الفعل وترك أعماله على الحقيقة ، وأما التأثير لأمر آخر ، وهو دخول « كل » في حيز النفي ، وأن لا يدخل فيه (١٠٦) .

ولما كن عبد القاهر قد ذكر أعمال الفعل في « كل » في تفسر من وضع ، خشي من توهم تناقض بين إرجاعه لتأثير للنفي ، ورأيه أعمال العجز ، ففسر مراده بذلك واستدل على أن المؤثر في نفي العموم أو وهم النفي هو وقوع لفظ العموم في حيز النفي وعدم وقوعه . فقال : وإنما علمنا الحكم في بيت أبي النجم وسائر ما مضى بأعمال الفعل وترك أعماله ، من حيث كان أعماله فيه يقتضي دخوله في حيز النفي ، وترك أعماله يوجب خروجه منه من حيث كان الحرف النافي في بيت أبي النجم حرفاً لا ينفصل عن الفعل ، وهو « لم » لا أن كونه معمولاً للفعل وغير معمول يقتضي ما رأيت من الفرق أفلا ترى أنك لم جئت بحرف نفي يتصور انفصاله عن الفعل ، لرأيت المعنى في « كل » مع ترك أعمال الفعل ، مثله مع أعماله ، ومثال ذلك قول المتنبي :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقول أبي العتاهية :

ما كل رأى انفى يدعو الى رشد اذا بد لك رأى مشكل فقف

« كل » كما ترى غير معمول فيه الفعل ، ومرفوع اما بالابتداء واما بأنه اسم « ما » ثم ان المعنى مع ذلك على ما يكون عليه اذا علمت فيه الفعل فقلت : ما يدرك المرء كل ما يتمناه ، وما يدعو كل رأى انفى

الى رشد ، وذلك أن التأثير المرفوعه في حيز النقي . وذلك حصص
في الحاليين .

ولو قدمت « كلا » في هذا فقلت : كل ما يتمنى المرء لا يسرعه وكل
رأى انفى لا يدعو الى رشد ، لتعير المعنى ، ولصار بمنزلة أن يقول :
ان المرء لا يدرك شيئاً مما يتمناه ، ولا يكون في رأى الفتى ما يدعو الى
رشد بوجه من الوجوه (١٠٧) .

مأجب بالذليل . لا دخل لأعمال الفعل ومرك أعمه في هذه معنى
العموم أو عموم لشيء . وإيهما المعبرة بدخول لفظ العموم في حيز النقي
وعدم دخوله .

ولا كان بتقديم لشيء على لفظ العموم يفيد في العموم وحروح
البعض من الحكم . ولكن بتقديم لفظ العموم على النقي يفيد . عموم
النقي وشموله فقد ترتب على هذا صحة بعض الأساليب على الوجه
الأول . وعدم صحتها على الوجه الثاني بسبب ما فيها من نقص .
وقد أشار عبد القاهر الى هذا قبل : وأعلم أنه لم كان المعنى من
أعمال الفعل انفى في « ذكر » نحو : لم يأتنى العموم دأهم . ولم أر انعم
لهم . سأل أن الفعل قد كان من البعض . ووضع على البعض . قلب :
لم يأتنى العموم نعم ولكن اتانى بعضهم . ولم أر انعم دأهم ولكن
رأيت بعضهم . فأثبت بعد ما نفيت ولا يكون ذلك مع رفع « كل »
بالامتداء فلو قلت : دأهم لم يأتنى ولكن اتانى بعضهم ، وكل ذلك لم
يكن ويمكن كان بعض ذلك . لم يجوز لأنه يؤدي الى التضامض وهو أر
تقول : لم يأتنى واحد منهم ولكن اتانى بعضهم (١٠٨) .

فالأساليب التي صحت على الوجه الأول لم تصح على الوجه

• (١٠٧) دلائل الاعجاز : ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

• (١٠٨) السابق : ٢٨٢ .

الثانى ، لما فيها من التناقض بين الجملة الأولى والجملة الثانية فيهما
فقولك : كلهم لم يأمنى يفيد عدم اتيان واحد منهم اليك اليتم وقولك :
ولكن أثنى بعضهم ، يفيد اتيان بعضهم اليك . و ذلك يقع التناقض
ويفسد الاسلوب .

وختم الامام حدينه في هذا الموضوع بخلاصة بين فيها ما يفيد
تقديم لى على لفظ العموم وما يفيد تقديم لفظ العموم على النفى
مقال : واعلم أنك اذا ادخلت « كلا » في حيز النفى . ودبت بأن
تقدم النفى عليه لفظا أو تقديرًا ، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى
الفعل والوصف نفسه ، واذا أخرجت « كلا » من حيز النفى ، ولم
تدخله فيه لا لفظ ولا تقديرًا كان المعنى على أنك تتبعت الجملة فنفيت
الفعل والوصف عنها واحداً واحداً (١٠٩) .

موقف التأخيرين من هذه المسألة :

تناول بدر الدين بن مالك (ت : ٦٨٦ هـ) هذه المسألة . الشرح
وبين أن تقديم المسند اليه لقصد افادة عموم النفى واحد بثلاثة
شروط :

الأول : اقتران المسند اليه بأداة العموم « كل وجميع » فان
لم يقترن بها التقديم والتأخير سواء ، فاذا قلت : محمد لم يقصر
فأنت بالخيار بين أن تقدم « محمد » كما في المثال أو تؤخره بأن
تقول : لم يقصر محمد ، إذ لا عموم حتى يراعى لأحله وجوب التقديم .

الثانى : أن يكون المسند اليه لو أخر لأعرب فعلا ، والا لاستوى
التقديم والتأخير .

الثالث : اقتران المسند اليه بحرف أسفى ، فان لم يقترن لا يجب التقديم •

ومثال ما توفرت فيه الشروط : كل انسان لم يقم ، فتقديم المسند اليه واجب لاجل افادة عموم النفى ، وهو نفى الحكم عن كل فرد من أفراد الانسان ، فمما أشرت في مثل هذا المسند اليه ، لم يكن نصادف افادة العموم ، بل يحتمل أن يكون الحكم منفيًا عن بعض الأفراد دون البعض ، فقولك : لم يقم كل انسان ، يحتمل أن يكون معناه نفى القيام عن كل فرد من أفراد الانسان ويحتمل أن يكون معناه نفى القيام عن بعض أفراد الانسان دون بعض (١١٠) •

وبالمقارنة بين هذا الرأي وما ذهب اليه عبد القاهر نرى أن الرأيين يلتقيان فيما اذا تقدمت أداة العموم على أداة النفى نحو : كل انسان لم يقم ، وكل طالب لم يتأخر ، فهذا يفيد عموم النفى على كل من الرأيين •

ويخترقان فيما اذا تأخرت أداة العموم على النفى ، نحو : لم يقم كل انسان ، ولم يتأخر كل طالب ، فهذا عند عبد القاهر يفيد نفى العموم وخروج بعض الأفراد من الحكم ، وعند ابن مالك يحتمل أن يكون لعموم النفى ، وأن يكون لنفى العموم (١١١) •

وعرض الخطيب القزوينى لرأى ابن مالك ، واعترض عليه فى بعض علاه المنطقية ، وبين أن ما ذكره ليس خافيا وأنه مشهور بين العلماء (١١٢) •

(١١٠) المصباح : ١٢ ، وينظر أسرار التقديم والتأخير : ٦٢ •

(١١١) ينظر أسرار التقديم والتأخير : ٧٠ •

(١١٢) الايضاح : ٧٤/٢ - ٧٧ •

ودكر رأى الشيخ عبد القاهر وأمثلة والمثليات الذى عد به
لإفادة نفى العموم وعموم النفى . ثم قال وفيه نظرا (١١٣) وام
يبين هذا النظر الذى يقصده .

وجاء سعد الدين التفتازانى وبين ما فى كلام الشيخ من منكر
فقال : اننا نجد بعض الأمثلة التى دخل فيها لفظ العموم فى حيز
النفى ولا يمكن أن يتعلق الفعل فيها ببعض دون بعض كما قال الشيخ ،
بل ان الكلام فيها يفيد عموم النفى وشموله ولا يصلح الا على هذا
المعنى كقوله تعالى : (والله لا يجب كل محتار فخور) (١١٤) وقوله
تعالى : (والله لا يجب كل كفار عقيم) (١١٥) (ولا تطع كل حلاف
مهين) (١١٦) . فالكلام فى هذه الآيات على عموم النفى وشموله
ولا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض دون بعض وبناء على هذا فان الحكم
الذى ذكره الشيخ عبد القاهر أكثرى لا كلى (١١٧) .

وقد رد على رأى السعد بما يلى :

١ - أن هذا الحكم كلى ولا دلالة فيما ذكره لجواز أن يعتبر
فيه دخول كل بعد انتهى لا فيه فيكون قييدا فى المنفى دون المنفى
فيكون من شمول المنفى ، لان لقييد اذا اعتبر بعد المنفى كان قييدا فيه
لا فى المنفى ، فيكون المنفى دافيا مقيدا لا نفى مقيد (١١٨) .

(١١٣) الايضاح : ٧٨/٢ .

(١١٤) الحديد : ٢٣ .

(١١٥) البقرة : ٢٧٦ .

(١١٦) لقلم : ١٠ .

(١١٧) المطول : ١٢٥ - بتصرف .

(١١٨) تجريد البنائى : ٢٦٠/٢ .

٢ - أن مقتضى الاستعمل هو ما ذكره الشيخ بعد ظاهر
والآيات مصروقة عن الظاهر بدليل خبر جى . حتى لم يسم بلاحظ
الدليل كان مفادها سلب العموم (١١٩) .

وأفضل من هذين الردين وغيرهم ما ذكره الشيخ لبرقوقي في
شرحه للتلخيص نقلا عن الشيخ محمد عبده حيث قال :

فإن قلت : فما تصم في قوله تعالى : (والله لا يحب كل مخزول
فخور) وقوله تعالى : (والله لا يحب كل كفار أثيم) ؟ قلت : قد
يحمل عما يدل على عموم السلب إلى ما يفيد سلب العموم ، والسلب
عام على الحقيقة للتعريض بالمحاطب ، والأيماء إلى أنه سر محقق .

مثلا : إذا قلت لسفيه تعرض بأنه شر السفهاء : أنا لا أحب كل
سفيه ، فالمعنى أنه لو فرض أن محبني تتعلق بسفيه لكنت غير مودع
لها ، وكذلك الذي جاء في الآيات التريمة أريد به سرور به علم -
التعريض بمن نزلت من أعداء الله ، وانهم شر أعدائهم ، وقوله تعالى :
(والله لا يحب كل مختال فخور) معناه : أن محبة الله لا تعم المحضين
المخورين حتى تشمل هؤلاء مكانه سبحانه يقول : لو أن محبتنا
تعلقت بمختال فخور لما تعلقت بأوائك . لأن محبتهم وفخورهم شر
محتمل وفخور . وهكذا يقال في سائر الآيات وما ظاهره أنه مر سلب
المعوم وحقيقته أنه من عموم السلب (١٢٠) .

وبهذا نصل إلى نهاية بحثنا آملين أن نكون قد أنجزنا ما قصدناه
والله الموفق المستعان .

(١١٩) حاشية عند الحكيم : ٢٠٤ .

(١٢٠) شرح التلخيص لبرقوقي : ٦٨ .

مراجع البحث

- ١ - أنور المعجزة في البحث انبلاغي د. عبد القادر حسين - نهضة مصر *
- ٢ - أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم د. محمود شسحون
الكلمات الأهرية *
- ٣ - الإيضاح * الخطيب القزويني - ب : د. محمد خفاجي - لكتبات
الأهرية *
- ٤ - بغية الإيضاح * الخطيب القزويني * ت : عبد المتعال الصعيدي -
الآداب *
- ٥ - البلاغة تطور وتاريخ * د. شوقي ضيف - دار المعارف *
- ٦ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري * د. محمد أبو موسى -
دار الفكر *
- ٧ - تحرير السناني * مصطفى السناني *
- ٨ - تقرير الانبائي * الشمس الانبائي *
- ٩ - حاشية عبد الحكيم على المطول * عبد الحكيم السبيالكوتي *
- ١٠ - خصائص التراكم * د. محمد أبو موسى - مكتبة وهبة *
- ١١ - الخصائص * ابن جني * ت : محمد علي النجار *
- ١٢ - دراسات تفصيلية لبلاغة عبد القاهر * عبد الهادي العدل - المنيرة
- ١٣ - دلائل الإعجاز * عبد القاهرة الجرجاني * ت محمود محمد شاكر -
الخانجي *
- ١٤ - دلالات التراكم * د. محمد أبو موسى - مكتبة وهبة *
- ١٥ - شرح التلخيص * عبد الرحمن البرقوقي - مطبعة النيل *
- ١٦ - الكتاب * سيبويه - بولاق *
- ١٧ - الكشف عن حقائق التنزيل * الزمخشري - الحلبي *

١٨. مجاز القرآن • أبو عبيدة ت : فؤاد سركين •
- ١٩ - مختصر المعاني • سعد الدين التفتازاني - الحلبي •
- ٢٠ - معاني القرآن • الفراء •
- ٢١ - مفتاح العلوم • السبكي - الحلبي •
- ٢٢ - المصباح في علم المعاني والبيان والبدیع • بدر الدين بن مالك -
الخيرية •
- ٢٣ - المطول • سعد الدين لتفتازاني . الاستانة •
- ٢٤ - نظرات في البلاغة والاسناد • د • محمد عبد الرحمن الكردي
السعادة •
- ٢٥ - نهاية الايجاز في دراية الاعجاز • الرازي • الآداب •

الحائسة الأدبية عند عبد الملك بن قروان

أبعادها وأيادها

د . محمد كريم

لا أحسبني مغاليا إذا قلت : إن كثيرا من الشخصيات العربية التي فرضت وتفرخت عبقريتها على مسرح الحياة فتحوّلت إلى طاقات هائلة متنوعة .. نرغمهم إلى أعلى درجات الشهرة والتفوق فيما يصبون إليه من تطلعات وآمال يمتعون بحس أدبي متميز يكسبهم من حفاء القريحة وحدة الذهن وشحذ الهمة ما يعينهم على احتواء مصادر الاختلاق واستلهام أسباب الرقي وأحرار قصب السبق في أي اتجاه إنساني دأ فصلا عما يحظى به الأدب نفسه من إبداعاتهم أو نظراتهم النقدية الملمحة التي تثرية وتأخذ بيده إلى حيث يجب أن يتأون .

ويبدو أن هذه ظاهرة تجاوزت الشخصية الأدبية من أبناء العرب إلى أبناء الأمم الأخرى لسببين مهمين لهم علامات متميزة بآدابهم ، وعلى سبيل الاستدلال نجد مشهور علماء في أوروبا تربطهم بآدابهم صلات قرابة — « فقد كان أينشتاين مولعا بالأدب وكذلك عالم الطبيعة الأمريكي الأشهر « هول » صاحب العديد من المؤلفات الأدبية ، وعالم الأعصاب النرويجي الشاب الكبير « بنفيلد » وأستاذ الطبيعة الكاتب الإنجليزي « سناو » وغيرهم » (١) .

ومن المصادفات الطيبة لكلمة « أدب » أنها اكتسبت كثيرا من ملامح هذا البعد الإنساني عند العرب منذ القدم وقبل أن تصل إلى معناها الذي استقر في أذهان الدارسين والباحثين من الأدباء والمفكرين

(١) مجلة عالم الفكر المجلد الخامس عشر العدد الرابع ص ٦٨

وهو في أبسط صورته : التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية شعرا كانت أو نثرا •

وما هو ذا علقمة بن علاثة لجاهلي في وفد من وجوه العرب وساداتهم أمم كسرى وقد حرص كل المحرص على أن يرفع من شأن العرب مكان مما وجههم به أنهم على جانب رفيع من الأدب وذلك في قوله . فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آبيائه أندادا وأكفاء كلهم إلى الفضل مسوب ، وبالشرف والعزود موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب معروف (٢) •

ويحدث رسول الله ﷺ — فتتفد عليه الوفود من كل حبيب ومسوب ، ويخاطبها بما تحمده ويتفق مع ما جاء به من الهدى حتى قال له علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — : يا رسول الله نحن بنو أب واحد وفراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال له رسول الله ﷺ — : أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد (٣) •

ومما ورد بشأن الشعر — وهو شطر الأدب — وما له من أثر على صاحب إحس الأدبي الذواقة القول : ولسنا في حاجة إلى تيسير إلى أهمية الشعر في رقى النوع البشرى وتهذيبه ، فقد عمل الشعر كما عملت العاوم على إسعاد الإنسان • وكان للخيار الذي بنظمه الشعر ما للحقائق العلمية التي تقررها العلوم من الأثر الكبير في تغيير نظم الحياة وتكليف عقيدة آدميين ، فجعلنا الحقائق العلمية تكون مقررة القواعد ثابتة الأساس سهلة الاتباع — إذا بالخيال الذي يتخلل قذيبا الشعر عون على أن يأخذ بيد الإنسان ليرفعه من وهدة

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٨٤ •

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ •

عميقته مظلمة إلى ضاهي سبل مرئع مهيء بالفور والحياة حتى يمكنه أن يطل على سبل تقدمه ورقيه ، فإذا هو يراها شافيه واضحة ، وإذا هو بتكرار انظر يعرفها وحقائق مسالكها ، وإذا هو بعد قدرة وجيزة أو غير وجيزة يذبح قامة على أبوابها فيسبر فيها على طريق مستقيم (٤) .

وهما يدرجهم مثل هذا انشور العائت إلى واقع عملي منسجم ما كان من أمر معاوية بن أبي سفيان حين سخر في الهرب بعيدا عن ميدان الحرب والقتال ، وإذا به يتذكر شعرا حماسيا يحس لاقط وتدوين راع فيجد فيه تشحيصا للهيم والبطولات يدفع بالذفس الانسانية إلى حيث نحيق الذات وتخليد المسائر في مواطن الشدة ثم فيعود إلى لأحراط في صفوف المحاربين .

يستفاد ذلك من قوله : يجب على الرجل فأديب ولده ، وانشور أعطى مراقب الأدب . هاجموا أكبر همكم وأكثر دأبكم ، وقد رأيتني ليلة الهرب بصفين ، وقد أقيت بفرس أعر محجل بعيد البطل من الأرض وأنا أردد الهرب لشدة البأوى ، فما حملتني على الاقمة إلا أبيات عمرو بن الأظفانية :

أبت لي همتي وأبى بلائي
وأخذني الحمد بالثمن الربيع
واقدماني على المكروه نفسي
وخزني هامة البطل المشبح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكاث تحمدي أو تستريحني (٥)

(٤) دائرة المعارف البريطانية مادة

(٥) العمدة ج ١ / ٢٩ .

لأدفع عن مآثر صالحات

وأحمى بعد عن عرض صديح (٦)

وما دما بسدد الحديب عن لحاسه الأدبية وأمرها النعال في تقوى
الكيرين من نه حصبات الدابيه ذات الحس المارفف والاقتدر على
تحقيق رغائدها ، فحدير بنا ان نكتب عبد الملك بن مروان ، وقد قدر
لى الاطلاع على كثير من اخباره في كتب التراث فوجدته من هؤلاء
الذين يتضح فدهم هذا الجانب بدلاء ، حيث تولى خلافة الأهويين
وهو امر الدهار كما تعرف بها وتحتها أمرا بعد رير ، لنا أن مات
معاوية من أمى صفات حتى قتل الحسن — رضى الله عنه — وحمل
رأسه الشريف الى برمد بن معاوية ، وتقرالى الأحداث تداعا فاستباح
مدينة رسول الله — ﷺ — ثلاثة أيام ان لجيش يزيد من معاوية
أدضا — خليفة المسلمين — ا مقادة مسلم من عقبة المرى •

ويومئذ يريد فى الخلافة ابنه معاوية ابنى ، لكن سرعان ما حضرته
الوفاة ، ون أن دبايع لأحد ، واددو أنه كان غير راض عما آل اليه
أمر الخلافة بعد أن كان شورى بين المسلمين •

اذ برورى أنه لما حضرته الوفاة قيل له : لو عهدت الى رجل من
أهل بيتك • • واستخلعت خليفة ! قال : لم أنفع بها حيا فلا أقادها
مينا ، لا يذهب مسو اية بحالونها وأتخرج مرارتها ، ولكن اذا مت
فليصل على الرايد بن عتبة واصل بالناس الصحاك من تيس حتى
يختار الناس لأنفسهم (٧) •

وطبيعى ان تؤدى أحداث كهذه الى اثاره المعواطف الدينيه
وتوسيع شقة الخلاف بين طوائف الأمة بعامه وازدياد نفوذ الناظرين

(٦) العمدة ج ١ ص ٢١ •

(٧) بعد الرايد ج ٥ ص ١٤٠ •

الخلافة من دين الأمويين ، فقري شأن الشيعة والخوارج واتسع نفوذ من أربير بسطهم القيسيين إليه ، ودخول مصر والكوفة والبصرة وخراسان في طاعته •

ولم ينف الأمر عند حد هذه الأحزاب المتصارعة والمعدية لبني أمية وإنما ظهرت حركات فردية معدية أيضا وصادفت قولا وتوحاها من بعض رؤوف العرب وبخاصة تلك التي تكن العداء للأمويين مثل حركة المختار الثقفي وحركة ابن الأشعث •

وكاد الأمر يفلت من قبضة الأمويين إلا أن أصحاب الرأي فيهم عقدوا مؤتمرا فيما بينهم عرف في التاريخ الاسلامي « بمؤتمر الحجابية » واتفقوا على أن يبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة ، ثم تكون بعد ذلك لخالد بن يزيد بن معاوية ثم لعمر بن سعيد بن العاص ، وما هي الا شعور حتى توفي مروان بعد أن عزل خالدًا عن ولاية العهد وعين ابنه عبد الملك بدلًا منه ، وبصنيعة هذا ترك ميراثًا خفيا من الآلام والعذاب أمام ابنه عبد الملك ومصير الخلافة في بني أمية ، فهو لم يكتف بما لديه حال المساهين من الانقسامات والعصبيات التي عادت أن تكون مما كانت عليه قبل الاسلام وأنها أراد أن يضع بذور الفتنة بين أبناء البيت الأموي نفسه قصد أم لم يقصد •

ومما هو جدير بالذكر أن عبد الملك تمكن من التغلب على كل هذه الآلام والعصبيات واستطاع أن يعيد الأمن للبلاد والأهل الأولاد الأمويين من بعده في • الاستئثار بالخلافة بعد أن نادت فتلت من قبضتهم •

بدأ ابن عبد الملك بعد بحرق المؤسس لدولة بني أمية بعد معاوية ، مما هو ذا يتمكن من هزيمة أكبر قوة للشيعة آنذاك ، وكانوا قد اجتمعوا بالسخية بقيادة سليمان بن صرد ، ثم انتقلوا منها الى قبر

الحسين - رضى الله عنه - فبعثوا كثيرا وعزوهوا على الانتقام من
الأمويين إلا أن جيش عبد الملك بقيادة الحصين بن نمير الشكونى تمكن
من التغلب عليهم في عين الوردة (٨) •

والخوارج كانوا قد استولوا على « كرمان » وبلاد « فارس »
وهددوا « البصرة » إلا أن عبد الملك سبر اليهم من الحملات العسكرية
ما أضعف من شوكتهم وحدث من نشاطهم (٩) •

وبحسب جيش عبد الملك « كمة » هذه ليست باليسيرة اضطرو
المسيكون الى طلب الأمان وتحلى عن ابن الزبير الكثير من الأقارب
والأنصار ، ولم يبق منه إلا قلة من الأوفياء ولكنه ثبت وأمهت لحتى
فى سنة ٧٣ هـ وصله الحجاج بمكة فخلص لعبد الملك الحجاز وقد كان
لعراق قد خلص اليه بعد قتل مصعب (١٠) •

أما عن القيسية فقد تمكن عبد الملك من عقد صلح مع زعيمهم
« رعر من الحارث الكلابى » بفنسرين ، كما تمكن من قتل عمرو بن سعيد
ان الحاص بدمشى ، وكان قد ثار عليه طمعا فى الحكم واستادا الى
ما كان قد اتفق عليه فى *** مؤتمر الجابية •

ومثل هذه التبعات التى القيت على كاهله مدد أن يبيع له بالخلافة
كشفت عن تفتحه بحسنة أدبية راعية تمثلت فى افتتانه بالنص الأدبى
الجميل - أيا كنت معالم جودته أضواء وحفظا وتمثلا به فى وقت الفرح
والمرح وساعات العزم والحزم ، وعاهدا لجاسمه وكشفا عن مواطن
الجمال والقدح فيه كسفا يعتمد فى معظم أحواله على التذوق الفنى

(٨) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ •

(٩) فتح الإسلام ص ٣٠٢ •

(١٠) أدب السياسة فى العصر الأموى ص ١١٨ •

والادراك المنقن لجماليات الذوق في وصف سادات هيه النظرة العذلى
والاحكام الانطباعية السريعة على النص •

على أنه لا ينبغي لنا أن ننزل حقيقة شغف عبد الملك وافتقاره
بالشعر الشعري أثر من سواء ، ودلنا رجع الى ارتفاع صوت الشعر
وتسند الكافة الترفيعة بين وسائل التعبير آنذاك ، حيث قدر خلنا
بدي أهمية بعمامة وعبد الملك بخاصة ما للشعر والشعراء من اثار على
النفس البشرية فوجهوا اهتمامهم للشعر وحرصوا على أن يجمعوا
حولهم فهدوا كبرا من الشعر ، ولم يجدوا حرج من أن يتأسفوا
ملوبهم بالملل والعطيا رغبة في الدعوة لهم والتصدى لناوئهم •

وها هو ذا معاوية يدعو الى المتعلق بالشعر والاحتمال به فيقول :
اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم (١١) وعبد الملك يوصي مؤدب
ولده ولده بقوله : نلهم الشعر بمجدوا وينجدوا (١٢) •

وقد أدى هذا الاهتمام بالشعر الى أن أصبح كما كان في الجاهلية
مطير المرحح وقريمه • وشطر عدة المحارب وروح دعونه ، والمقرب على
عرش الادب بأجناسه المختلفة • غير عبيء بما كان للاسلام من اثر في
تهذيب موضوعاته وسمو معانيه •

ومن هذا المنطلق — « يستطيع أن نقول . اننا اذا شبعنا تاريخ
الشعر العربي بسلسلة من الجبل تعار وتهدم وتتدرج نزولا وصعودا
فان ظهور الدعوة الاسلامية يمثل مبدأ الامحار الذي يستمر فلا يتوقف
الا بعد مقتل عثمان — رضى الله عنه — حيث نكون قد وصلنا الى قاعدة
الجبل لبدا من جديد الصعود تدرجيا الى قمة جبل آخر ولا نبلغ

(١١) العمدة ج ١ ص ٢١ •

(١٢) الأملى للقالى ج ١ ص ٨ •

ملك العمة إلا في أيام جرير ومأذبه الأخطال والفرزدق تلك الأيام التي
تسير جنبا إلى جنب مع عصر العرف والنشاط والاستقرار السياسي
والاقتصادى في العهد ادول ولا يكاد نالنتهم يتركون الميدان حتى نكون
قد حلفنا ذكامة انشاحدة ورأ طهورنا واستقبلنا جنبا آنر من
جوانب الجبل ينحدر رويدا رويدا نحو العصر العباسى «(١٣)» •

وها هو ذا الشعبى وقد دخل على عبد الملك فوجده قد كبا مهتما
مقل : ما بال امر المؤمنين ؟ قال : يا شعبى ذكرت قول زهير (١٤) :

كأنى وقد جاورت سبعين حجة

خلعت بها عنى عذار لجامى

رمتى بنات الدهر من حيث لا أدرى

فكيف بمن يرمى وليس بسرام

فلو أنتى أرمى بنبل رأيتهما

ولكن أرمى بخير سهام

على الراحتين قارة وعلى العصا

أنوء ثلاثا بعدهن قيامى

ويطلب عمر بن على بن أبى طالب من عبد الملك أن يصير إليه

صدقة أبيه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وكانت تصير الى

ولد الحسين فأبى وتمثل أبيان لابن أبى الحقيق تدعو الى احقاق

الحق والالترام به وفيها يقول (١٥) :

انى اذا مالت دراعى الهوى

وأنصت السامع للقبائل

(١٣) تاريخ الشعر العربى للكفراوى ج ١ ص ٧٨ •

(١٤) العقد ج ٢ ص ٣٦٩ •

(١٥) العقد ج ٥ ص ١٥٠ (اعتلجوا : المحبوا صراعا وقتالا) •

واعتلج الشاس بأرائهم
نقضى بحكم عادل فاصل
لا نحيل الباطل حقاً ولا
نرضى بدون الحق للباطل

وما هو يتهمل شعراً زهدياً - وقد حضرته الوفاة - يترجم عما
كان عليه وعما صار اليه فيقول (١٦) :

لعمري لقد عمرت في الدهر برهة
ودانت لى الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حمر المال والحكم وانتهى
ولى سلّمت كل المسوك الجبابر
وأضحى الذى قد كان مما يسرنى
كلّمع مضى في المزمّنات الخوابر
فيا ليتنى لم أعن بالملك سبابة
ولم اله في لذات عيش نواضر
وكنّت كذى طمرين عاش يبلغه
من الدهر حتى زار ضنك المقابر

وهذه نماذج ذكرتها نلى سبب الاله تدلال لا الحصر لتكشفه
عن حفظ عبد الملك للشعر أيا كن عصره وغرضه وتدلّ على دقة تمثله
بما يحفظ من الشعر حفظ الفاهم الذواقه .

ومع حفظه للشعر ودقة تمثله به كان يحب سماعه والاصغاء اليه
دون مثل فاذا ما ركب اصطحب حاد يحدو ابله برجز ، وغالبا ما يكون

(١٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٠ (الطمر : انشوب الخلق) .

في مدحه ، وها هو ذا عبد الملك يخرج يوما رائدا على نجيب ومعه
حداد يحدوه بقوله (١٧) :

يا أيها البكر الذي أراكا
عليك سهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا
ان ابن مروان على ذراكا
خليفة الله الذي امتطاكا
لم يعمل بكرا مثل ما علاكا

وإذا ما تعرض لما يؤرمه وجد سلاح في سماعه لشعر واحبر
الشعر . . . ويروى أنه روى ذات ليلة فقال : اطلبوا لي رجلا
يحدثني . فخرجوا إلى المسجد ، فوجدوا رجلا فأدخلوه ، فقال له
عبد الملك : من انت ؟ قال : أنا فلان ونسب من أصدق الناس لجميع
(الشاعر) قال : فحدثني عنه . قال : حررت معه مرة حتى انتهى
إلى حباء لآل بتيه وسمعت به . . . فأقبلت في نسوة معها وأقبل جميع
بحوها ، فقعده وقعد فتحدثوا ساعة ثم أخذوهم . فلم يزالا يتشكيان
حتى عشرين المصبح فودع كل من صاحبه . ثم وضع جميع رجله في
الغرز . فمالت إليه بشبه . . . فقالت : يا حميل أدن مني ، فمال إليه
برأسه وعنقه فسارقه بشيء فخر معشبا عليه . ثم مصت ، فأنقته فله
أزل عند رأسه حتى طلعت الشمس عليه . فقام يفيض رأسه وهو
يقول :

فما مكفر في رحي مرجحنة
ولا ما أسرت في معادن النحل

(١٧) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٥٩ (البكر : الفتى من

بأحلى من القول الذى قلت بعدما

تمكن فى حيزوم ناقتى للرحيل

فقال له عبد الملك : ويحك فهل تدري ما سارته به ؟ قال : لا والله
يا أمير المؤمنين (١٨) •

لذا لا نعجب اذا ما تبين لنا أن الشعر كان ينفذ الى أعماق وأدى
الأحاسيس والمشاعر عند عبد الملك فيحرك ساكنها ويديب ما ران عليها
من هموم الملك لاسيما اذا ما كان شعرا جيدا ذا إيحاءات مؤثرة وهذا
حدث أن عبد الملك بن مروان لما أنزل زفر بن الحارث الكلابى من
« قرقيسيا » واستقدمه اليه وأقعدده على سريرته ، عاتبه البعض على
تقدير رجل كان فى الأمس من ألد أعدائه وسيفه يقطر من دماء قومه
فلم ينفع العتاب ، فبلغ ذلك الأخطال وهو يشرب ، فمضى حتى دخل على
عبد الملك وأنتشد :

وكأس مثل عسین الديق صرف

تنسى المساربين لها المعقولا

اذا شربت الفتى منها ثلاثا

بغير الماء حاول أن يطسولا

مشى قرشية لاشك فيها

وأرغى من مسأزره الفضولا

فقال : له عبد الملك ، ما أخرج هذا منك يا أبا مالك الا حيلة فى
رأسك • قال : أجل والله يا أمير المؤمنين ، حبيب تحلس عدو الله هذا
معك على السرير ، وهو القائل بالأمس :

(١٨) الشعر والشعراء ج ١ ص : ٤٢٩ (مرجعته : نقلة -

الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام) •

وقد يثبت المرعى على دفن الثرى وتتبقى حرازات النفوس كماهيا
فتمض عبد الملك رجله ثم ضرب بها صدر زهر فقلبه عن السرير .
وقال : اذهب الله حرازات تلك له يدور (١٩) .

وقد يقال : ان عبد الملك ما قاله الاخطل لأنه شاعره المفضل
... فأراد أن يرضيه بـصـديـعه مع زهر بن الحارث الكلابي أو لأن
الأخطل أنار في عبد الملك غضبه المسدود على « زهر » حينما خرج عليه
وأعلن العصيان فكان من عبد الملك ما كان .

والمرجع في باب الأدب التراثية من النماذج الكثيرة ما يؤكد
نشان عبد الملك بالشعر الجيد حتى ولو كان صادرا من عدوه ، ويكفى
على سبيل الاستدلال أن عبد الملك سأل عن عمران ابن غصام -
وكان من الشعراء الذين خرجوا عليه مع ابن الأشعث - فتمين له -
قبة الحجاج ، فقال ولم ؟ ... قال بخروجه مع ابن الأشعث .
قال : ما كان ينبغي له أن يقتله بعد قوله فيه :

وبعثت من ولد الأغـر معتـب

صقرا يلوذ حمامه بالعوسج

ماذا طبخت بذماره أنضجتها

وإذا طبخت بغيرها لم تنضج

وهو الهزمر إذا أراد فريسة

لم ينجها منه صريح الهجج (٢٠)

وكثرا ما كن الشعراء المجيدون يظفرون بهائمته السخية وجوائزه
الذمينة وعلى سبيل الاستدلال أيضا ما كان شأنه مع « أعشى ربيعة »

(١٩) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص : ٢٥٠ .

(٢٠) العقد العربي ج ٥ ص ٣١٣ .

عبد الله بن حارجه حيث دخل على عبد الملك مدحه بقصيدة طرب لها
عبد الملك أيما طرب ومما قاله فيها :

وما أنا في أمرى ولا في حصرومنى

بمهتم حتى ولا قمارع مسنى
ولا مسلم مولاي عند جناية

ولا خائف مولاي من شر ما أجنى
وان فؤادا بمن جبي عالم

بما أبصرت عيني وما سمعت أذننى
وقضائى في الشعر واللب أثنى

أقول على علم وأعرف من أغنى
فأصبحت اذ فضلت مروان وابنه

على الناس قد فضلت خير أب وابن

فقال عبد الملك : من يلومنى على هذا ؟ وأمر له بعشرة آلاف
درهم وعشرة تحوت قبيب وعشر فرائض من الأبل * وأقطعه ألف حريب
ومال له : امن الى زيد الكاتب يكتب لك بها * وأجرى له (٢١) *

ومثل هذا انطاء ليس بعريب على رجل كس يقتدر بحسه الادبى
الواعى ما لحسن البيان وبلاغه القول — ولو لم يكن شعرا — من أثر
فعل في النفوس * فقد حدث — ن ومع في قبضته رجل من الحوارج
وكان يهم بقله ، وذا بابنه مروان يدخل عليه بذي لان مؤدبه ضربه .
فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجى يقول (٢٢)

دعه يبك ، فانه أرحب لشدقه — وأصح لدماعه ، وأذهب لصوته .
وأحرى ألا تأبى عيه عينه اذ حضره طاعة ربه فسد على عرقه .
فتعجب عبد الملك وقال له : أما يسغلك ما أنت فيه عن مد ؟ قال

(٢١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٣ *

(٢٢) تهذيب الكامل ج ١ ص ١٨٤ *

الخارجي : ما ينبغي أن مشغل المؤمن عن قول الحق سيء • عامر
عبد الملك بحسبه وصفح عن قتله • وقال له • لمولا أن تفسد ما يملكه
أكثر رعيتي ما حبسك •

ويدخل العجاج الراجز المشهور على عبد الملك فيسأله عبد الملك
يا عجاج بلغني انت لا تقدر على الهجاء • فقال : يا أمير المؤمنين من
قدر على تشييد الأبنية أمكنه اخراب الأخبية • قدر : فما يمنعك من ذلك ؟
قال : ان لنا عزا يمنحنا من ان نظلم • وان لنا حلمًا
يمنعنا من ان نظلم • فعلام الهجاء ؟ قال عبد الملك ؟
لذلماتك أشعر من شعرك • فاني لك نمر يسمعك من ن مظلم ؟ قال :
الأدب لبارع • والفهم للناسع • فما الحلم الذي يسمعك من ان تظلم ؟
قال : الأدب المستطرف • والطبع النادر • قال : يا عجاج لقد أصبحت حكيمًا
قال : وما يمنعني وأنا نجى أمير المؤمنين ؟ •

ولعل في هذا ما يكشف لنا عن سر مقوره السديد وبخديره من (٢٣)
انحن في القول لأنه — هجته على الشريف • وأقبح من التفتيق في
الثوب والجدرى في لوجه • وكان يحرق في نفسه ما عرفت به ولدا
(الوليد — ومحمد) من الحسن • وكس يقول • لقد أصر بالوليد حياء
له فلم توجهه ابى ابيادية (٢٤) • وسئل يوما لم عجل عليك الشيب
يا أمير المؤمنين ؟ فقال : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع الملح (٢٥) •

وكن لعبد الملك بن مروان ذخرات تفديه في الشعر بأمر منه المحتسبة
نشعرا بدقة احساسه بمواطن الجمال • هذا فضلا عما كان لها من دور
بارز في الارتقاء بالنقد والأخذ بيده من مرحلة الانطباعية والتعميم الى

(٢٣) خطابة في صدر الاسلام ج ٢ ص ٢٨٢ • محمد طاهر

درويش •

(٢٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٠٨ •

(٢٥) المرجع نفسه ج ٢ ص ٣٥٧ •

مرحلة التحليل والتحليل الغنى المفتح، ويكفى عبد الملك أن تحظى نظراته النقدية - بعد عشرات زمنية ليست باليسيرة - بأنصار من علمائنا النفاذ يفسرونها ويحفظون منها أسساً مدنية يتروود بها الناقد في تعامله مع النص الشعوري ويصدر الشاعر على هديها في التعبير عن تجاربه الشعرية .

وما هو ذا عبد الملك يسر بمقدم جرير ويجزل له في المعنى بعد أن كان غضبا عليه لمدح القيسية - وكنت من الذبائل المتمردة عليه - فقد روى أن الحجاج أرسل جريرا إلى عبد الملك في صحبة ابنه ضمعا في السماح له بالدخول ، فلما دخل جرير قال له عبد الملك : عسى أن نقرل فينا بعد قولك في الحجاج عاملنا :

من سد مطلع النفاق عليكم أو من بصول تسوله الحجاج

ن شأه ينصرا بالحجاج ، وأما مصر دبه وخليته ، وظهر الغضب في وجه عبد الملك ، فتوسط ابن الحجاج في الرضى ، فاستأذن جرير في الانشاد ، وأنشد قصيدته التي يقول فيها :

أستقم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

فتبسم عبد الملك وفار : وكذلك نحن وأمر له بمائة من الابل وثمانية أعبد لرعايتها . وكان بين يديه صحاف من فضة . فتال جرير : والمجلب يا أمير المؤمنين ؟ فنبد إليه بواحدة منهن ، فلذلك يقول جرير في قصيدة يمدح يزيد بن عبد الملك :

أعطى هيدة يحدوها ثمانية ما في عطائهم من ولا سرف

وصار يقد على عبد الملك من ذلك الحين ، ويأخذ الجوائز ، وكانت جائزته أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة (٢٦) .

(٢٦) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ص ٢٦٣ وما بعدها .

وبون شاسع دين ما كان من عبد الملك لجريير وما كان منه
لعبد الله بن قيس الرقيات ، حيث أقبل هو الآخر على عبد الملك بعبد
قتل مصعب ، ، كان ملازما له يمدحه ، فقال من قصيدة يمدح بها
عبد الملك ، وكان قد آمنه :

يعدل التاج فوق مشرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس تمدحني بلقاج كأنني من المعجم
وتقول في مصعب :

انما مصعب شهاب من الماء ه تجلت عن وجهه المظلماء
ملكه ملك غزاة ليس فيه جبروت منسه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء
أبدا (٢٧) .

وكن بالامكان أن يكرم عبد الملك ابن قيس الرقيات كما كان
الشأن مع جريير — وقد كان غاضبا عليه أيضا — لكن كأنى بعبد الملك
وقد رضى كل الرضا عن جريير لأنه وإن مدح الحجاج بما يدور حول
تركية النفس وسموها من الحزم والشجاعة ونحوهما إلا أنه في مديحه
لعبد الملك كان أكثر تركيزا على صفات النفس المنطلعة الى التفرد في
كل سام ونبيل لا ليرفع من شأن عبد الملك فحسب ولكن من شأن
الأمويين جميعهم ، غبطة و أمية ارتقوا الى أعلى درجات الخير دون
الناس جميعا في كل ميادين الشجاعة ، لأن قول جريير :

أستم خير من ركب المطايا ؟

روى بالعبارة في كل جليل تركب من أجله المطايا حربا كان لرد
عدوان أو احتفا لحق أو اغاثة بالهوف وما الى ذلك من ألوان الشجاعة

التي يعتز بها العربي ويمخر . هذا فضلا عن تصنيفه إلى أعلى درجات الكرم دون العالمين .

... وأندى العالمين بطون راح ؟

ومن هنا كان أعجب عبد الملك بما دله جرير عليه وثى بزمه أرى
وقد من أعجابه بما دله جرير في المصباح نكح الأرملة وانصاع
حيث يرحى عن ابن قيس الرقيات وقد جعل من مصعب في بيته المدين
أعجب بهما عبد الملك شهابا من الله تخرج به الكرب وتمحي الظلمات
وتحقق به العزة الرعية وببدر دسرح الجبروت والكبرياء .

وأما أن ابن قيس الرقيات جعل في مديحه لعبد الملك ما جعله ...
لمصعب من الترسيز على سمات الشمس وانفؤاد بدلا من جعله ممد .
منوجا يشع لور من بيديه بده اذهب ، وحى صورة لا تفرد فيها
ولا نمرة ، ولا توحى بى ممدى بى . يتمنع به أو يربطه بالرعية ، ومن
هنا كن غضبه ونفوره من ابن قيس الرقيات .

وقد يقال أن ما حدث من عبد الملك لابن قيس الرقيات لا علاف
له بما قاله في مديحه . وإنما لأخلاقه بلزيريين بعمامة ومصعب
بخاصة قبل أن يجأ إلى عبد الملك .

وسواء الأمر كذلك لما حظى ابن قيس الرقيات بالأمان من قيس
عبد الملك . ولما سمع له بالانحد بين يديه ثم بين ما قاله «ابن قيس»
في مديحه لمصعب وما قاله في مديحه له .

ويأتى مدامه بن جعفر — أحد نقلائنا لقدامى . بعد وممد
عبد الملك بما يجاوز المائتى سنة ليرى رأيا فيم ينبغى أن يكون عليه
الديح ، فيتخذ من موصى عبد الملك مع جرير وابن قيس الرقيات ما
يعضد به رأيه ويقويه ومما قاله في هذا الصدد (٢٨) :

(٢٨) نقد الشعر ص ١٨٤ وما بعدها .

لما كنا قدما ، من دال المدح الحار على الصواب ما أنبأنا أن
الذى يقصد فيه المدح للشئ ، بفضائله الخاصة به ، لا بما هو عرضي
فيه ، وجعلنا مديح الرجال مثالا في ذلك ، وذكرنا أنه من قصد مدحهم
بالفضائل النفسية كان مديحا ، وجب أن يكون ما يأتي به من المدح
على خلاف الجهة التي ذكرناها في الذموت مديحا .

ومن الأمثلة الجواد في هذا الوضع ما قاله عبد الملك بن مروان
لعبيد الله بن قيس الرقيات حيث عتب عليه في مدحه إياه ، فقال له :
انك قلت في مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من اللب ه تجلت عن وجهه الظلماء
وقلت في :

يأملق الساح فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فوجه ذهب عبد الملك انما هو من أجل أن هذا المادح عدل عن
بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة الى
ما يأتى بأوصاف الجسم في البهاء والزينه وقد كنا قد قدمنا أن هذا
غلط وعيب .

ويذهب ابن رشيق — أحد نقادنا القدامى أيضا — الى ما ذهب
اليه قدامة في تفضيل المديح بالصفات النفسية الا أنه لا يجد غرضة في
مزجها بالصفات العرضية أو الجسمية فبقول (٢٩) :

وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة . من
اضيف اليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال والأبهة وبسطة الخلق
وسعة الدنيا وكثرة العشرة كان ذلك جيدا ، الا أن قدامة قد أبى منه

وانكره جهلة ، ولبس لك صوب ، وانما لواجب عليه ان يقول . ان
: ح بالفضائل النفسية أشرف وأصح . فأما انبار مساوفا
كرة واحدة لما أظن أحدا يوافق فيه أو يساعد عليه .

ومهما كانت أرجه الأنفاق والاختلاف بين المتسقين إلا أنهما
يرجحان موقف عبد الملك القذوقى من الشعاعين .

ويبدو أن قدمه كان معجبا بنقذات عبد الملك فنجدته يلتزم
التفسير والعلل للأحكام التى أطتها عبد الملك على بعض النصوص
شعرية غير مشفوعة بتفسير وتعليل .

وهو ذا كثير ينشد عبد الملك مدحا فيقول :

بنى بن أبى العاصى ولاص حصينة

أجاد المرىء نسجها وأذالها

يود ضعيف القهرم حمل قتيها

ويستطلع القهرم الأشم احتملها

فقال به عبد الملك . قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحسن من

قولك حيث يقول له :

واذا تجىء كتيبة ملومة

شهباء يخشى الراهدون نهالها

كنت المقدم غير لابس جبة

بالسيف تضرب معظمها أبطلها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفتك بالهزم ، ووصف الأعشى صاحبه

بالخرق .

(٣٠) نقة الشعير ص ٩٩ وما بعدها (الدلاص : الدرغ النساء البينة

أجاد المرىء : صانعها الماهر - القتيير : رؤوس مسامير الصلوع . .

الفرم الأشم : ارجل و المكانة العالية - وكثير من الشعراء العذريين

المشهورين توفى سنة ١٠٥ هـ .

ويعلق قدامة على ما دار بين عبد الملك وكثير فيقول :

وامدى عندي في ديت ان عبد الملك أصبح نظرا من كثير ، الا ان
يكون كثير غلط واعتذر بما يعمد حلاله لانه قد تقدم من قوسا في
المباينة أحسن من الاخصر على الأمر الوسط بما فيه كفايه ، ولا شئ
بالغ في وصف الشجاعة ، حيث جعل انشجاع شديد الاندام بعصر
جه ، على أنه و ن كان لبس الجنة أولى باحرم وأحق بالصواب بمعنى
وصف الأعنى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه لأن الصواب له .
ولا لغيره الا لبس الجنة . وقول كثير بعصر في الوصف (٣٠) .

ولعبد الملك نظرات في شعر الغزل ، وفيها ينبغي أن يدون عليه
وقد حيت باهتمام الكثيرين من نقادنا وأخذوا يفسرونها بالتفسير
والتحليل .

وها هو ذا عمر بن أبي ربيعة وقد جعل من عزله متفكسا خصب
للتعبير بما عجز عنه في ميادين البطولة والاقدام ، فهو بطل معوار ،
وأمر مؤمر ، وقمر ساحل في دنيا المعجبات ، اختونات اللاتي يصرنه
ويتمنين و ، والتضرع اليه لأنه شغف قلوبهن ، وسيطر على
جوارحه ، وشعره الغزالي يدور في جملة حول هذه المعاني وذلك نلى
شاكلة قواه واصفا حسب ادعائه — بعض من وقع في غرامه حالة
رؤيتن له (٣١) :

بينما يذكر نفسي أبصرني

دون قيد الميسل يعدو الى الأغصان

فسالت الكيسرى : أتعرفن الفتى ؟

قالت الوسطى : نعم هذا عمر

(٣١) ذيل الأمل والنوادر ص ٦٦ وما بعدها (شريت : يقال

شرى حمله أى حاح عليه الشرى . وهو شور صفار حمر حكاكة مكره

تحدث دنعة واحدة وتشتد ليلا لمخار حار يشور في البدن) .

قالت الصغرى : وقد تيمتها
 قد عرفناه وهل يخفى القمر
 ذا حبيب لم يخرج دوننا
 ساقه الحين الينا والقدر
 فأتانا حين ألقى بركه
 جميل الليل عليه واسطر
 ورضاب المسك من أثوابه
 مرمز الماء عليه فنضر
 قد أتانا ما تمنينا وقد
 غيب الأبرام عنا والقدر

فعمر كما في الأبيات جعل نفسه معشوقا لا عاشقا وأعطى لنفسه
 من الصفات ما ينبغي أن تعطى للنساء ، ولهذا وجدنا به الملك
 ابن مروان يعجب بعمير ويزيد له في العطاء حينما سمع نه عكس
 ما اشتهر به ، فها هو ذا يعبر بن وجد بمحبوبته أضناه وجعله يتمنى
 لقاءها حتى ولو كنت في جهنم ، وذلك حينما اجتمع مع كثير عزة ،
 وجعل بثينة بباب عبد الملك ، فأذن لهم — فدخاوا — فقل أنشدوني
 فرق ما قلتم في الغواني ، فأنشده جميل :

حلفت يميننا يا بثينة صادقا
 فان كنت فيها كاذبا فعميت
 اذا كان جلد غير جلدك مني
 وبأشرفى دون الشعار شريت
 ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى
 بمنطقها في الناطقين حييت

وأنشد كثير عزة :

بأبى وأمى أنت من مظلومة
 طبن العدو لها فغير حالها
 لو أن عزة خاضعت شمس الضحى
 في الحسن عند موفق لقضى لها
 وسعى إلى بصوم عزة نسوة
 جعل الملك حدودهن نعالها
 وأنشد عمر بن أبي ربيعة :
 ألا ليت قبورى يوم تقضى منيتى
 بتلك النى من بين عينيك والشم
 وليت طهورى كان ريقك كله
 وليت حنوطى من مشائك والدم
 ألا ليت أم الفضل كانت قسريتى
 هنا أو هنا فى جنّة أو جهنم
 فقال عبد الملك لحاجبه احط كل واحد منهم ألفين ، واعط صاحب
 جهنم عشرة آلاف (٣٢) .

وما أعجب به عبد الملك هو ما دعى إليه كثير من نقادنا ممن أتوا
 بعده فالغزل عندهم - « هو ما كثرت فيه أدلة عن التهاك في الصباية
 وتظاهرت فيه المشاهدة إلى إفراط الوجد والمروعة ، وما كان فيه من
 التصايب والمرقة أكثر مما يكون من المحسن والجلادة ، ومن الخشوع

(٣٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٧٣ وما بعدها (الحق : المحنة

- البراك : صدر البعير أو ما ولى الأرض منه - اسبطر : امتد - مرمر الماء

جعلته يمر على الشئ - الأبرام : جمع المرم وهو السامة والضجر -

القندر : ابتعاد المرأة عن الرجال .

والذلة أكثر مما يكون فيه من الآباء والمعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضد التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة (٣٣) •

ومما يدعو الى إعجاب أن عبد الملك كان يتمتع بحسن ذوق وبصر فنى نحو أبحاث اللفظة فى نسقها الشعرى فاق إحساس وبصر كبار الشعراء •

وها هو ذا جرير يقول معرضا بتغلب ومحاولا استعداء عبد الملك على الأخطل لشاعر التغلبى فيقول :

ان الذى حرم المكارم تغلبا
جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم
يا آل تغلب من أب كائنا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة

لو شئت ساقكم الى قطينا
فيقول عبد الملك معلقا على شعره : ما زاد على أن جعلنى رجلا
شرطه ، ولـ قال : لو شاء سافكم الى قطينا لفعلت (٣٤) •

وفى هذا تعليق مـ يدل على حس أدبى لاقط ، وتصدق فنى رائع ، حيث تخلص من وقية أرادها جرير يذهب ضديتها الأخطل لشاعر عبد الملك المفضل ، وكسب رضا الشعراء ، هذا فضلا عن وضعه لجرير فى دائرة الحرج وعدم التوفيق فى مراعاته لآداب مخاطبة أصحاب السلطة والثروة •

(٣٣) نقد الشعر ص ١٧٣ والعمدة ج ٢ ص ١٠٠ وما بعدها

والصناعتي ٩٧ وما بعدها •

(٣٤) راحة الشعر ص ٣٢ دـ مصطفى الشكعة •

ومن هذا النبيل — أيضا — ما كان من جرير حينما تدخل على
عبد الملك فأنشده قصيدته أنتى مطلعها :

أصبحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

قال له : بل فؤادك يا ابن الفاعلة ، كأنه استقل هذه الأوجه (٣٥)
وينشده الأخطل مصيغته الرائية التي يمدحه بها فيقول بادئا :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا ...

فقال له : بل منك ان شاء الله ، فعاد الأخطل وغير المطلع بقوله :
« خف الطن فراحوا اليوم أو بكروا » (٣٦) .

ويقال دو الرمة دلى عبد الملك فينشده قصيدته البائية في مدحه
بادئا بقوله :

ما بل عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى منرية سرب

— واثبت بعين عبد المستريسة وهي تدمع ابدا — فقال له : وما
سؤالك عن هذا يا جهل ، واهر بإخراجه .

ومن الأحرى بهؤلاء اسعراء ألا يغفوا في هدايتهم لعبد الملك
ما يتنعم به من تذوق مرهف واحساس دقيق بايحاءات الألفاظ
والتراكيب ، وهدى مواءمها لمتطلبات المقام .

لن من يدري طلع ما حث منهم أو من هم على شاكتهم ممن
وقعوا في حرج أمام نفحات عبد الملك كان مقدرا ليساهم في استشف
عن مائة غنية رفيعة عند عبد الملك كان لها دورها البارز في ازدهار الأدب
بعامة والشعر بخاصة في عصره وكذلك بعد عصره ، حيث حرص

(٣٥) المعلة ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣٦) الكوشح للمرياني ص ٢٤٦ .

الشعراء المنكسبون والفاطرون بلسان بنى أمية على أن يهتموا بتجويد عباراتهم واختيار الفاظهم وتنخل معانيهم مادام في ذلك إرضاء للملك الخليفة واشباع لرغباتهم في تكوين ثروات طائلة من تلك الأعطيات والجوائز التي لا يضمن بها الخليفة على المجيدين منهم .

وليس بخاف على أحد من المنشغلين بالأدب وتاريخه أن الأخطل كان شاعر بنى أمية يمدحهم ويتقرب اليهم منذ معاوية بن أبى سفيان واتخذه يزيد بن معاوية نديما له ، فكان يرافقه ويلزمه حتى في الحج الى البيت الحرام (٣٩) ، الا أن الأخطل لم يأت بالروائع الشعرية الا في عصر عبد الملك ، وقصيدته التي مدحه بها بعد فتحه العراق وانتصاره على مصعب بن الزبير « خف القطين » طارت شهرتها في الآفاق حتى أنه ليروي « أن عبد الملك قال له حين أنشدتها : ويحك يا أخطل أتريد ان أكذب الى الافاق أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : اكتفى بقول أمير المؤمنين ، وأمر عبد الملك له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعا وخرج به ، وأمر لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ... هذا أشعر العرب (٣٩) .

واذا كان جرير قد اشتهر بأبيات أربعة فان أحد هذه الأبيات قوله في مدح عبد الملك :

أستتم خير من كب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

وحسب عبد الملك أن يكون من بين الذين التقوا حوله ينطقون بلسانه ويشيدون برغباته فرسان الشعر وأربابه آنذاك — جرير والفرزدق، والأخطل — باتفاق الكثيرين من أهل الأدب يقول الأصفهاني :

(٣٧) العمدة ج ١ ص ٢٢٢ والتفسير للأدب ص ٩٢ .

(٣٨) الأغاني دار الكتب ج ٨ ص ٣٠١ .

(٣٩) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٨٧ .

« جرير والفرزدق والأحضر المقدمون على شعراء الاسلام الذين لم يدركوا لجاهلية جهيما ، ومختلف في أيهم المتقدم ، ولم يبق أحسد من شعراء عصرهم الا تعرض فدفنح وسقط ومقرا يتصاوأون » (٤٠) .

وطبيعى أن يكون ما حرص عليه شعراء ابن مروان على احتلاف مشاربهم من الجودة في أشعارهم هو ما حرص عليه شعراء الأحزاب المعارضة من شبيمة وخوارج وزبيريين تدفعهم في ذلك رغبة التفتت في التأثير على جمهور المسلمين بما يروجون لأحزابهم من ناحيته والاعتداد بقدراتهم الشاعرة من ناحية أخرى .

ولم يحل حرص الشعراء على الجودة من كثرتهم آنذاك كسره لم تعود من ذى قبل . وها هو ذا جورجى زيدان يقسم عصر بنى أمية بانظر الى أشراض شعرائه الى ثلاثة أدوار ، وفي حديثه عن الدور الذى يشير الى تميز عهد عبد الملك بكثرة شعرائه وكثرة النسابين فيهم دون سائر عهود خلفاء بنى أمية فيقول :

وحلفاء هذا لدور : مروان وأبيه عبد الملك . فالوليد ، فسلیمان ، فعمر بن عبد العزيز . ولذن معظمه في زمن عبد الملك بن مروان بحيث يصح أن ينسب اليه . . . فيقال « دور عبد الملك » وفي أيامه اختلفت الأحزاب وتعدد طلاب الخلافة ، ونشبت الحروب ، وراجت سوق الشعر لجمع الأحزاب أو تفريقها ، وأكثر شعراء العصر الأموى نبغوا في هذا الدور وبلغ عددهم فيه نحو المائة » (٤١) .

ولا يخفى ما كان لشغف عبد الملك بوقوع الخصومة الشعرية بين الشعراء من دور معار آنذاك في اثراء الحركة الشعرية ونهضة وانشغال الجماهير به . — ويرى أن جريرا دخل عليه والأخطل عنده . وكاننا قد تهاجيا ، ولم يلتقيا ، فقال جرير للأخطل : من أنت ؟ فقال :

(٤٠) الأغنى ج ٧ ص ١٧٣ .

(٤١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٣ .

أنا الذى منع نومك . وهضم قومك ، فقال له جرير : داك أشقى لك ،
ثم أقبل جرير على عبد الملك ، فقال : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فضحك
وقال : هذا الأخطل يا أبا حذرة ، فقال جرير : أئذن لى يا أمير المؤمنين
فى ابن النصرانية ، فقال : لا يكون ذلك فى مجلس ، فوثب جرير
مغضباً فقال عبد الملك : قم يا أخطل ، واتبع صاحبك ، فاما قام غضباً
علينا منك ، فنهض لأخطل ، فقال عبد الملك لخادم له : انظر ماذا
يصنعان اذا برز الأخطل (٤٢) .

ويبدو أن عبد الملك كان حريصاً على أن تبقى دولة الشعر نابضة
بالحيوية والحركة معه — أيضاً — والنظر لكتب الأدب وتاريخه
الى التراثيين يرى أن عبد الملك كان يرغب أبناءه فى التعلق بالشعر
ويسمعهم منه ما يتفق مع المقام ويدفعهم الى أن يسمع منهم هو الآخر
» وقد حدث أن سابق بين ابنيه سليمان ومسلمة ، وكان من أبناء
الاهاء فسبق سليمان مسلمة فقال عبد الملك :

ألم أنهمكم أن تحملوا هجاءكم
على خيلكم يوم الرهبان فتدرك !
وما يستوى المرء ان هذا ابن حرة
وهذا ابن أخرى ظهرها متدرك
وتضعف عضداً ويقصر سوطه
وتقصر رجلاه فلا يتدرك
وأدركه خالاته فنزعته
الا أن عرق المسبوء لاد يدرك

ثم أقبل عبد الملك على مصقلة بن هبيرة الشيباني فقال : أقدري
من يقول هذا ؟ قال : لا أدري ، قال . يقولاه أخوك الشنى .

قال مسلمة : يا أمير المؤمنين ما هكذا قال حاتم الطائي ، قال
عبد الملك وماذا قال حاتم ؟ فقال مسلمة : قال حاتم :

وما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلة
ولا كلفت خبزا ولا طبخت شذرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا
فجاءت بهم بيضا وجوهم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية
إذا لقي الأبطال يطعنهم شسرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه
فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
أغر إذا اغبر اللثام رأيتـه
إذا ما سرى ليل الدجى قمرا بدرا

فقال عبد الملك :

« وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تمحيصنا » (٤٣)

وقد نجح عبد الملك فيما أراد لأبنائه ولدولة الشعر على أيديهم
حيث بلغ من حبهم للشعر وتعلقهم به تذوقا وحفظا أن كانوا يتنافسون
فيما بينهم من أجل تفضيل شاعر على شاعر أو معنى على آخر . . .
وها هو ذا الوليد من عبد الملك ومسلمة أخوه (٤٤) - ويتشاجران في
شعر امرئ القيس والتابع في طول الليل أيهما أشعر ، فقال الوليد :

(٤٣) المعتمد العريذ ج ٧ ص ١٤٢ وما بعدها .

(٤٤) النقد الأدبي : أصوله ومناهجه ص ١٦٢ .

الذبيعة أشعر ، وقال مسلمة : بل امرئ القيس ، عرصيا بالشعبي
فأحضراه ، فأنشده الوليد للذبيعة :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقماسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النجوم بأيب
وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب
وأنشده مسلمة لامرئ القيس :

وليل كموج البحر أوحى مسدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له ما تمطى بردفه (٤٥)
وأردف أعجازا وناء بكليل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل
بصبح وما الاصبح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه
بكل منار الفتى شددت بيذيل

عطرب الوليد طرب ، مقال لشعبي : بانت القضية ، معنى قول
الذبيعة : وصدر أراح الليل عازب همه ، وأنه جعل صدره مراحا
للهموم ، وجعل الهموم كالنعم اسارحه الغانيه ، تفرح بهرا ثم تأتي
الى مكانها ليلا وهو أول من أشقار هذا المعنى . ووصف ن الهموم
مترادفة بالليل لتقيد الألفاظ عما هي مطلقه فيه بالنهار . وصدق
بنصرف اللحن عن استعمال القدر . و مرئ القيس كره أن يقول أن الهموم

(٤٥) الرواية المشهورة : ما تمطى بصلبه .

يخف عليه في وقت من الأوقات فمن وما لأصبح منك بأمثل • وقال
الطرماح بن حكيم الطائي :

ألا أيها الليل الطويل ألا أصبح

بيوم وما لأصبح منك بأروح

ولكن للعينين في الصباح راحة

لطرفتهما طرفيهما كل مطرَح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعتاه ، وزاد فيه زيادة اغتقر له معها
فحس السرقة ، وإنما تدبه عليه من قول النابغة ، إلا أن النابغة كروح
وهذا صرح •

ويذهب بعض الباحثين إلى أن مسلمة بن عبد الملك هو الذي أعاد
« فن » الحكمة إلى الشعر وزاوله في آخريات القرن الأول الهجري ،
وهذا بطبيعة الحال يخالف ما كان يجمع عليه مؤرخو الأدب العربي من
أن الشعر لم يطرق الحكمة ولا زاولها بعد زهير وطرفة بن العبد إلا في
آخريات القرن الثاني الهجري • حيث كان يعيش بشار الذي كان في
تقدير — مؤرخي الأدب العربي — أول من ظهرت الحكمة في شعره
في مستهل العصر العباسي ، وأن في الزهد والحكمة إنما ازدهر عند
أبي المعتاهية (٤٦) •

وإذا كانت الحاسة الأدبية عند عبد الملك قد لعبت دورها البارز
في ازدهار الشعر ورواجه فامها لعبت — أيضا — دورا نشطا في تثبيث
دعائم ملكه والتغلب على سائر الأحزاب السياسية وحركات التمرد
المعارضة لبنى أمية •

فإذا ما كان عبد الملك حافظا لشعر وعارفا بأخبار بيوتات العرب
لم لا يذكرهم بما قيل فيهم من شعر ويشجعهم على الانسغال
بما أثرهم وما قيل فيهم من أشعار — في وقت عادت فيه العصبيّة

(٤٦) مسلمة بن عبد الملك : حياته العسكرية والأدبية ص ٩٦ .

القبالية أقوى مما كانت عليه في الجاهلية — بدلا من أن يشغلوا بما
يفسد عليه أمره ، وبخاصة إذا ما كانوا من هؤلاء الذين يتقفون بحساب
معارضة ، أو الذين يميلون مع الريح حيث تميل ؟

وها هو ذا عبد الملك وقد دحس الكوفة بعد نيل مصعب بن الزبير ،
يدعو الناس الى البيعة ، فتقدم اليه معشر عدوان ، وفي ذلك يقول معبد
العدواني - فقدمنا اليه رجلا وسيما جميلا وتأذرت — وكان مسند
دميما — فقال عبد الملك : من ؟ فقال الكاتب : عدوان ، فقال عبد الملك

عذير الحى من عدوا

ن كانوا حبة الأرض

بغى بعضهم بعضا

فلم يرعوا على بعض

ومنهم كانت السادا

ت والموفون بالقرض

ثم قال على الجميل : فقل : ايه ؟ فقال : لا أدري ، فقلت من
خلفه :

ومنهم حكم يقضى

ومنهم من يجبر الحج

وهم مذ ولدوا شجوا

فلا ينقض ما يقضى

بالسنة والقرض

بسر النسب المحض

قال : فتركتى عبد الملك ، ثم أقبل على الجميل فقال : من هو أقوال :

لا أدري ، فقلت من خلفه : ذو الاصبع ، قل : فأقبل على الجميل ،

فقال : ولم سمى ذا الاصبع ؟ فقال : لا أدري . فقلت من خلفه لأن حية

عصت اصبعه فقطعتها فأقبل على الجميل فقال : ما كان سمه ؟ فقال :

لا أدري فقلت من خلفه . حرثان بن الحارث ، فأقبل على الجميل

فقال : من أيكم كن ؟ قال : لا أدري ، فقلت من خلفه : من بنى ناج ،

فقال :

أبعد بنى ناج وسنعميك بينهم
 فلا تتبعن عينيك ما كان هالكاً
 إذا قلت مبروفا لأصلح بينهم
 يقول وهيب : لا أصلح ذلكسا
 فأضحى كظهر المعير جب سنامه
 تطيف به الولدان أحسب باركا

ثم أقبل على الجميل، فقال كم عطاؤك ؟ قل : سبعمائة، فقال نى :
 من كم أنت ؟ قلت فى ثلثمائة * فأقبل على الكاتبين ، فقال خط من
 عطاء هذا أربعمائة وزيداهما فى عطاء هذا ، فرجعت وأنا فى سبعمائة
 وهو فى ثلثمائة (٤٧) ، وما كان من عبد الملك مع وفد عدوان على سبيل
 الاستدلال لا الحصر .

ود أدرك عبد الملك بحسه الأدبى ما طرأ على المجتمع آنذاك من
 من تحول لا يستهان به فى مجال التأثير الفكرى والعاطفى بما يسمى من
 من أشجار الشعراء حول الخلافة والجديرين بها ، لذا لم يأل جهداً فى
 استقطاب الشعراء وانزع ألسنتهم من ساحات الأحزاب المعارضة
 أملاً فى أن يضيفوا إليه وللأمويين بعمامة كسبا أعلامياً يعمل على
 تثبيت ملكهم واستقراره . وكان لعطاء عبد الملك وهباته المسخية أثرها
 من هذا الاتجاه ، وبخاصة مع معظم شعراء الزبيريين أن لم نذكر
 جميعهم ، وذلك لتضييق عبد الله بن الزبير عليهم وإغفاله من مصانعتهم .

ومما هو جدير بالذكر أن عبد الملك بن مروان أشار الى ما كان
 لعطاياه وانتشاف الشعراء حوله من أثر قوى فى استقرار حكمه وقدرته
 على التفوق سياسياً فى إدارة شؤون الخلافة ، وأن ابن الزبير كان
 هوئله ليعذله ، عدم مصانعته للشعراء ، والراغبين فى الأموال وبريقها ،

وذلك حينما سمع قول أعشى بنى شيبان يمدحه .

عرفت قريش كلها	لبنى أبى العاص الأماره
لأبرها وأحقها	عند المشورة بالاثارة
المانعين لها ولوا	والنافعين ذوى الضراره
وهم أحفهم بها	عند الحلاله والمراره

فقال معقبا ما أعلم مكان أحد أهوى على هذا الأمر منى . وإن ابن الربير لطويل لصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائما (٤٨) .

لدا لا نعجب أن نسمع من شاعر مثل أبى العباس الأعمى هجاء مرا للزبيريين في موطن خلافتهم ومقر حكمهم « مكة » وذلك على نحو قوله هاجيا بنى أسد « عشيرة آل الزبير » بعد أن نفاها عبد الله بن الزبير الى الطائف ، وكان قد علم باتصاله بالأمويين ومدحه لهم :

بنى أسد لا تذكروا الفخر بينكم
منى مسذكروا تكذبوا وتقدموا
منى تسألوا فضلا تضلوا وتبخلوا
ونيرانكم فى الشسر فيها تحسرق
إذا استبقت يوما قريش خرجتم
بنى أسد سكتا وخر المجد يسبق
تجيئون خلف القوم سودا وجوهكم
إذا ما قريش للأضياع أصفتوا
وما ذاك إلا أن القوم طابعوا
يلوح عليكم ومسمه ليس يخلق

وواضح من الأبيات أن الشاعر اتخذ من البخل مادة لهجاء ...
الزبيريين، وأنه دفع إلى ذلك بما أعدق عليه من عطايا الأمويين وهبتهم
تلك التي جعلته يتجاوز الزبيريين في هجائه إلى الشيعة ، وذلك على
نحو قوله لابن الطفيل عامر بن وائلة وكان شيعيا :

لعمرك أنتى وأبا طفيل

لخلفان وائمه الشهيد

لقد ضلوا بحب أبي ثراب

كما ضلت عن الحق اليهود

وكان عبد الملك بن مروان يميل إلى هجاء أبي العباس للزبيريين
... ورهيه لهم بالبخل حتى ينصرف عنهم الأعوان والمساعدون ممن
كانوا يجعلون العطاء هدفاً لهم الأسمى ، وقد حدث أن ابن الزبير
كسبني أسد وأحلافها ولم يكس أب العباس فقال :

كست أسد اخوانها ولو أننى

ببلدة احوائى اذ لكسيت

فلم تر عبنى مثل حى تحملوا

إلى الشام مظلومين منذ برئت

فلما حج عبد الملك عقب استيلائه على لحجاز استنشد هذه
الأبيات ثم أوحى إلى الناس أن يحلوا إليه ففعلوا حتى اجتمع له من
طال الوصى والخز قدر ضخم وأمر له بعد ذلك بمال عظيم (٤٩) .

ولقد بلغ من حرص عبد الملك على استقطاب الشعراء وانزعاج
السنقة من معارضتهم أنه كان يرسل إلى ناعطايا لورثة الشعراء الذين
كانت لهم مواقف في الاشارة ببني أمية ولم تصلهم عطاياهم .

وفي قصده مع أبنائه فضله بين شريك ما اكتشف لنا من عهد الأعراف :
 لدور الشعر في توجيه الأئمة و لقلوب ، وترين مدى الفسار بينه
 وبين عبد الله بن الزبير في التعامل مع الشعراء — وكان فضاله بين شريك
 قد وفد على عبد الله بن الزبير الذي تربطه به صلة رحم وقال له :
 قدمت نفسي ، ونقبت راحلتي ، فقال ابن الزبير له : أحضرها ، فأحضرها
 فقال : أدبر بها ، أفبل لها ثم أرقعها بسببته ، وحققها بها ، وأنجد بها
 ببرد خفيها : وسر بها الجردين تصح ، فقال فضاله : أنتك مستحسلا ،
 ولم أنك مستوصفا ، قلن الله ناقة حملتني إليك ، فقال عبد الله : إن
 وصاحبها ، فتركه وأنشد :

أقول لعلمتي شذوا ركبى
 أجاوز بطن مكة في سواد
 فما لي حين أقطع ذات عرق
 إلى ابن الكاهلية من معاد
 بيعد بيننا نص المطايا
 وتعليق الأداوى والمزاد
 وكل معبد قد أعملته
 مناسبهم طسلاع النجماد
 أرى الحاجات عند أبي حبيب
 نكسون ولا أمية في البلاد
 من الأعياض أو من آل حروب
 أغمر كفيرة الفرس الجواد

قال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : علم أنها شر أمهاتى فعيرنى
 بها وهى خير عماته .

ولما تم الأمر لعبد الملك أرسل في طلب غصالة فعرف أنه مات ،
فأرسل إلى ورننه عددا حجا من الأبل يحمل تهر وتمر (٥٠) ، وذلك
تقديرا لاشادة عضادة بالأمويين وسهرينه من ابن الزبير سحرية لادعة.
وكان مما قاله في انشاده أيضا (٥١) :

شكوت اليه أن نقبت قلوبى
فرد جواب مشدود الصفاد
يضمن بثاقبة ويسروم ملكا
محال ذلكم غير السداد

وأذا كان الشعراء الشيعة يعتدّدون في مدحهم لآل بيت رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - على لطابع الدينى - لالتفاف جمهور
المسلمين حولهم والمعل على نصرتهم - فهم أولى الناس باهامة
المسلمين ، وهم الورثة الشرعيون لرسول الله صلى الله عليه وسلم -
في هداية الناس ، وكذلك كان الخوارج - يصعدون في شعرهم عن
حماسة دينية فهم جماعة آمنوا بعقيدتهم ، واعتقدوا أن المسلمين ضلوا
سواء السبيل ، أما هم فعلى الصراط المستقيم الذى تريده العناية
الالهية (٥٢) - وشعراء الزبيريين يتعنّون بالصلوات التى تربط بين

(٥١، ٥٠) الأغاني - دار الكتب ج ١٢ ص ٧١٣ وما بعدها - السبب
- بكسر السين : الجلد المدبوغ - الحصف : المراد به شد الحذاء المصنوع
من السبب إلى خف الناقة بحيط مصنوع من الشعر اليلب يصم الهواء ؛
الشعر - أنجد بها - يسر فى الطرق المرتفعة - ان : بمعنى نعم - الكاهل
أحدى أمهات ابن الزبير - أبو حبيب : كنية عبد الله بن الزبير لم أراد
دمه - الأعياص : خمسة من أبناء أمية هم : العاصى وأبو العاصى وأبيهم
وأبو العيص والعويص - نقب الشعر إذا حنى ورقته اخذاه - القلوصى : الناقة

(٥٢) استؤر والتجدد فى الشعر الأموى ص : ٩١ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وابن الزبير ، فالزبير ابن عمه
النبي - صلى الله عليه وسلم - صفية بنت عبد المطلب ، وابن أخ خديجة
أم المؤمنين ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، والمشهورين بالبراس
والإقدام شهد بدر وسائر الغزوات ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم
- يدعو حواريه ، فدعاه المسلمون حواري رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين
اختارهم عمر لا تخبروا خيفة من يديهم ، وابن الزبير بن السيدة أسماء
بنت أبي بكر ذات النطاقين ، وأخت عائشة ، وكثيرا ما كانت تدعوه
مابنها (٥٣) •

فلم لا يوجه عبد الملك شعراءه إلى مزج ديدهم بما يصفى على
شخصه وحكمه بريئا من المقداسة المستهدفة من رعاية الله له ، حتى ولو
كان الأمر غير ذلك رغبة منه في ألا يدع فكرة اعلامية لشعراء الأحراب
الأخرى ينفردون بها دون شعرائه • ولهذا وقع من نفسه موقعا حسنا
ما عال به الباحث الأستاذ طه أحمد إبراهيم أعجاب عبد الملك بقول
ابن الرقيات مادحا مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من الالـهـ تجلت عن وجهه الظماء

وعدم اعجابه بقوله فيه مادحا :

يأتلق النجاج فوق مؤرقه على جبين كأنه الذهب

حيث يقول معللا : ان البيت لم يقع موقعا حسنا من نفس عبد الملك
لأنه يدل في مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامه • بل لأن بين
البيتين بونا شاسعا في الجمال والقوة والروح لأن بيت ابن الرقيات في
مصعب أروع وقعا وأعلى نفسا ، وأمس بالنور العاوي ، وأشد

اتصالا بالله ، الذى يحرص الخلفاء على أن يمثلوه فى الأرض • لهذا وحده • عتب عبد الملك على الشاعر (٥٤) •

ولعل من أسباب إعجاب عبد الملك بقصيدة الأخطل التى مدحه بها وجعله من أهلها شاعر المومنين ، والتى بدأها بقوله : « حف الفطيين » أن الأخطل جمع له فيها من الصفات التى كان الجاهليون يفاخرون بها — تالحلم والشجاعة والنجدة والكرم ونبر المحند وما إلى ذلك — وبين المعانى الأدبية التى دار مديح شعراء الأحزاب المناوئة حولها ، فهو امام يستهد سلطانه من الله — عز وجل — وليس لأحد أن ينازعه حقه الالهى فى الخلافة ، وذلك على شاكلة قوله :

الى امام تناديننا فواضله
أخفرد الله فليهنى له الظفر
الخنض الغمر واليمون طعمه
خليفة الله يستسقى به المطر
وما الفرات اذ جاشت غواربه
فى حافتيه وفى أوساطه العشر
وززعته رياح الصيف واضطربت
فوق الجأجىء من آذيه غدر
مسحقر من جبال الزويم يستره
منها أكتف فيها دونه زور
يوما بأجود منه حين تسأله
ولا بأجهر منه حين يجتهر (٥٥)

(٥٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى الى القرن الرابع ص ١٣٨ وما بعدها •

(٥٥) دواى الأخطل ص : ٩٩ وما بعدها •

وها هو ذا الفوزدق يمدح عبد الملك فيجعل منه خليفة الله على الأرض شأنه في ذلك شأن خلفاء بني أمية جميعهم ، لأنهم ورثوا الخلافة عن عثمان - رضى الله عنه - لذا فالله ناصرهم ، وخاذل كل من يطمع في الخلافة سواهم فيقول :

فالأرض لله ولا لها خليفة
 وصاحب الله فيها غير مغلوب
 بعد الفساد الذي قد كان قام به
 كذاب مكة من مكر وتخريب
 راموا الخلافة في غدر فأخطأهم
 منها صدور وفازوا بالعراقيب
 والناس في فتنة عمياء قد تركت
 أشرافهم بين مقتول ومحروب
 وثموا ليستخلف الرحمن غيرهم
 والله يسمع دعوى كل مكروب
 تراث عثمان كانوا الأواباء به
 سريال ملك عليهم غير مساوب (٥٦)

وجدير يجعل من عبد الملك أمينا لله في أرضه ، فهو يقرأ القرآن ، ويلتزم بأحكامه وتطبيق مبادئه بين الرعية ، ولولا عبد الملك لضاعت أحكام الإسلام ، وانهارت هبة المسلمين ، وعبد الملك ليس بدعا في ذلك ، فهو سليل المروانيين الفضلين عند الله على سائر خصومهم فيقول :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه
 ما قام للناس أحكام ولا جمع

أنت الأمين أمين الله لا سرف
 فيما وايت ولا هياية ورع
 أنت المبارك يهـدى الله شيعته
 اذا تفرقت الأهواء والشيع
 فكل أمر على يهن أمرت به
 فينا مطاع ومهما قلت يستمع
 يا آل مروان ان الله فضلكم
 فضلا عظيما على من دينه البـدع (٥٧)

وواضح من النماذج السابقة أن الشعراء الأمويين لم يكفوا
 بإضفاء حياء من القداسة والروحانية على عبد الملك وقومه وإنما رموا
 رءماء الأحراب الأخرى بالفساد ولعبث ، ويقتهم وقفوا عند حد
 عبد الملك ، وإنما تجاوزوه الى أبنائه من بعده في صور لا تخلو من
 المبالغة الموقونة ، وذلك على نحو مدح الفرزدق ليزيد بن عبد الملك
 قائلا :

ولو كان بعد المصطفى من عباده
 نبي لهم منهم لأمر العزائم
 لكنت الذي يختاره الله بعـده
 لحمل الأمانات الثقـال العـزائم
 ورثتم خليل الله كل خزانة
 وكل كـتـاب بالنـبـوة قـائم
 وحبك حبيل الله من يعتصم به
 اذا ناله يأخذ به حبيل سالم (٥٨)

(٥٧) ديوان جرير ص : ٣٥٠ .

(٥٨) ديوان الفرزدق ص ١٢٩ .

وفي هشام بن عبد الملك يقول جرير مادحا :

الى المهدي نـفـر عـ ان فرغنا
ونستسقى بـغـرته الغماما
وحبـل الله تعمـمكم قـواء
فـلا نحـشى لـعـسـرته أنفـصـاما
رضينا بالـخـلفـة حـين كـنا
لـه تـبـعا و كان لـنا اـمـامـا
تبـاشـرت الـبـلـاد لـكم بـحـكم
أقام لـنا الفـبـرائض واسـتـقاما (٥٩)

وليس ببعيد أن تكون مثل هذه المبالغات هي التي دفعت
بن الحشوية الى القول : أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أندادا
من دون الله نحن وبنو عهنا هؤلاء يعني بنى أمية (٦٠) .

على أن هذا المزج في تسمية المدح جعلها تتخذ طابعا سياسيا
برغم دن شأن المدوح أما خصومه الذين لا مسلمون فيها من رعيهم
بتجاوز أمر الله به بعد نظرا لا يستهان به في قصيدة المديح ، ولا نعدو
الحقيقة اذا ما قلنا : ان عبد الملك بحاسته الفنية وادراكه لرسالة
الشعر كان من وراء هذا التطور .

وإذا ما أراد عبد الملك عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد
والمبايعه بها لأبيه الوليد فبأي شيء يمهّد حتى لا نشور ثائرة المتعاضدين
مع أخيه من المروانيين وغيرهم ويأمن سحق الناس ان لم ينل تأييدهم
ومباركتهم لما نريد ؟ انه لا شيء سوى الايعاز الى شعرائه بالدعوة
الى ما يهدف اليه ، وما هي ذي الرغود نقب عليه ، وينجري شعراؤها

(٥٩) ديوان جرير ص ٥٠٥ .

(٦٠) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٦٨ .

طالبين المبايعة للوليد ، غير انهم من غير واكلما في توجيهه لأمور
المروية حرصا منه على جمع لشمل وراب الصدع أسوة بأبيه ، ومن
يدري فقد يحدث للرعية ما لا يحمد عقبا على أيدي عبد العزيز
وأبنائه ان بقي وليا للعهد ، وحول هذه المعنى يدور عمران بن عاصم
وقد وفد في جماعة من قومه على مجلس عبد الملك فيقول :

أمير المؤمنين اليك نهدي
على ألقاى التحية والتسلا
أجبتى في بنيتك يكن جوابى
لهم عاديه ولنا قوامنا

فلو أن الوليد أطاع فيه
جعلت له الخلافة والذماما
شبيبك حول قبة قریش
به يستمطر الفناس الغماما

ومثلك فى التقى لم يصب يوما
لدى حلق القسلائذ والذماما
فان مؤثر أخاك بها فانا
وجندك لا تطيق لها اتها
ولكننا نصادر من بنينا
بنى العسلات مائة سماما
ونخشى ان جعلت الملك فيهم
سحابا أن تعود لهم جهاما (٦١)

ولم يقتصر أمر الدسوة على شعراء الوفود ، وإنما ساهم فيها
اشعراء على وجه العموم ، وها هو ذا عبد الله بن المارق ، نابغة

« بنى شميان » على سبيل المثال - وكان نصرانيا - يدخل على
عبد الملك • وكن مجلسه حافلا بالناس فكان مما قاله :

آليت جهدا وصادق قسما
يرب عبد تجنه الكرح
يظل يقاتل الأجيل يدرسه
من خشية الله طمح
لابنك أولى بملك والده
ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته
ثم ابن حرب فاتهم نصحو
وهم خيـار فاعمل بسنتهم
واحي بخير واكـدح كما كدحوا

فتبسم عبد الملك ، ولم يتكلم في ذلك باقرار ولا دفع ، فعلم
الناس أن رأيه خلع عبد العزيز (٦٢) •

ومادام الشعراء في بلاط عبد الملك يشبعون كثيرا من رغبات حسه
الفنى وبعده السياسى فلم لا يوسع لهم صدره ويجدون عنده والتهم عليه،
فقد يكشفون له من أمور الرعية ما دق أمره وخفى عنه ، وهم أقدر
الناس على التقاط أحاسيس الجماهير ومشاعرهم ؟ وقد حدث
كل هذا •

وما هر ذا الأخطل يدخل على عبد الملك بغير إذن وعليه (الأخطل)
جبة خز وفي عنقه سلسلة ذهب بتدلى منها صليب من ذهب وتتفص
لحيته خمرا (٦٣) • ويروى - « أنه دخل على عبد الملك فاستثبده ،

(٦٢) الأغاني / مساس / ج ١٦ ص ٥٨ •

(٦٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٤ •

فقال : قد ييسر حلقي خمر من يسقيني ، فقال : اسقوه ماء ، فقال :
هو شراب الحمار وهو عذفا كثير ، قال : فاسقوه لنا ، قال : عن
الابن قد فظمت ، قال : فاسقوه عسلا ، قال : شراب المريض : قال :
فتريد ماذا ؟ قال : خمر يا أمير المؤمنين ، قال : أو عهدتني أسقي
الخمر لا أم لك لو لا حرمتك بنا لفعلت وفعلت ، فخرج ، فلى فراشا
لعبد الملك ، فقبل : ويالك بن أمير المؤمنين استنشدني وقد سجل
صوتي فاسقتني شربة خمر ، فسقاء رطلا ، فقال : أعدله بآخر ، فسقاء
رطلا آخر ، فقال : تركتهما يعتركان في بطني ! فاسقتني ثالثا فسقاء ،
فقال : تركتني أمشي على واحدة ، أعدل ميلي برابع ، فسقاء رابعا ،
فدخل على عبد الملك ، فأنشده : « خف القطين » (٦٤) *

وأيا كان مدى صحة هذه الرواية فإنها تلقى الضوء على تلك
المعاملة المرحبة من قبل عبد الملك لشعرائه *

ويذهب عبد الملك الى مكة حاجا ، فيدخل عليه الأعيان على
مراتبهم ، وقام الشعراء ، الخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس
الشاعر — وكان قد رثى مصعبا بعد قتله فغضب عبد الملك — فسأله
عبد الملك عن مدحه مصعبا فاستغفاه ، وقال : إنما رثيته لأنه كان
صديقي ، وقد مات أن هواي أموي ، قال : صدقت ولكن أنشدني
هواك فيه فأنشده :

رحم الله مصعبا فلقى مصبا

ت كريميا ورام أمرا جسيما

فما كان من عبس الملك إلا أن قال : — وكأنم أتى لينظر
أبا العباس لا ليحاكمه — أجل لقد مات كريما *

ولنكته رام اتى لا يرونها من انفس الا كل حر معمم (٦٥)

وها هو ذا الراعى الذميرى الشاعرى يسير الى عبدك لونا من ألوان
عفت جامعى الصدقات ونفسوتهم على قومه البميريين - ويرجوه رد
المظالم الى أهلها حتى يظل لأمن سائدا فى ربوع ملكه فكار مما قال (٦٦) *

أبلغ أمير المؤمنين رسالة
تشكو اليك مضلة وعويلا
أخليفة الرحمن انا معشر
حنفاء نسجد بكرة وأصليا
عرب نرى الله فى أهواننا
حق الزكاة مولا تنزيلا
ان السعاة عصوك يوم امرتهم
وأتموا ذوهى لو علمت وغبولا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه
بالأصبحية قائما مغولا
حتى اذا لم يتركوا لعظامه
لحما ولا لقواده معسولا
جاءوا بحكم وأحسب أسارت
منه السياط براعة أجفيللا
أخذوا حمولته وأصبح قاعدا
لا يستطيع عن الديار حويلا

(٦٥) الشعر والشعراء ص ٢٦٨ *

(٦٦) جمهرة أشعار العرب ص ٣٥٥

العريف : شيخ القبيلة - الأصبحية : السياط - الصك : صحيفة

الصدقات - البراعة والاحفيل : الحبان *

يدعو أمير المؤمنين ودونه
 خرق تجر به الرياح ذينولا
 كذاهد كسر الرماة جناحه
 يدعو بفارعه بصريق هديلا
 ولولا أن عبد الملك على درجه رفيعة وواعية من التفهم ورجابة
 الصدر مع شعرائه لما استطاع المراعى أن يطلعه على مثل هذا الخلل
 الإدارى الذى يؤدى سلفه وشيوعه لى كوارث تهدد بسقوط
 حكمه وزوال ملكه ، وهذا فضلا عن مضمون النص لذى يعد وثيقة
 تاريخية وأدبية نادرة .

على أن رحابة صدر عبد الملك ووعيه الكامل بدور الشعراء لم
 يحولا دون عقبه من يتجاوز حدوده من الشعراء بشعر لا يتفق مع
 «واه - حتى ولو كان من آثار الشعراء صده - وها هو ذا الأخطل
 يعاتبه على تراخيه فى مهاتبة القبائل القيسية التى أسرفت فى العدوان
 على تغلب - قبيلة الأخطل - فيقول بعد وقعة البشر القاسية :

لقصد أوقع الحجاب بالبشر وقعه

الى الله منها المشتكى والمعول

فالأ تغيرها قريش بكلها يكـ

ن قريش مستتراد ومزحل

فما كان من عبد الملك إلا أن قال له : الى أين يا ابن الصراية (٦٧) ؟

والمتبع لدور عبد الملك فى قيادة جيوشه بنفسه يجد أن حسنة
 الأدبية وتذوقه الجيد للشعر دفعاه بعد تردد له فى قيادة جيوشه
 فى أدق المواطن وأصعبها - « وها هو ذا عبد الله بن خارجة يدخل على

عند الملك فيجده منرددا في الحروب نصيرية بن الزبير - حيث طرد
 وسيطرا إلى لحجاز والعراق لسنوات عدة من خلافة عبد الملك الذي
 لم يال جهدا في إرسال الجيوش منعقدة لقتل عليه لكن دون جدوى -
 قال له يا أمير المؤمنين ما ترى أراك هنا وما يذهبك الحرم ويقتصدك
 الحرم . وقهم بالاقدام وتجنح إلى الاحجام . أدند لنصرتك وأمهض
 رأيك وتوجه إلى عدوك . فجدك مقدر وجهده مدبر وأصحابه له مفعصون
 ومن لك محبون ، كلمتهم مفترقة وكلمتنا عليك محتومة . والله
 ما تؤمنى من ضعف حارس ولا قلة أعوان . ولا بشطك عنه ناصح .
 ولا يدرسك عليه غلش . وقد قلت في ذلك أميانا . مقال عبد الملك
 هاتها فانك تنطق بلسان ودود وقلب ناصح فقال :

كل الزبير من الخلافة كالتي

عجل النتاج بحملها فأحبالها

أو كالضعاف من الحمولة حملت

ما لا تطيق فضيعت أحمالها

قوموا اليهم لا تنهوا عنهم

كم الأنواء أطلتوها أمهالها

ان الخلافة فيكمو لا فيهم

مازلتم أركانهم وثمالهم

أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا

فانهض بيمينك فافتتح أقفالها

فضحك عبد الملك وقال : صدقت يا أبا عبد الله ان أبا خبيب -

عبد الله بن الزبير - لفعل دور كل خير . ولا تتأخر عن مساجرتك أن

شاء الله ، ونسبتهين الله أبا

سنية (٦٨) - وأدبت ابن خلدون -

الحماسية ما يحسم أحقية عبد الملك وقومه في الخلافة دون سواهم وتحملهم لمسئولية الدفاع عنها وحمايتها لأنهم المملكون لأسباب النصر ووسائله ، كما أن فيها من معاني التقليل والتهوين من شأن الزبيريين وزعيمهم عبد الله بن الزبير ما يغري عبد الملك الذواقة على التهيؤ .. والتصدى بحزم لخصمه دون تردد أو وجل ،

ومما سبق يتجلى لنا ما كان من شأن الحاسة الأدبية الذواقة عند عبد الملك في تخليد أثره وازدهار عهده سواء كان ذلك في ميدان أدلاب بعامة أو الشعر بالخاصة أو في ميدان تثبيت ملكه واستقرار حكمه ، وهي وإن كانت فطرية كم يرى بعض المتشغلين بالفنون ومن بينها الأدب ، حيث يرون ، أن هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل بها يدرك ما في الصورة من جمال وما في الموسيقى من سحر . كما يتذوق بها ما في الشعر من حسن الخيال وجودة التصوير (٦٩) . أو كانت ملكة مكتسبة لا تحصل إلا بممارسة كلام العرب ، وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه (٧٠) — إلا أنها — كما يرى أصحاب الرأيين . — لا تنمو ولا يتمكن صاحبها من توخيفها في التعامل مع النص الأدبي فهما وتقويما وتمتعا بجمالياته إلا عن طريق تعذيتها .. بالاطلاع الدائم على ما نتجته القريحة الأدبية والتمرس على فهم أسرارها وتذوق جمالياته ، وسرعان ما تتم — من هذا المنطلق — جسور التواصل بين النص الأدبي وصاحب الحاسة الأدبية . وينشأ بينهما ما يشبه الرجم أن هجر أحدهما الآخر شعر بالقطعة واندفع بقوة الدمين الى صاحبه .

(٦٩) دراسات في النقد الأدبي ص ٤١ .

(٧٠) هدمه ابن خلدون ص ١٠٨٦ .

والى هذا أشار كثير من النقاد القدامى والمحدثين سواء كانوا عرباً أو غير عرب ، وما هو ذا ابن الأثير يقول : « أعلم أن مدار علم البيان على حذم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم .. فان الحربة والأدمان أحدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهملة يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا . وكل جارحة منك فبب ولسانا محذ من هذا لاعتاب ما أعطاك . واستتبط بادمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدنه لك من هذه الطريق لا كمن طبع سيئا ووضعها فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فان حمل الاتصال غير مباشرة القتال (٧١) »

ومما ذامه النقاد المعنى « بغير فوسر » أننى أومن بأن لبشر جميعا يمتلكون بدرجات متفاوتة امكانية تذوق الجمال ، وان نمو هذه الامكانيه مرهون بتدريب الذوق المعنى وإفادات التقييميه عن طريق الممارسة سواء فى مجال الإبداع أو مجال الاستجابة (٧٢) .

ومما قاله أحمد صيب : « يتكون الذوق السليم بالقراءة والدرس . ويكتسب شيئا من الملمن والمرونة وهول الجديد لأن الذوق خلق من الأخلاق القابلة للتهديب والتقيح بالقراءة والفهم والدرس بحيث يكون ذوقا مبتدئا على التجربة بما قرأ الانسان وعلم من العلوم والفنون ، فالذوق الصحيح يفضح ويتربى بالنقد والنقد يتهدب بالذوق لأنه معين ومسدد على النهم وتفضيل الشئ على الشئ (٧٣) » . وما ذكرت من أقوال النقاد والعلماء على سبيل الاستدلال لأن مثل هذه الأقوال كثيرة .

(٧١) الملل السائر ص ٣ لابن الأثير .

(٧٢) محلة فصول المجلد السادس العدد الثالث ص ١٣ .

(٧٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٩٣ .

ولولا أن عهد 'الملك سبئ' أمثال هؤلاء النقاد والعلماء وما أتوا به من تقييد ونظير لتنمية الحسن الأدبي والذوق الفني الرفيع لقلنا أنه سار على نهجهم فيما وصلوا إليه من قواعد ونظريات لتنمية حسه وتهذيب ذوقه *

ومن هذا المطلق يمكن القول . أن الذين تعدوا ونظروا لهذا الجانب إنما اعتمدوا فيما وصلوا إليه على تفصيلهم لأخبار من هم على شاكله عبد الملك ممن يتمتعون بحس فني مرهف ، حيث تراه يحفظ الكثير والكثير من الأشعار جاهلية كانت أو إسلامية لا لدات الحفظ ولكن لما فيها من قيم جمالية — أي كان مصدرها — وأسرار بيانية يحرس كل المحرص على هئيمها واستيعابها ، ويتجلى ذلك واضحا في نظرائه السقديين لكثير من أغراض الشعر وهو يوازنه بين بعض نصوصه ليأصح أيدينا على مواطن الحسن والمقبح في كل منها ، كما يتجلى ذلك أيضا في تمثله بالشعر تمثلا دقيقا أمام ما يعن من أحداث وما يطرأ من أفكار وفي أوقات استنهاض الهممة وشحن العزيمة ، وقد ذكرت نماذج تؤكد تمتع عبد الملك بثروة هائلة من الشعر المحفوظ لشعراء سابقاتين ومعاصرين ، وتبين حسن تقديره لهذه الثروة وتوظيفها فيما يؤكد أهميتها ونفاستها *

وقد وصف الشعبي عبد الملك .. بقوله : ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفصل عليه إلا عبد الملك بن مروان فاني ما ذاكرته حديثا إلا ... زادني فيه ولا شعرا إلا زادني فيه (٧٤) * وتتجلى لنا قيمة هذا الوصف إذا ما عرفنا أن الشعبي كن — « أكبر الرواة في زمانه واثقة الحجة فيما حفظ من الأحاديث النبوية » (٧٥) *

(٧٤) طبقات ابن سبعة ج ١ ص ١٦٦ . *

(٧٥) شاعر الغزل للعقاد ص ٣٠ . *

ولا أحسبني مبالغاً إذا قلت : ان عبد الملك كان ملماً بقدر رفيع
من ثقافة عصره وما يتصل بها من أخبار القبائل وما قيل فيها من
أشعار ، وما لهذا من مآثر عمة أي خاصة على مستوى أفرادها ونحو
ذلك مما كان له أثره في صقل حسه الأدبي .

وعلى سبيل الاستدلال .. حينما دخل سلمة بن زيد بن فبساته
اندهمى على عبد الملك فقال له عبد الملك : أي الزمان أدركت أفضل ؟
وأي الملوك أكمل ؟ قل : أم الملوكة فلم أر إلا ذاماً ورحامداً ، وأما الأزمان
فأرفع أقواماً وبضع أقواماً ، وكلهم يذم زمانه لأنه يلبى جديدهم
وبهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع غير الأمل ، قال : فأخبرني عن فهم .
قال : هم كما قال من قال :

درج الليل والنهار على فهم
م بن عمرو فأصبحوا كالروميم
ودخلت دارهم فأضحت يباباً
بعد عز وثروة ونعيم
كذلك الزمان يذهب بالناس
من وتبقى ديارهم كالرسوم
قال فمن يقول منكم :

رأيت الناس قد خلقوا وكفروا
يحبسون الغنى من الرجال
وان كان الغنى قليلاً خير
بخيلاً بالقليل من النيران
فمبأ أدى علام وفيما هذا
وماذا يرتجون من البخال
الدنيا ؟ فليس هناك دنيا
ولا يرجى لحادثة .. الليالي

قال : أنا (٧٦) •

ويعد على مجلس عبد الملك جماعة من العلماء وأصحاب الرأي
في أخبار العرب وقبائلهم • فيقول لهم سائلا : خبروني عن حي من
أحياء العرب فيهم أنشد الناس • واسخى الناس • وأخطب الناس •
وأطرح الناس في قومه • وأحلم الناس وأحضرهم جوابا • قالوا :
يا أمير المؤمنين ما نعرف هذه التقبيلة • ولكن ينبغي لها أن تكون في
قريش • قال : لا • قالوا ففى حمير وماوكها • قال : لا قالوا : ففى
مصر • قال : لا • قال مصقلة بن ربيعة العبدى • ففى ادا في ربيعة ونحن
هم • قال : نعم • قال جلساؤه : ما نعرف هذا في عبد القيس الا أن
تخبرنا به يا أمير المؤمنين • قال : نعم • أما أشد الناس فحكيم بن جبل
كان مع علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — فقطعت ساقه فضمها
اليه حتى مر به الذى قطعها فرماه بها فجداه عن دابته • ثم جثا اليه
فقتله وانكأ عليه • فمر به الناس فقالوا له : يا حكيم من قطع ساقك •
قال : وسادى هذا وأنشأ بقول :

يا ساق لا تراعى ان معنى ذراعى أحمى بها كراعى

وأما أسخى الناس • فعبد الله بن سوار استعمله معاوية على
المسند فسار اليها في أربعة آلاف من الجند • وكانت توقد معه نار
حيثما سار • • فيطعم الناس • فبينما هو ذات يوم اذ أبصر نارا فقال :
ما هذه ؟ قالوا : أصلح الله الأمير اعقل بعض أصحابنا فاشتوى حبيصا
فعملقا له فأمر خبزه ألا يطعم الناس الا الخبيص • حتى صاحوا
وقالوا : أصلح الله الأمير • ردنا الى الخبز واللحم • فسمى مطعم
الخبيص •

وأما أطوع الناس في قومه ما الجارود بشر بن العلاء • انه لما قبض رسول الله - ﷺ - وارتدت العرب خطب قومه فقال : أيها الناس ان كان محمد قد مات فالله حي لا يموت فاستمسكوا بدينكم فمن ذهب له في هذه المردة دينار أو درهم أو بعير أو شاة فله على مثله ، فما خلفه منهم رجل •

أما أحضر الناس جرابا فصعصة صوحن ، دخل على معاوية في وفد أهل العراق ، فقال معاوية : مرحب بكم يا أهل العراق ، قدمتم أرض الله المقدسة منها المنشر واليهما المحشر ، قدمتم على خير أمير ، بير كبيركم ويرحم صغيركم ، ولو أن الناس كلها ولد أبي سفيان سكبوا حلما عتلاء ! فأشار الناس الى صعصة ، فقام فحمد الله وحسب على النبي - ﷺ - ثم قال : أما قولك يا معاوية : انا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمري ما الأرض تقدس الناس • ولا يقديس الناس الا أعمالهم • وأما قولك • منها المنشر واليهما المحشر ، فلعمري ما ينفع قربها ولا يضر بعدها مؤمنا ، وأما قولك : أو أن الناس كلهم ولد أبي سفيان لكانوا حلما عتلاء ، فقد ولد لهم خير من أبي سفيان آدم صلوات الله عليه ، فمنهم الحلیم والسفيه والجاهل والعالم •

وأما أحلم الناس فالأشج العبدى فان وفد عبد القيس قدموا على النبي - ﷺ - بصدقاتهم وفيهم الأشج العبدى ، ففرقه رسول الله - ﷺ - وهو أول عطاء فرقه في أصحابه ، ثم قيل : يا أشج ادن منى فدنا منه ، فقال : ان فيك خلتين يحبهما الله - الأثاة والحلم ، وكفى برسول الله - ﷺ - شياهدا ، ويقال • ان الأشج لم يغضب قط (٧٧) •

ولا يسعنا بعد هذه السباحة الممتعة في ربوع الحاسة الأدبية
عند عبد الملك إلا أن نقبل نحن أبناء بعرب — أيا كانت مسئولياتنا
وهو واقع أعمالنا — على دوحة الأدب العربي — نفتقى منها أطيب الثمر
علنا نتغلب على هذا الحضم الهائل من معوقات الحياة المادية والجائمة
على كل معنى جميل وهدف سام نبيل ، فتتهذب النفوس وترق المساعر
وتسهر الأحاسيس وتوقظ الهمم ، وصدق الرسول — ﷺ — اذ
يقول : ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما •

وقد أدرك كثير من النابهين في الأدب من سحر وما فيه من حكم ،
فاستعادوا وأعادوا — أيا كانت وجهتهم — وقد روى أن عبيد الله
ابن زياد بن أبيه التقى بمعاوية بن أبي سفيان فسأله معوية عن أشياء
من العلم فوجده غارفا بذلك ما سأله عنه ، فاستنشد شعرا ، فقال :
لم أرو منه شيء ، فكاتب معاوية إلى زياد : ما منك أن ترويه الشعر ؟
فوالله ان كان العاق ليرويه فيغير ، وان كان البخيل ليرويه فيسخو ،
وان كان الحبان ليرويه فيقاتل (٧٨) •

د. محمد كريم

أهم مراجع البحث

- ١ - أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام • بطرس البستاني •
توزيع دار الجيل • بيروت •
- ٢ - أدب السياسة في العصر الأموي • د • أحمد الحوفي • طبعه
نهضة مصر •
- ٣ - الأغامي • أبو النمرح الأصفهاني • طبعه دار الكتب • القاهرة •
- ٤ - الأمالي • أبو علي القالي • طبعه دار الكتب • القاهرة •
- ٥ - تاريخ آداب اللغة العربية • جرجي زيدان • منشورات مكتبة
الحياة - بيروت •
- ٦ - تاريخ الشعر العربي ج ١ - د • محمد عبد العزيز الكفراوي •
دار نهضة مصر • القاهرة •
- ٧ - تاريخ الطبري • أبو جعفر محمد بن جرير الطبري • تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم • دار المعارف • القاهرة •
- ٨ - التفسير النفسي للأدب • د • هز الدين اسماعيل • دار العودة •
بيروت •
- ٩ - جمهرة أشعار العرب • أبو زيد القرشي • دار صادر • بيروت •
- ١٠ - دائرة المعارف البريطانية •
- ١١ - زيل الأمالي والسنادر • أبو علي القالي • دار الكتب • القاهرة •
- ١٢ - شاعر الغزل • عباس محمود العقاد • دار المعارف • القاهرة •
- ١٣ - الشعر والشعراء • ابن قتيبة • طبعه الحلبي • القاهرة •
- ١٤ - الصناعتين • أبو هلال العسكري • دار الكتب العلمية • بيروت •
تحقيق د • مفيد قمبيحة •
- ١٥ - العقد الفريد • أحمد عبد ربه الأندلسي • دار الكتب العلمية •
بيروت • تحقيق عبد الحفيظ الترحيني •

- ١٦ - العبد * ابن رشيق القيرواني * دار الجيل - بيروت * تحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد *
- ١٧ - فجر الاسلام * أحمد أمين * طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
- ١٨ - مجلة عالم الفكر * الكويت * المجلد الخامس عشر * العدد الرابع
- ١٩ - مجلة فصول * المجلد السادس * العدد الثالث * الهيئة المصرية
العامة للكتاب * القاهرة *
- ٢٠ - مروج الذهب * المسعودي * طبعة بولاق * القاهرة *
- ٢١ - مسيمة بن عبد الملك * حياته العسكرية والأدبية * علي صافي
حسين * الدار القومية للطباعة والنشر * القاهرة *
- ٢٢ - مقدمة ابن خلدون *
- ٢٢ - مقدمة ابن خلدون * ابن خلدون * المكتبة التجارية الكبرى * القاهرة
- ٢٣ - الموشح * المرزباني * المطبعة السلفية * القاهرة *
- ٢٤ - المقادير الأدبية : أصوله ومناهجه * سيد قطب * دار الشروق * القاهرة
- ٢٥ - نقد الشعر * قدامة بن جعفر * مكتبة الكليات الأزهرية * القاهرة
تحقيق د * محمد عبد المنعم خفاجي *
- ٢٦ - ديوان الأخطل *
- ٢٧ - ديوان الفرزدق *
- ٢٨ - ديوان جرير *
- ٢٩ - ديوان عمر بن أبي ربيعة *

نقد الاختيار والمماثلة

عرض ودراسة لكتاب

المختار من شعر بشار جمع الخالدين

شرح أبي الظاهر المتجيسي البرقي

د. أحمد إبراهيم خليل

تعددت ألوان الكتابة الأدبية وصفاء وبراء عند العرب بما لا محل لحصره . وعلى الرغم من إمكان تصنيف هذه الكتابات داخل عدة دوائر محددة نرى لئلا منها أسلوبه وشخصيته وطابعه المتميز المستمد من أسلوب كاتبه وشخصيته وطابعه الخاص .

وفي مجال النقد الأدبي بالتحديد ، ونقد الشعر - بتحديد أكثر - تعددت الكتب والرسائل الصغيرة والرسوعات الضخمة ، كما تنوعت مباحثها وأساليبها وبين يدي الآن كتاب منها صغير الحجم نوعا ما وإن لم يكن قليل الجدوى والقيمة أهرع إليه بين الحين والآخر كلما شأقتني طريقته في نقد الشعر تلك التي اسميها (نقد الاختيار والمماثلة) . ويهمني أن أعرف بهذا الكتاب وأحاول تحليل مادته - بعد عرضه بايجاز ووضوح علامة استفهام حول طريقته في نقد الشعر، وغايتي من وراء ذلك أن أثير في نفوسنا نحن المعاصرين الرغبة في التمرّد على تلك النظرة الجامدة التي نعيها تراثا النقدي ، ونحاول أن نطبق عليه فكرتنا الشائعة القائلة بأن كل الأمور لا ينبغي أن تتناول تناولا واحدا وأن كل القضايا لا يجب أن تدرس بطريقة واحدة ولعلنا نجد في منهج هذا الكتاب وطريقته شيئا نافعا من الناحية العملية على الأقل إن لم يكن من الناحية النظرية مساويا لكتب النقد القرائية التي اعترفنا لها بالقيمة والفضل « كماوازنه » و « بالوساطة » و « عيار الشاعر » .

والمختار من شعر بشار جمعه الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان

سعيد ابنا هاشم بن رعله بن عرام وهم ينتسبان الى قرية « خلدة »
من اسماء حلفاء المستعبيين على خزنه كتب سيف الدولة الحمداني
ولهما في الأدب والمنتقد باع وهم يعدان كذلك من شعراء بلاطه ؟ ولهما
عبر المختار (الأندلس ولفظها) قام بتحقيقه السيد محمد يوسف
ونشره بالقاهرة سنة ١٩٥٨م .

وفي اختيارهما منحت من شعر بشر دلائل ان احدهما تيسر
الى قيمته بوضعه امام الحداثيين ورائداهم في توليد المعاصر وتزيين
الصياغة الشعرية ، والاخرى تثنى بالخصامها العميق بمسؤولية العالم
الأمين في الاحتفاظ بما يجدر الاحتفاظ به من ديوان يرثيه ما يملؤه
من شعر ماجن مسف مفعم بالغمزات على الدين و لعروة للضرباع
المحقق ، و ن كان من المثلث أن منها ما هو صحيح النسب الى الشاعر
ومنها ما هو منسوب الي رورا ، ومنها كذلك ما نقله الشاعر هازلا
وأخذه الناس منه مأخذ الجذ . وعلى أى حال فان ما بين أيدي
الناس اليوم من دواوين مطبوعة لبشار ترجع الى أصلين : أحدهما
مخطوط مفرد غير دقيق يشتمل على جزء من ديوانه الحقيقي ارتب
على حروف الهجاء وهو يقف عند حرف الراء فقد قام بنشره الطاهر بر
عاشور من تونس ، والآخر قام بجمعه محقق (المختار) من مختلف
دواوين الأدب العربي لجامعة القاهرة فهو بأخذ قطعة من هنا وبيتا من
هنا فما يكاد يزيد ما جمعه على مئتي صحيفة من القطع الصغير ربعها
هو امس قلما تعثر الى قصيدة كاملة فيها ويصعب أن تثق في اكتمال هذه
القصيدة فلا يبعد أن ينظم بشار أكثر من قصيدة على وزن وروي واحد
فيضيع أكثرهما ويبقى أقلهما على السنة الرواة وأقلام الكتاب فيضمهما
جامع الديوان باعتبارهما قصيدة واحدة (١) .

ومضاهاة سريعة بين الديوانين تكشف عن الاضطراب الشديد
الذي منى به تراث ذلك الشاعر المبدع .

وشارح المختار أبو الطاهر اسمعيل بن أحمد ريادة الله التجيبي

البرقي من ادباء أوائل القرن الخامس الهجري نعمت بين المحرف
 الأقصى ونورس وصقلية حين كانت مسلمة ومصر . وهو شاعر لا بأس
 به بالنسبة لنزق القرن الخامس وعلى درايه وحبره منسجفين لرمسه
 و قل معبرتين عن دوق أهل زمانه وطريقتهم في مهم طبيعة الابداع
 الشعرى ووظيفته . وقد قام بنشره بعد ضبط شعره بالشكل ونسبة
 لأبيات غير المنسوبة في المخطوط الى أصحابه محمد بنتر المدين العاربي
 وكتب له المقدمة عبد العزيز الميمى وهما من علماء الجامعة الاسلامية
 (عليكره) بالهند . وقد أرح الرجلان مقالتهما في أول الكتاب بعلم
 ١٩٣٣ - ١٩٣٤م . والنسخة التي وقعت في يدي من الكتاب طبعة
 (مطبعة الاعتماد) بالهند ؟ غير محددة تاريخ الطبع وان كانت
 منسوبة الى لجنة التأليف والترجمة والنشر . وهي نادرة الأخطاء
 كالعهد بمطبوعات النصف الأول من هذا القرن . وان كان قد شابته خطأ
 مطبعي غريب وهو في ترقيم الصفحات من ٢٦٥ الى آخر الكتاب فقد
 أخذت على التوالى أرقام ٣١٩ بدلا من رقمها الصحيح والأغرب أن
 مهارس القوافي والأعلام الشعراء سايرت الأخطاء والصواب معا
 محينا تذكر العلم أو البيت مما الى سرقم الخطأ ليحذفه الذي ورد
 من الكتاب بالفعل وحيا تذكر المرقم الصحيح الذي كان ينبغي أن
 يوضع عليها .

والكتاب يبدأ بقطعة في الحماسة لشاعر تلك الزمان أولها :

إذا الملك لجبار حمر خده مشينا اليه بالسيوف عابثه

ثم يمضى في روثح الأبيات حتى يتمها خمسة ، فغهم من ذلك أن
 الخالد بين منتظان من كل قه سيده ما يعدانه قلائدتها وقريدتها ويبيت
 المقصيده فيها الى آخر هذه التعبيرات الدالة على اغفال قيمة وحده
 المقصيده الفنية وعدم النظر اليها بوصفها بناء متكامل متحدا لا عضويا
 ولا موضو نيا . ثم يأخذ الشاعر في تعقب بعض أبيات القطعة
 مستحضر ما شاعفه به ذاكرته الحافظة من أبيات مشابهة لشعراء

آخرين سواء كانوا سابقين على بشار مما يجعله يقتضى بأن بشار قد أخذ المعنى مهم وادخل على اللفظ ، أو لاحقين له مما يوحي بأنهم قد استفادوه منه . والشارح مع غرارة مادته يعتمد على ذاكرته غالباً فحسب ، إذ لا يستقصى شيئاً سواء من المعنى والألفاظ التى أخذها بشار من السابقين أو من تلك التى أخذها المحدثون منه بل ربما أورد بعض مختار الخالدين دون أن يعلق عليه (٢) وهو كذلك فى شرحه ببعض غريب ألفاظ بشار وغيره من الشعراء لا يسير على وقيرة واحدة فربما شرح الألفاظ ليست فى حاجة إلى شرحه وأطال من ذلك حتى يجعلنا نظن أنه ينقل من بعض المعجم نقلاً دون تسميته ودون هدف واضح غير الاستطراد فى حين يغفل بعض الألفاظ التى تبدو نادرة الاستعمال وفى حاجة حقيقية إلى البيان (٣) وماذا على القارئ لو بحث عن معيها فى أحد المعجم اللغوية ، ولكن إذا كان الشرح نصب نفسه لهذه المهمة فمن واجبه أن يوفىها حقها . وربما بدا تعبير بشار فى حاجة إلى تطبيق نقدي أكثر منه لغوي ليبرر على الأقل اختيار الخالديين ومن ذلك قول بشار :

إذا المرء لم يفضّل وقام بكله

فليس به بامس وأيس بكامل

وإن كان ذا فضل وقم بكله

فسمام به أهل العلى والفصائل

وإن كان لا فصل ولم يغن كله

فناديه فى الناس هل من منازل

وفى هذا استخدام لفظ (كل) على نحو غير مأوف وقاعد موضعاً بديعاً جازع به نحو العميق . وليس الشئ ولكن الشارح لم يحاول أن يناقش شيئاً من هذه الأمور بل أعرض تماماً عن الأبيات متصرفاً إلى شرح غيرها . وقد يعترف الشارح بأن بعض المختار قد ورد برواية

مختلفة ولذنه لا يمين على شيء من ذلك ولو بترجيح إحدى الروايات •
ومن ذلك المقطوعة الغزلية التي أولها :

إذا لاح المصوار ذكرت سلمى واذكرها إذا نفخ المصوار

فهذه المقطوعة غير رواية الخالديين رواية أخرى نقلها الشارح
عن أبي العباس المبرد وما بين الروایتين من اختلاف أن الأخيرة تتضمن
آياتا ليست في الأولى وقلمما يتغير بعض ألفاظ الأبيات المتضمنة في
سابقتهما إلا أنها تضر من بيت لا أراه مناسباً للسياق خصوصاً إذا لحقه
في الروايتين بيت آخر لا ينسجم معه لفظاً ولا معنى وهو :

كان جفونه سملت بشوك فلبث لنومه قبها قرار

والبيت يتعلق برصفه أسفله ومعناه بشك لشاعر في أن يكون
عدم انطباق جفونه رجماً لكونها سملت بشوك وهو كما نرى تعليل
لادع لا يحلو من تكلف خصوصاً إذ فورن بفول بشار بعده :

جفت عيني عن التعميم حتى كان جفونها عنها قصار (هـ)

لاشت ن الشاعر ن كن قد قال أنبيذين وجعهما متبعين كما
ترسم رواية الخالديين ونسفي رواية المبرد فقد سقط الفعل من مرحلة
كان ينك فيها في أن جفونه قد سملت إلى آخرى سار ينك
فيها في أن جفونه قد تعدت وشئت بين التعبيرين والعطفين لنتين
يدل عليهما كل تعبير • إذن فالمختار مازال محتاج إلى جهد يضاف إلى ما
بدله أبو الطاهر عن سرجه ويمضي الكعب دواليك ما بين قطعة لبشار
لا تزيد غالباً عن البيتين أو الثلاثة وبين استطراد بلفظ الشارح بعد التفسير
اللغوي بذكر بعض من شاركوا بشار في المعنى أو في اللفظ أو فيهما معاً •

وتتلخص القيم الجمالية عند بي صاهر في الابتذاع والاختراع
وهما عنده بمعنى واحد وتوليد المعاني بحسن المعاني والمبالغة وإيرادها

في عبارة أكثر رامية فيه مما كانت عند مبدعها كان يُزَيِّنُها بجناس أو طباق أو سجع أو جمع أو في أضيق حيز لفظي ممكن وتوفيق الصنعة حقها على حد تعبيره — بمراعاة الضير وحسن التقسيم ونحوه (٦) • وأخير، تضمن البيت أو المقطوعة طرفاً من مكارم الأخلاق أيضاً من القيم الجمالية التي تعلو رتبة البيت عند أبي الطاهر •

والمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه هذه القيم الجمالية هو أن الشعر صناعة محددة المعالم لسمع التي أضافه باختراع «شعر» مع اعترافه وإيجازه حين يقول عن بيت «شعر» :

كأن فؤاده كرة تنزى حذار البين من سمع المحذر

بعد ذكر أبيات غيره لشعر « متقدمين ومتأخرين » وقد تردد معنى الخفوق كثيراً جداً إلا أن «شعر» غريب بذكر الذكر وذكر «علة» محقون وأخير أنه غير منتفع بها في الشعر ولا وادع بسببها وكل ذلك في بيت فكأنه استظهر شيئاً على الجماعه بنمطه في الصناعة « (٧) » ولتستفهم إليه يوازن بين بيت الباطنة :

ولست بمستيق أخا لا تلمه على شعث • أي الرجال المهذب ؟

وبين هذا البيت الذي لم يسم صاحبه :

ولست بمستيق حديقاً ولا أخا . إذ لم تعد الشيء وهو قريب

حيث يرى ن « بيت المنابعه أفصل : لاختصار لفظه وزيادة معناه على هذا لأن قوله لا تلمه على شعث هو قول الآخر — إذا لم تعد الشيء وهو قريب والأول أبين وأخصر فأما لزيادة عليه فقوله : « أي الرجال المهذب — فأور — في عجز بدته من لا يستر بأحسن لفظ وأبلغ معنى (٨) •

وليس أدل على اعتداده بالقيمة الأخلاقية والرسالة التربوية
للشعر ممن أيقافه قسطاً كبيراً من انكتاب لايراد قدّر ضخم من شعر
هذا الباب • ومع ذلك فالشارح من رحابة صدر بحيث يتقبل من الشعراء
كل ستماع منهم «احتياهم في نهج المراجع وتحسين الخطأ الفادح»
• باهيك عن تصور بلاغته الباطل بصورة الحق وتخرج براعته الكاذب
البحث مخرج الصدق «(٩) • وقبوله هذا الذي يسميه حثيالا
واسم تحسانه اياه من منطلق أن الحكم على الشيء يتغير بتغير وجهات
النظر اليه وتغير الأعراض المحيطة به ثم ان فيه دلالة على قدرة
الشاعر على الاقناع بوجهة نظره ولو كانت مخالفة للاعتقادات
الشائعة • ومن هنا يورد أبياتا وشواهد تمتدح المشورة وأخرى تذمها •

والعبارة في كل ذلك بقوة عرض الشاعر فكرته وقدرته على ايضاحها
من الأسلوب المشرق البديع • وبرعم هذه الحرية التي يتيحها الشارح
للشعراء في ان يزينوا ما شاؤوا أو يقبحوا ما شاؤوا فهو يفرض عليهم
البلوغ برصفتهم الدرجة المثلى في الصنعة التي تعلق بها كلامهم وبقدرة
قرب الشاعر من هذا المثل الأعلى أي بقدر مبالغته يكون أفضل من غيره
الذي لم يصل الى نفس الدرجة من المبالغة • فعندما يوازن بين
مقطوعتين لأبي العباس الناشي و ابراهيم الصابي في حفظ السر يفضل
الأخير لكونه ارتقى بمبالغته درجة لم يصل اليها الأول يقول الناشي :

وانسى لأنسى السر كي لا أذيعه

فيا من رأى شبيهاً يصان بأن ينسى

مضافة أن يجسرى ببالي ذكره

فينبذه قلبي الى مقولي خلصا

فيوشك من لم ينس سراً رجسا

في خسواطره ألا يطيق له حبسا

ويقول الصالى :

والسسر فيمسا بين جنبى مكن

خفى قصى عن مدارج أنفاسى

كأنى من قمرط احتفاظى أضبيعه

فبعض لسه واع وبعض لسه ناس

ويعلق الشارح بقوله «وكلام الحكيم أوجز لفظا وأوضح معنى لفضل

المتناسى على الناس وقول الصابى — فبعضى له واع وبعضى له ناسى —

من غاية الحسن والاحسان ونهاية الايضاح والمبيان» (١٠) • هذا مع

تصريح الصابى بأنه استوحى أبياته من الناسى وأنه يباريه فى بعد

الشوط ليس الا وموقفه الشارح هنا يذكرنا بموقفه النقاد من بيت

كثير بن عبد الرحمن الذى حكاه ابن سلام حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكانما
تمثل لى لى لى بى بكل سبيل

فقلوا لو كان صادقا فى حبه لم يرد لى لى لى ذكرها (١١) •

والشارح كثير الموازنات وبخاصة بين بشار وبين غيره من الشعراء

ولكنه للأسف لا يلازمه التوفيق دائما فى موازناته ومن ذلك ما عقده

بين بيت بشار :

وأمالك صدق البستى طرازهم قصائد مالى غيرهن شفيح

وبين بيتين لأبيد يتحدث فيهما عن قوة لسنه ضمن ما يتمتع به

من قوى فيقول :

ومقام ضيق فرجته

بلسمانى وجسمى وجدل

لو يقسوم الفيل أو فيساله

زل عن مثل مقامى وزحل

مفضلاً بيبي لبيد لأنهما (أتم من بيت بشار معنى وأبين
 شرحاً) (١٢) •

والموازنة مغالطة لا ذراعى ، لا استيعاب لبيد لأشواق الشوى
 البدنية و للمساوية دور ، اختيار للمسياق التلامى الذى ورد فيه النصان
 ولو عنى الشارح أقل عناية بسياق بيت بشار لوجد أنه لا مجال
 للقبهى بالقوة البدنية إذ هو فى سياق انديح دون الفخر ممن الطبيعى
 أن ينوه بفصله لئلا كاتت فى اتصاله بالملك المدين يحاطبهم
 فى قوله :

وثررت حماما يصبح القوم حوله
 عكسوها عليهم ذلة وخضوع
 ولما التقينا سابق الحميد جوده
 فأجدى وجود الطالبين سريع
 وأمالك صدق البستنى طرازهم
 قصائد والى غيرهن شفيف
 إذا حاجة ألفت على بعاءها
 ركبت وحسبى متصل وقطيع (١٣)

ومن موازناته ما عقده بين بشار فى قوله :

دعانى الى عمر جوده
 وقول العشيرة بحر خضم
 ولا بالذى ذكروا لم أكن
 لأحمد ريحانه قبل شم

وبين الأعشى فى قوله :

ونبتت قيسا ولم آتة وقد زعموا ساد أهل اليمن

مدعى انه الأصم مستقرا فى ذلك الى صاحب الموازنة بين الطائيين
 ومع التعاضى عن ايذاء (الزعم) غير المناسب لمقام المدح فقد كان

من حق بشار أن يدافع عنه الشارح بتمام المعنى وقوة التعبير عنه بتجسده في صورة بديانية باضنة كما فعل في الموازنة السابقة عندما فضل لبيد وكن يبدو أن أبا المطاهر مزال متأثرا بفكرة اعلاء القدامى على المحدثين .

ويحصر الشارح على الاعراب عن اعجابه بابن الرومي « لا يراده في المعنى المأخوذ تشبيهن واقعين بغير آلة تشبيه » (١٤) وذلك في قوله :

كأن تلك الدموع قطر فدى يقطر من ررجس على ورد

فقد شبه العيون بالرجس والخدود بالورد بدون ذكر أداة على سبيل الاستعارة انصرجية ، وهنا نسجل عليه مباركتة لجنوح الشعر العربي في هذه الدقة متأخرة من العصر العباسي نحو لتصنع والتكسب والجمود .

وبعد هذا العرض السريع للكتاب نقسأل عن الهدف من جمع هذه الأجزاء أولاً ثم من سرحه بهذه الطريقة ثانياً ، فأما عن هدف الخاضعين فقد خدمت أن شعر بشار قد لقي اهتماماً واعتراضاً في آن ، فهو من جهة امام المحدثين كما يشهد له ابن المعتز (١٥) — ومفتق أكمام المعاني وصائب بدائع القصائد الذي تتلمذ على يديه عدد غير قليل من الموانىء مشهور النصف الأخير من القرن الثاني الهجري شعرا وانفردوا بساحة الترمذ في زمانهم ، فما تكاد الحقيقة تبرز شاعرا واحداً عربي الأصل أو شاعرا واحداً لم يتلمذ على شعر بشار ولم يفد منه وما هي الدلائل والبراهين في استماع المعاني ، وتوليدها والمحافظة على الصياغة العربية الموصلة وترقيتها بلهسة من الإبداع غير المتكلف والزمنية غير المستثقلة تجتمع في شعر بشار ، ولكنه من جهة أخرى امام المتهمدين سواء على العرب أو على الاسلام وفي كل عصر عنه شعر غير قليل يكشف عن عدم

على العرب وتعصب صدهم واستهان بالدين وستهتار في مناقشة قصاياه وتلاعب في استعراض ما يلوكة حصومه من شبهات * ومن حق بشار أن تعفيه خصومته لبعض الماجنين من الرواء والشعراء من نسبه بعض هذا الشعر اليه ولكن ومن حق هذا الشعر غير القليل أن يثير في وجه بشار غدارا يجعل الكثير من الأدباء ينصرفون عن رواية شعره ومنه * وذلك أصبح بشار اماما بلا مسوغات فالناس يسمعون من دكائه وقوة شاعريته وجمعه بين سلامة لغة الأعراب من منى نقدل ومن طلاوة معاني المتحضرين وطرافتها ولا يكادون يعثرون على شيء من ذلك وكذا يكن الخالدين قد قاما بعمل غير قليل الأهمية بحفظان به بعض ما يجب حفظه من شعر بشار ويقدمان مسوغات امامته *

٢ - وأما بالنسبة الى التنازع عن بدا وأصر اسفري بييه وبين شعراء زمانه الذين أكثر من ايراد أسعارهم - من جهة وبين شعر بشار من جهة أخرى، ثم مد يده الأواصر الى ما قبل بشار من شعراء الامويين والهلبيين يطمئنه على أن شعراء القرن الخامس ما زالون يسبرون على الطريق نفسا التي اختطها الجاهليون ومهدوا لاسلاميون ووسعها محدثون جيلا بعد جيل * لذلك كان حريصا على وضع بشار في اطاره التاريخي يأثر به من قبله ويؤثر بعده ، وذلك كي يستطيع أن يرى عصره هو داخل الاطار نفسه ان كان قد تأثر به من قبله من شعراء القرون السابقة فلا بد أنه سيؤثر في الشعراء اللاحقين كما كان حريصا على ابراز أن بشار أو مدرسته لم تضاف الى الشعر العربي الجديد المعجز الذي يعز على شعراء القرن الخامس أن تأثروا به له وذلك توقف فهد في الثلث الأخير من الكتاب قائلا : « سأورد وأشهد بغيره من مكارم الأخلاق وأجعله كالإبواب أختتم به هذا الجزء من الكتاب » (١٦) *

ومع غموض عبارته (هذا الجزء من الكتاب) إذ أنه لم تسبق منه إشارة الى نية تقسيم الكتاب ، وتحزنته فمن الواضح أنه بهذا الباب يخرج عن خطة الكتب تماما * وقد بدأ الباب بقوله تعالى :

« خذ لعنوا ومر بسرت و... من س الجاهليين » ثم شرح الآية شرحا موجزا وشفع ذلك ببضعة أحاديث شريفة ثم أفضى الى عدد مفطوعة شعرية للمنخل وزهجير وحساتم وغيرهم من الجاهليين والاسلاميين وعرج على ما نسجه هو ومعاصروه على منوالهم •

وانتهى الى بشار فأورد نماذج من مختاره في الحكمة وتأنه وان لم يصرح - يريد للحكمة التي اشتهر بها المولودون • والتي نسبت أصوارها الى ما ترجم من آثار فارس والهند واليونان أن تعود الى أصولها العربية - فهو ما يلبث أن يورد معنى زعم غيره أنه من ابتذاعات المرادين وعقب عاينه بما أصله المنقول من كلام « بعض لصوح العرب الاسلاميين » (١٧) •

وفي القرن الخامس تكون قضية القدامى والمحدثين قد حسمت - أو كادت - فما عاد يجهل ساحة الشعر غير المحدثين وقد استطاع المتنبى بطريقته الى مزجت بين المداوة العربية والحكمة الميوانية من ناحية وبين الطبع المتقن والصنعة المتقنة من ناحية أخرى ، أن يضم تحت جناحه مذاهب القدامى والمحدثين معا ويحيل القضية الى قبول لهذا النموذج المفرد مع التسليم بصعوبة اللحاق به أو رفضه متسا لرفض شخصية صاحبه لا لرفض مذهبه في الشعر ولذلك اختلفت الخصومة حول المتنبى اختلافا بينا عن مثيلاتها التي قامت في القرنين الثالث والرابع حول أبي تمام والبحتري • من هنا لم يكلف أبو الصاهر نفسه مؤنة الدفاع عن المحدثين ولم ير داعيا لاعادة الجهد المصخم الذي بذله ابن المعتز من (البديع) لتأكيد أن كل الجديد الذي جاء به المحدثون من استعارة ومطابقة وتجنيس ورد أعجاز الكلام على صدوره وغيرها من أصول عربية متمثلة في القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلي والاسلامي فلم يعد شمة من ياحوز في ادعاء عكس ذلك •

ويعترف أبو الطاهر كما يعترف معاصراه ابن رشيق القيرواني وابن شهيد الاندلسي بأن الأذواق تتغير بتغير الأزمنة • فابن شهيد على سبيل المثال يقول : « الا ترى أن الزمان لما دار كيف أحسن بعض الرسم الأول في هذا الفن الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل ابن هرون وغيرهم من أهل البيان ؟ فلصنعة معهم أفسح باعاً وأشدد ذراعاً ، وأنزل شعاعاً لرجحان تلك العقول واتساع تلك انقرايح في العلوم ثم دار الزمان دوراً ثانياً فسكنت احداً الى أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابن وهب ونظرائهم فرقب الطبع واعرف ثقل النفوس ثم دار الزمان فاعتري أهله باللطيف صلف وبرقة الكلام كلف فكانت احالة أخرى الى طريقة ابيديع وشمس المعالي واصحابها • وكذلك الشعراء انتقلوا من العادة في المصنعة بانتقال الزمان وحلب كل ذي عصر ما بجوز فيه وتهش به فليسوب أهله فكان من صريح الخرافى ومشار وأبي نواس واصحابهم في البديع ما كان من استعمل ألفاظه و لزيادة في تفريع فنونه » (١٨) •

وتباني أمام نقد العصر مشكلة لماذا لم يظهر شاعر بعد المنبى يضارعه في فحولته ؟ • ولماذا توقف تتابع الشعراء الأفاضل النحدرل ؟ وحررم أبناء القرن الخامس من شاعر يقف من طبقة واحدة مع كبار الشعراء السابقين • وها هو ابن رشيق يعبر عن احساسه بآزمه الادع الشعري في زمانه حين يقول : « وان قال قائل ما بالكم يا معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلنت في أديكم المعاني وضو بكم المضطرب قلنا أما المعاني فما قلنت غير أن العلوم والآلات ضعفت ليس يدفع أحد أن الزمان دل يوم في نقص وأن الدنيا على آخرها • لم يعق من العلم الا رفعه معلقاً بالقدرة ما يمسكه الا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه » (١٩) •

فإذا كانت الألفاظ محدودة غير قابلة للزيادة الا بقدر ضئيل —

على كل مشتق بالقياس و معرب بمقبول في لغة الشعر . فن المعاني لا حدود لها وأصعب فيمن هممت قرائتهم عن ابتدائها وتوليدها وقعت همهم من البحث عنها والمعوص ورءها وحطت العلم وشحد الأداة بتعبير بن رشيق . وهو هو أبو الطاهر يتخذ اجراء عمليا ينبع به المعاني منذ بدء ابتداعها الى تفصيلها والتفرع عليها وقوانين بعضها من بعض لعله وهو يطعم شعراء عصره — بحصة شذاقتهم — على كيفية تخريج المعاني وتوليدها أن يشهد في أذهنهم وأخيالتهم القدرة على أن يحدو ذلك الحذر . ولكنه — فيما يبدو — ليس منشغلا بقدر شأوم ابن رشيق بل انه يرى أن شعراء عصره لديهم من التماسيح الحديثة ما يستحق أن ينضم في صعيد واحد الى التماسيح الحديثة . الشعراء المتقدمين وهذا نجدد يكثر من ايراد اشعار معاصريه ذاتى مادته وكأنه يتشعر — بالفعل — بضرورة الثقة فيهم والدفاع و لا يتراف بإمكان وقوفهم على قدم المساواة من حيث الاداع الشعرى مع سابقيهم من الشعراء .

ونستنتج مما تقدم أن الكتاب يدور حول محورين أساسيين نراهما يبين ما يتبقى من الشاعر بعد تزيين من رحيله وقد تعبرت لظروف وذهب أصدقائه وخصومه .

ويجيب عن ذلك الخالدين باختيارهما ، والمحور الآخر تدور حوله تأملات أبي الطاهر في طبيعة ابداع الصورة الشعرية وكيفية انشاق بعض الصور من بعض وعادة تفصيل بعضها على بعض وأقول نأبأ المطاهر يأمل في ابداع الصورة الشعرية بحاسة وليس في الاداع الشعرى بصفة عامة لأن تركيزه كان دائما على عناصر جزئية من مكونات القصيدة ولم يكن مطلقا ممتدا الى القصيدة ككل وقبل أن يمضى مع أمي الطاهر في تأملاته هذه متوقف مع الخالدين واختيارهما باحثين عن دلالة .

وأحسب أن دلالة الاختيار لا تكمل إلا بين ما أختير من شعر
بشار وبين ما حُرف عنه الخالديان أنطارهما مما تبقى من ديوان بشار .
وبالموازنة يتضح أن اختيار الخالديين يقع غالبا على ما يمكن تسميته
النمط الأوسط ، فلقد كان بشار شاعرا ممن يحتسرى ديوانهم على
الثوب الخلق — بتعبير القدماء — والديباج الموشى والحز المجد أو كما
يقول عنه أبو نبيدة « فيه شذرة ونفرة » (٢٠) و « انه كساحة الماوك
منها كقطعة ذهب وما تشاء من رماد » (٢١) أى على مستويات متفاوتة
من اللغة فحينما يخاطب خادما له بما يعجبها ويطربها ويقول لها :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وحينا تجلجل قوافيه بما يعجب الفرسان ويطربهم :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر دما
إذا ما اعرونا مسيدا من قبيلة
فرى منبر صالى علينا وساما

وحينا يسميح خياله وراء الصور التى تبهر البينان وتصدرهم
كبيته السائر :

كأن مشار النقع فروى رؤوسا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب

وحينا تهيم تأملاته وراء الأفكار العميقة فيأتى منها بالدرر اليتيمية
ولو مضينا نستقصى جوافذ ابداءه أو مستقرياته المتعددة غاية التسويع
لمخرجنا عن نطاق هذا البحث ولكن يكفى هنا أن نذكر أن لبشار مع كل
هذه الجوانب المتعددة جوانب أخرى يتهتك فيها ويبحث كأنه شىء ما
يكون التهتك والمجون . فإذا وقف الخالديان على ديوان رجب الجباب

متراعى الأطراف لهذا المديوان فما يختاران ؟ يختاران ما يقبله الذوق
المقوسط الذى لا يذهب وراء التعللات الفلسفية البعيدة ولا تسكره
التكشفت المأجنة بل يبتغى بين ذلك قوما وسطا يأخذ من ثزن بشار
الصورة الحبيب ولكن بعد أن يحذف منها القبذل والمجون ويأخذ من
تاملانه ما جاء به من الخطر متقيا من أغصان الحرفين وسموم المارقين
التي ادخس بعضها الى ديوان بشار ويأخذ منه هذره ولكن بولائه الى
بنى عقيل متجافيا شعوبيته واستهانته بالعرب ولبدو ؟ منهم نجاحه ؟
بل يأمح الى تمسحه بهم وتملقه لهم في نظمه الرجز على طريقتهم وقد
يقتسم لبعض معانيات بشار ودعائاته ولكن بشرط ألا تكون جارحة
جارحة وان على حسب بشار نفسه ولذلك يحذف من غزله ما يذكر فيه
آفته وكيف أنها لا تعوقه عن ممارسة عبثه وفنكه الزنوم . وهكذا يتبين
لنا من خلال موازنة ما يختاره الخالدين بما بهملانه أنهم يراعيان المقسط
الأوسط الذى يبقى معجبا مطربا رغم المظروف الاجتماعية التي غالب ما
ينتج عنها تغير في الأذواق ، فإذا كان أهل البصرة تلك المدينة الصاخبة
المعمورة بشتى طوائف الناس من عرب حواضر وبدو الى هوال من
أجناس متعددة يتذوقون فكاهات بشار اللاذعة ويستميل بعضهم هجائه
الفاحش أو تجدده المارق فان صحبى خزانة كتب سيف الدولة يعرفان
أذواق الفئة من الناس الخاصة (الأرستقراطية) التي يتقدمان اليها
بمختبرهما ، من لها من رهاطة لحس ، وحساسية الموقع ما لا تستسيغ
معه هذه الفكاهات اللاذعة وهذا الخوض المصاحب الذى طالما خاضه
بشار متجرئا ان شئت أو متبجحا سواء من غزله أو من هجائه أو في
شعوبيته أو في زنديته . فآل حمدان عرب تغليين يقسوى في نفوسهم
الشعور بالانتماء بل يشعرون أنهم البقية البقية من الكيان العربى
لذى تغليت له الأجناس المختلفة من مومنين في الشرق وأخشيدين
في الغرب والجنوب ، ويمخرون بتمثيلهم طموح العسروية على هذا
النحو تماما كما يشعرون بأن دولتهم الصغيرة من دون ملك الدول التي

توزعت بها الخلاصة عباسية هي الوحيدة التي تحمل لواء
 الجيد وسرف شافع عن الاسلام . ومن ثم كان من العسير ان يتقبلوا
 شيئاً من شعرية بشار أو رندة . رتري لو كان المحدثين في موضع
 آخر غير الذي هما فيه أو كان يبقى اختيارهما على ما رأيت كان يسير ؟
 قد يجيب عن ذلك اهتمام الخليفة عبد الله بن المعتز في (طبعت الشعراء
 المحدثين) بألوان أخرى من شعره توحى بأنه كان أقل حياداً من
 المحدثين حين أورد من أخبار بشار ما ينفي عنه تهمة الزندقة ويؤكد
 أن امرئ دهم على قتله بعدما تبين له كذب ادعائها ، كما كان أكثر
 قرباً من ذوقه حين أورد من فكاهاته اللاذعة أكثر مما احتمله ذوق
 الخالدين وكن لتذكر أن ابن المعتز يؤرخ بشار ويخبر عنه ولا يختار
 أفضل ما في شعره كما يفعل المحدثين وكذلك يمكن القول عن صاحب
 الأغاني في إيراد الكثير من وقائع بشار العبدية . ولهذا نقول إن فكاهة
 بشار بكامل لذوعتها أو اسفافها لم تكن لتحتلها بيئة أكثر من البيئة
 التي أدبقتها في الوقت الذي ظهرت فيه . ولكن أو لم ترد أكثر هذه
 الفكاهات اللاذعة الغمزات المارقة مكررة في كتب الاخباريين والرواة
 « كمعجم الأدباء » و « أدب الكاتب » و « نهاية الأدب » وغير هانهم
 لقد وردت ولكن لا على سبيل الاختيار والانتقاص بل على سبيل الاخبار
 والتوثيق فحسب ؟ ومن ثم يبقى أقرب ما يكون إلى الصدق - رغم
 ما فيه من قيم ثابتة - أن اختيار الخالدين للقائم على دراعة المظ
 الأوسط من حيث مستتريات اللمعة ومن حيث حرية التعبير واحترام
 قديم المثاليين وعدم المساس بها هو المعبر عن رأي جمهرة نقاد العرب
 وأدبائهم في شعر بشار وهو المجيب بطريقة عمالية عن التساؤل حين
 « ماذا يتبقى من الشاعر المنطلق في شيء غير قليل من الحرية ورغبة
 غير محدودة في الخروج عن مألوف فوق المخاطبين بشعره ؟ » بدليل
 اهتمامهم برواياته وانتداب بعضهم نفسه لشرحه وعدم تبهم أحدهم
 بالرد عليه وتأخير شيء مما قدم واختيار شيء مما أهمل . ويؤكد هذه

المدحوى وإن لمجد العرب كانوا يستشعرونها بالفعل — وخصوصا بقاد
القرن الخامس — ما رواه ابن رشيقي عن شيخه عبد الكريم النهشلي من
أن لأهل كد زمان دوقا خلاصا وأن الشاعر ابذي يبتغي المفاودة عليه
بالمقوسط بين الأذواق المتطرفة إذ يقول « قد تخلف المفاومة والارومة
والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر » ويستحسن عند أهل بلاد
ما لا يستحسن عند أهل غيره ونجد أن الشعراء الحذاق تقابل كل زمان
بما يستجيب فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا تخرج من حسن
الاستواء وحده الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت في بلاد الفاظ
لا تستعمل كثيرا في غيره كماستعمل أهل البصرة بعض كلام أهل فارس
في أشعارهم ونوادير حكياتهم — والذي احتاره أما التجويد والقصين
الذي يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غابره على الدهر (٢٣) .

فإذا كان اختيار النهشلي الذي ذكره ابن رشيقي تفسيره ورد
اختيار الحارثيين عمليا ، قدما على أساس من نفس القديم والمفاهيم
التي تتلخص في الاستواء والاعتدال وحسن الصنعة أو النمط الأوسط
بتعبير الجاحظ .

وأما شارح فقه اختياره ما يقربه بشعر بنسار من ابداع المتقدمين
والأحرين ما يشير إلى انهجه نفس المنهج مع اختلاف صفيف في الدرجة
وهنا نذكر إلى المحور الأساسي الآخر الذي تدور حوله أفكار الكتاب
وهو التعلق بطبيعة بدع الصورة الشعرية وكيفية انبثاق بعض الصور
من بعض وفخصيا بعضها إلى بعض والشارح يمدل جهده في ذلك لصد
ليفتح أهم شعراء عصره الطريف إلى مزيد من الأحادة في الصنعة
الشعرية ويخلص دعوى زوال دولة الشعر بما يردده من ماذج
يستجدها من شعره هو وشعر أقرانه تأبى الحسن المرعى وأبى الحسن
المشيعاني وغيرهما .

ومشكلة السرقات لا تأخذ اهتماما كبيرا لدى الشارح بالرغم مما

يترأى للقارئ للوهلة الأولى من شدة اهتمامه بتتبع قول الشاعر
العديدين للمعنى الواحد أو الصورة الواحدة . فهو يكثر من إيراد
أشعار غير منسوبة إلى قائلها مما يعطل دعوى الأخذ والإغارة حيث
لا ندري ان كن هذا المجهول قد سبقت إلى المعنى أم أنه قد استعاره
من سبقه . بل يورد الشارح أحيانا شعر معترفا بأنه يقارب سابقه فقط
وان لم يكن من نوعه تماما بحيث يصدق فيه الحكم بأخذ الملاحق عن
السابق فحين تعرض إلى أبيات يمدح بها بشار عمر بن العلاء وانتهى
إلى قوله :

إذا قال ثم على قوله مات العناء بلا أو نعم

علق عليه بقوله « وقريب منه وان لم يكن المعنى بعينه قول
الآخر » .

ان كنت لم تنو فيما قلت لى صله

فما انتقائك فى حبسى وترديدى

فالنسم أجمله ما كان أعجله

والمطل من غير عمر آفة الحود

ومثله قول الآخر :

وعدتني سبتا مضى فسبتا حتى اذا السبت أتى اخلفتا

أحسن من وعيدك لو أنجزتا

وأخذه المحترى فقال :

« ووعدتني يسوم الخميس وقد مضى

من دون موعدك الخميس الخامس » (٢٣)

ومن هذا النص نلاحظ أولا : أنه يعترف بأن ما يورده من معان
متناظرة لا بمعنى اعتقاده باتحادها أو مماثلتها القسامة فهو يرى بين

المعنين وجوه شرق ويدعو «لفارى» الى التقطع اليها ثم انه بعد ذلك لا يبتغى انهام احد بالسرقة أو لا يهمل بتعريف ذلك الآخر صاحب المعنى القريب . ومن ثم لم يقل بالأخذ الا في مثل حالة البحتري عندما صار المعنيان من القرب والخصوصية بحيث يترجح القول بالناثر والأخذ وهو مع ذلك لا يحكم بالأخذ على سبيل التهجين كما هي عادة أصحاب كتب السرقات كالمهمل بن عوث صاحب سرقات أبي نواس وبشر بن يحيى صاحب سرقات البحتري من أبي تمام وانما يحكم بالأخذ تمهيدا لفتح باب الموازنة بين قولي الأخذ والمأخوذ منه ، وعنده — بكل تسامح — أن الأخذ أحق بالمعنى اذا أحسن صياغته بالنسبة الى مبتدئيه ؟ اذ يقول عن بيان بشار :

جفت عيسى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

انه مأخوذ من قول جميل بن معمر :

كأن المحب قصير الجفون . لطول السهاد ولم تقصر

الا أن بشار أحسن فيه فصار أحق به وتناوله العتاسي فأفسده بقوله :

في مآقي انقباض عن جمهورهما وفي الجفون عن الأفق تقصير (٢٣)

واذن فهو لا يهبط بقيمة بشار حين أخذ المعنى من جميل بل يتسلى عليه لحسن صياغته وأو تفوق العتاسي في صياغته على بشار وجميل كان الآخر به من دونها فليس يعبه أخذه المعنى بل يعيبه افساده اياه، وهذه لعمرى حارة متقدمة الى قضية اسرقت مل اسبق فيهم : دور الشرطي المتعقد بعد أن وعى جيدا أنه ما من شاعر الا وقد أفاد ممن قبله ، ودأبني به يقول من الجاحظ ان المعنى مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي واليهودي والقروي . وانما الشعر بسج وصياغة وضرب من التصوير ولذلك يكثر من ايراد الشواهد الدائرة حول معنى

واحد نبيح للقارئ، الموارنة بينهما ومعرفة أسرار تفوق بعضها على بعض ولا يعنى باستيعادها الى أشخاص معينين اذ ليس همه الحكم على الشاعر وإنما همه التأمل في الشعر نفسه .

وحين بحث الشارح عن أصل المعنى ومصدره الأول لا يفعل ذلك إعادة للحق الى نصائبه تتويها بفصل أصحاب الفضل وانما يفعله بحثا عن المجال الذي يمكن أن يستمد منه الشعراء المعاصرون مزيدا من المعاني الجديدة ولذلك تتبع مصدر بيت بشار :

ما هبت الريح من تلقاء أرضكم إلا وجدت لها بردا على كبدى

لقد حتر ثناء الشعراء على الرياح المقبلة من جهة لاجبة وهذا معنى مستطاع مستطاب ومن أبى من يمكن نسبه أصله ان لم يذن الى عادف البشر وفطرته وطبيعتهم اعفويه « ان كل من له حب بباحية فادما يرتاح الى هبوب الريح من ذلك ساحية حب ذات او جنوبا أو شملا أو دبوراً » قال عمر بن الخطاب رحمه الله ابى لارواح للصبأ لأتها تأتينا من سحبه زيد يعنى أخاه لأن زيدا رحمه الله كان قد استشهد باليمامة وقال عمر هذا وهو بالمدينة وقال يعقوب اندبى عليه اسلام نيمه قال الله سبحانه مخبرا عنه في محكم كتابه : « ولما فصلت لمير قال أبوهم ابى لأجد ريح يرسف لولا أن تفتنون » وكان يعقوب عليه السلام وادى كنعان ويوسف عليه السلام بمصر « (٢٤) » وادى فما تأتيه من جهه يوسف ريح جنوبية وعمر رضى الله عنه ويعقوب عليه السلام لم يريد أن يقولوا شعرا وانما أرادا أن يعبرا عن أنفسهما بصدق وبتقائمه وبساطة ولذاك حظى كلامهما بتأثير يفوق تأثير الشعراء . ومن هنا نأخذ أن من أتوى مصادر المعانى وأصوله عند أبى الطاهر المرجسوع الى الطبيعة الانسانية وتصويرها وهى تعبر عن نفسها في صدق وقلائمية وبساطة ، وبذلك يضمن الشاعر لقوله التأثير المطلوب .

غير أن أصل المعنى غالبا ما يكون ساذجا غفلا ولو رددت الشعراء
نما هو دون تصرف لن يبنى من المستمعين غير الملل و لاءر ص كذلك
بورد أبو طاهر البشار بيتا مطريا ثم يلحقه بأبيات لآخرين خيره. ثم
يقول بعد امتداحها :

« أصل المعنى الاول (من كل ما قال الشعراء في وصف المسهاد)
قول الحارث بن خالد :

تعلوا أعينوني عسى النيل أنه على كل عين لا تنم صويل (٢٥)
ونسفه - كما نرى - لم يردب بيت الحارث كما رجب بندي وصف
جموته بالعقد و ادعى أنها سملت والدي زعم أن أهدابه ربطت
بداجبيه (٢٦) • وهنا نلاحظ شيئا من التناقض ومع شيه أبو طاهر حين
يبح في البحث عن أصل المعنى ثم ما يلبث ن يردد فيه ويضعه في إطار
من الأهمال حين يقرر أنه - اد يغلب على السائد ذوى القرن الخامس
والشعوف بالأسعة ولو على حساب الصدق والثقة فيه • بذلك يكون
خايته من البحث عن أصل المعنى مجرد رصد عمليات التطوير المعنى يجربها
عليه الشعراء الواحد بعد الآخر •

فإذا فرغنا من محوري الخيب بقى أهمنا آخر فخصايا البحث وهو
المحتدس بتقييم الساب ، الواقع ان (المختدر من شعر بشار) يقوم فكره
على أساس نقدي معمر أو معسط ذلك انه لا يعنى مساء القصيدة أو
سياقها الخارجى الذى نحب فى مسامته فضلا عن ضبيعة المبدع والملمين
والسباق القريحى الذى يعينه - ون فى اصره و بما يلحق منها بعض
وحداتها الصغيرة بحجة استغنائها عن معية الجداء واكتفائها بذاتها دلالة
وجماليا ، ودراسة الوحدة الشعرية معزولة سواء كانت بيتا مزدجا
أو صورة أو فكرة أو حتى معنى ثمعريا لم ينتج لنا نقد النربى القديم
والبلاغة العربية الا أحكاما جزئية ، لا نفتح شهوة النظرة الى الأدب
(١ - د)

في فهمه وتفسيره ومشويمه بل تتواءم معه — كما حدث أثناء القرن السابع الهجري وما بعده — أعداد لا حصر لها من المفريعات والتخريجات المنطقية العقيمة التي أبعدت الهند عن الثقافة العربية تمام وحددت البلاغة داخل أطر مقجّرة من النواعد المتطانية الجاعة • ومع هذا وربما استبيغت دراسة بعض عناصر العمل الأدبي بعد عزيمتها بهدف تصديت أكبر قدر ممكن من الثقة في الأحكام والتعمق في النظر ، ولو أمكننا تناول كتاب المختار بناء على هذا الافتراض فسيدقى أمامنا أن فتساعل حول مغزى الاختيار من شعر بشار من جهة ثم حول هذا الاستعراض المستفيض لما يناظر بعض أبيات بشار معاني أو صوره الذي قام به الشراح •

ان الشعر الجيد يستحق هذا الوصف لأنه يحتمر صورة جيدة وليس فقط لأنه يحمل معنى جيدا • فالصورة هي أهم عناصر الشعر الجيد ولقد فطن الى ذلك النقاد العرب القدامى بل سبقهم اليه المتذوقون من ذوى الحاسة النقدية الرفيعة ، فحسان بن ثابت يطرب عندما يصيب ابنه التشبيه في جارة ويقسم أن ابنه شاعرا ، وعبد الملك بن مروان يذمى صفة الشعر عن هذين البيتين فهما عنده ليس أكثر من (شرح إسماعيل أو تفسر آية) •

والجاحظ يفسر تأخر صالح بن عبد القدوس عن أصرابه من الشعراء المحيدين بأن شعره كان تقريراً مباشراً سواء في إرساله الحكم والأمثال • اد « لو كان شعر صالح بن عبد القدوس مفرقا في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقت ولصار نوادر سائرة في الآفاق ولكن العفيدة اذا كانت كلها أمثالا لم تضر ولم تجر مجرى النوادر » (٢٧) • ان لادع اعته لخاصة ووظائفه انتى تجعله مختلفا عن الخطابه والكتابة بمختلف أنواعها • ولغة الشعر هي لغة القصير • قصير المعنى والمواظ والمختصر والمواقف وما تقدم

لللفظ على المعنى عند أثر النقد العرب الا لأنه دون المعنى هو الذى يحمل الصورة الشعرية ويؤديها واداك كثر أيضا كلامهم عن اللفظ اللائق بالشعر الذى تمتع باشعاع قوى ورائد نفاذ الى خيال السامع ينير على مسرحه المصور المخيلة حية نابضة ، وربما كان تحسس أسرار الصورة الفنية هو الذى جعل عبد القاهر يؤمن بأن النظم وليس اللفظ ولا المعنى هو الذى عليه المعول فى الحكم على الكلام بالصلاح وحمس البيان ، فهو يفسر النظم بأنه « ان تقتضى الألفاظ فى نظمها آثار المعانى وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس » فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذى معناه صم الشيء الى الشيء « كيف جاء واتفق » وكذلك كان عندهم نظما للنسخ والتأليف والمصياغة والبناء والوشى والتخير وما أشبه ذلك . يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وقته علة تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع فى مكان غير « لم يصلح » (٢٨) .

وسنحيط قبل ذلك أن نتوسع فى فهم الصورة عن السطاق الصبرى الذى انحصرت فيه الصورة لبيانها عند البلاغيين المبينة على الاستعارة أو الجز . فالصورة كما يفهمها النقد الأدبى الحديث « صورة حسية فى كلمات ؟ استعارية الى درجة ما فى سياقها نعمة خفيضة من العاطفة الأساسية ولكي أيضا شحت — منطقة الى لقرى — عاطفة شعرية خالصة أو مفعلا » (٢٩) . ومعنى كونها (استعارية الى درجة ما) أمها قد تسمى على الباطن حقيقية فى مجيئها كالصورة الكائنية مثلا أو الصورة الحديثة أو الرصدية ان هم ما قدير به الصورة . اثارتها لخيال الملقى وعاطفته بما تطرحه من عناصر حسية ماموسة لا معنوية مجردة حتى وهى تتكلم عن الصفات الملموسة تواردها فى صورة معينة ، قد تشخصت امام خيال الملقى كقول الشاعر :

ان السماحة والروعة والندى فى قبة خربت على امن الحشرج

فها هي دي المعنى المطلقة السماحة والاروة والندى وهذ شخصه
وأصبحت هذا رقات مرثية مسموعة تذهب وتجيء ونفيم مع
ابن الحشرج في خيمته .

وعاوي قدر حظ المساء من (المفكر بالصور) تكون قدرته على
مذاطبة اعق اعوار الضمير الانساني بمطربه البسيطة و لأصيلة مع
دله « أن الشعر هو النشاط الأول للعقل الانساني ، فالانسان قبل أن
يصل الى مستوى تصور المكانيات فإنه يتصور أفكارا متخيلة ، قبل
أن يفكر بعقب واضح يدرك الأشياء بملكات مشونة قلقة قبل أن يتمكن
من الافصاح الواضح عنها . أنه يغنى قبل أن يتكلم نثرا ، وهو يتكلم
بالشعر قبل استعمال المصطلحات التقنية ، والاستخدام الاستعارى
بالكلمات يكون بالنسبة اليه مطربا مثل أى شىء تدعوه طديعيا » (٣٠) .

ماذا رجعا الى بشار وجدنا ان رؤيته المتميزة لطبيعته الصورة
الشعرية هي التي هيأت له المكنة الرفيعة التي حظى بها بين شعراء
صوره (٣١) . وبأعنة الأسلوبيين نقول ان بشار قد حطم حدود الصورة
الشعرية القديمة وانصرف بها عن طريقها الى رسوم منذ الجاهلين
فأكتسبت عنده صالة وخصوصية وتميرا أقتضى به المودون في حوز
هذه التجارب والتمسك بالى غايات أبعاد كس التشبيه عند
الجاهلين يقوم على المماثلة الحسية ويقدّر تحقق هذه المماثلة يكون
نوعين الشعر في تكوين صورته حتى اد جاء بشار ومعه عاهة التي
لا توصل اليه احدوسات لا توها ومشبعة بألوان وجدانية وعواطف
منه ابزة أخذت الصورة الشعرية عنده هذا الشكل الجديد الذي
لا يكرن فيه المشبه بالضرورة مماثلا للمشبه به من الناحية الحسية .
بل يكفى أن يكون الأيحاء المنبعث فيهما من نوع واحد وبدرجات متقاربة
وهكذا استمساغ لنفسه أن يشبهه رجع حديث صاحبه بقطع الرماض .
وأن يجعل هاروت تحت لسانها ينقث فيه سحرا :

وكان رجع حديثها
 قطع الرياض كسبن زهرا
 ولسان تميت لسانها
 هاروت ينقت فيه سحرا
 حوراء ان نظرت اليه
 لك سسقتك بالعنين خمرا

بالاضامة الى ماهته التي هيأت له تصورا متميزا للمرئيات غير
 متقيد بوضعها الحقيقي فقد تمتع بشار بطبيعة انفعالية جياشة قد
 ترجع نوعا ما الى أصله الفارسي — كما يرى الدكتور شوقي ضيف (٣٢)
 وقد ترجع الى آفته مرة أخرى وفاقته والظروف الشادة لأسرته •
 ولكنها على أي حال مسقدمة من قصته التي جبل عليها قبل أي
 سبب آخر •

ولهذا فمن الصعب — مهما تأثر المرء بانفعال نقاد العرب للشعراء
 المجاهلين — أن يوازن بين بيت بشار :

كان مثار المنقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها
 وبيت امرئ القيس :

كان ثلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها لعناب والحشف المبالي
 فإذا قيل لقد شبه امرئ القيس اثنين يائذين كما فعل بشار
 فإن في بيته الأخير من تصوير الحركة الصاحبة الآخذة بمجامع الثلوب
 هولا ورهبة لا نعثر على شيء من حرارته وحيويته في بيت امرئ القيس
 الذي يمكن نده جيدا بمقياس القدامى الذين يهمهم من القيسية
 المضاهاة الحموية شكلا وورنا وهيئة ولكنه يفتقد الوظيفة الجديدة
 التي تحملتها الورقة عند بشار والمثالة في تكثيف الإيحاء إلى المثلى

بالحال له الوجه اذنه الى يديها لمشبهه . ولقد اجتهد الشارح في جمع أبيات هذه قنقى أصحابه ببشائر قوصفوا جو المعركة بذكر النقع المنار والسوف القهاوية وشبهوا هذا في مقامته بالليل وشبهوا ذلك في إيمانها بالشهب ولكن أحدا منهم لم يفد من رؤية بشار المتمبرة أو قل احسسه الشديد الحصوبة بهول أجواء المعارك وأثرها على النفوس الذي يصوره الفعل (تهاوى) * فاذا راجعنا أبيات مثل قول مسلم :
 في جحفل تشرق الأرض لضياء به كالليل أنجمه المقضيات والأبال
 وأخذ منصور النمرى فقال :

يل من النقع لا شمس ولا قمر
 إلا جبيدك و لذروبة و شرع
 وأخذ العنابي فقال :

نبني سابلهم من فوق هاهم
 ليلا كواكبهم البيض لآثر
 وقد اورد الشارح على التوالى كما أورد أبيات اخرى كثيرة ذكر فيها النقع والسيف والخنزير خلت عن الوصف لخصي بالمعركه والحق أن الشارح قد أحس بهذا الفارق الدقيق بين بشار وبين من نأثر به من الشعراء فقل « بيت أبي معاذ أفضل وأحسن وأصنع وأرصن وهو من محاسن شعره وافراد أبياته » *

وسنته لم يحدد لم يكن بيت أبي معاذ أفضل على النحو الذي ذكر وانما اكتفى بهذا المفعول المفيد الجدوى والمشكلة أن معظم أحكامه وردت بهذه الصفات الجزامية مما يجعلنا شك في مدى مساهمة الى القيمة الحقيقية بالصورة في شعر بشار ، خصوصا ان استعرضنا الأبيات التي صرح باستحسنها من بشار وغيره والحالات النادرة التي نص على موطن الحسن فيها والأسباب أو القيم الجمالية التي بنى أحكامه على أساسها ، وقد تقدم ذكرها وهي بالجملة لا تبعد عن الاستعارة التورية والتجنييس الطريف والمطابقة بحسن التعليل

ومراعاة الفخيل الى آخر هذه الجماليات التي عدها أبو الطاهر
(من صنعة الحاذقين بالشعر) •

بل أكد أقول ن كثيرًا من الشعراء لذين تتلمدوا على يد بشار
سواء بالمصاحبة لفعالية كما تحكى أخباره مع الكثير من شعراء عصره
المتنفين حوله أو بمداومة النظر في شعره واستيلاء خيالاته المبتدرة
وأفكاره العذبة لم يستطيعوا أن يلحسوا به فضلًا عن أن يبلغوا
ثأره في جمال صورته بما تحمل من ثحنات عاطفية وانفعالية متدفقة
وأخيلة استعارية مبتدعة • لقد أخذوا منه إشارة الانطلاق الى الاغراب
في الأخيلة والاهتمام بتزيين الصياغة • ولكن هذا الذى شرعه بشار
و نتجه المحدثون كان بالنسبة اليه معلا تلقائيًا نابعا من طبيعة ظروفه
الحاسة مسجما معها ومعبرا عنها في صدق ودون تكلف وكان هو نفسه
بالنسبة الى المحدثين ميدانا للتبارى بينهم في بعد الأخيلة ومجالا
للمسابق في البحث عن كل مستغرب مبتدع بصرف النظر عن مدى صدقه
في التعبير عنهم وقد درته علمه نقل أحاسيسهم وعواطفهم • ولذلك
فسرعان ما وجدنا طريقة بشار التي استحسنت عنده وحمدت له تتقلب
وبالا على الشعر العربى وتورط الشعراء في التكلف والتعقيد والاحالة
وتبعد بهم وبشعرهم عن وخايفته الانسانية المتمثلة في التعبير الصادق
عن التجربة الخصبة المتميزة المفعمة بالعواطف الانسانية غير الزئمة
أقول هذا حين أتذكر تجربة أبى تمام ومدرسته البسديعية التي بعنت
بالشعر عن التوازن انجمل المعجز الذى اصطنعه بشار بين التلقائية
والصدق من ناحية وبين الابتداع والظرافة من ناحية أخرى • ون كل
صدق بشار هو الذى أوقعه في كثير من الخصومات المريعة مع العلماء
والفقهاء ورجال الدولة وغيرهم ممن يحاسبون الشاعر أخلاقيا قبل
أن يحاسبوا فنيا حتى انتهى به الأمر الى الموت جلدا •

فقال كيف يمدح في بشار الصفة التي أدت الى موته !

وعلى الرغم من لتناقض المجهري الذي تكشف لنا بالتحليل بين
 أساس التقييم الجمالية التي يقوم عليها نقد أبي الطاهر التيجاني المبرقي
 وبين ما أصبحنا نؤمن به من أسس ونسعى إلى تحقيقه من قيم جمالية
 مستمدة من النقد الحديث فلا نستطيع أن نجد قيمة الكتاب في تفجيره
 الكثير من القضايا النقدية الأدبية وإثارة التساؤلات حولها وفي عرصه
 الكثير من النماذج الجيدة من الصور الشعرية المنقاربة وإتاحة الفرصة
 للموازنة الدقيقة بينه التي تمكن من شحذ الحاسة النقدية وصقل
 الذوق الأدبي .

الهوامش

(١) من أوضح الأمثلة علي ذلك قصيدته التي مدح بها عمر بن حبيزة والتي مطلعها :

جفا وده فازورا أو مل صاحبه

أورد جامع الديوان انه جاء بالأبيات ١ - ٢ - ١٢ - ١٣ - ١٦ ، من ٢٠ - ٣٠ ، ٣٧ من كتاب معاهد السصيص ١ - ١٤٢ ، من المحاضرات ٢ - ٥٦ ، البيت ٣ وفي المختار ٧٥ الأبيات ٣ - ٤ - ٥ وفي القالي ٢ - ٢٣٤ ، السيتان ٦ - ١٠ الأخيرة ابن حيناء وها في المختار ٢٨٢ لاس الزبرقان ابن بدر ، ومن الموشى ١٩ الأبيات ٦ - ١٠ - ١٢ - ١٦ ودي ديوان المتلمس ٥٧ البيت ٧ وفي المحاضرات ٢ - ٣ البيت ٨ ومن غرر الحصائن ٢٧٢ الأبيات ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٦ وهي بحماسة ابن السجري ١٤٣ الأبيات ١٢ - ١٣ - ١٦ - ١١ .

وفي الطبقات ٤ - ٥ الأبيات ١ - ٢ - ٤١ - ٤٢ - ١٧ - ١٨ - ٧ - ١٢ - ١٣ - ١٦ - ٤٣ - ٤٤ - ٣٠ ، ٢٣ - ٢٤ - ٤٤ .
فهذه خمسة وأربعون بيتا ، وفي الديوان التونسي ١ - ٦ - ٣٠
لهذه القصيدة خمسة وثمانون بيتا ، ثم يعلق العلوي بقوله : فمن أبيات
مجموعتي توجد اثنان وعشرون بيتا في الديوان وهي ١ - ٢ - ١٧ - ١٨ -
٧ - ١٢ - ١٣ - ١٦ - ٣٨ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٢٧ -
٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣١ - ٣٢ والموافق من مجموعتي فلا توجد
فيه وهي ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ وأما السيتان ٦ ، ١٠ المنسوبان
ان غير بشار في القالي والمختار فمعزوان في الموشى الى بشار وعليه
اعتمدت . فأذا أمر الترتيب بين الأبيات فقد كان صعبا جدا لأجل اختلاف
كثير وتشعب كبير في التأخذ فوضعت الترتيب بينها بمراعاة المعنى مهما
أمكن . انظر ديوان بشار جمع العلوي ص ٤٢ ، ٤٣ ط دار الثقافة بيروت
١٩٨٣ وهي المستخدمة في البحث .

(٢) انظر المختار ٦٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ .

(٣) انظر نفسه ٧٨ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ .

(٤) نفسه ص ٢٣١ .

- (٥) نفسه ص ٨ .
- (٦) وقد تناثرت تعبيراته الشديدة الإيحاء الدالة على ذلك في ١٢ - ٢٣ - ٢٣ - ٣٥ - ٦٢ - ٧٨ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٨ - ١٤٩ - ١٦٤ - ١٨٦ - ٢٣٩ - ٢٤٦ .
- (٧) نفسه ص ٧ .
- (٨) نفسه ص ١١٨ .
- (٩) نفسه ٢٠٦ - ٢٣٧ .
- (١٠) نفسه ١٥٥ .
- (١١) طبقات الشعراء ص ٤٦٢ .
- (١٢) المختار ص ١٦٤ .
- (١٣) انديوان ص ١٥١ طبعة العلوي .
- (١٤) المختار ص ٢٤٥ .
- (١٥) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص ٢٤ ط . دار المعارف .
- (١٦) المختار ص ١٨٧ .
- (١٧) نفسه ص ٢٠٨ .
- (١٨) الذخيرة ج ١ ص ٢٠٣ نقلا عن تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . احسان عباس .
- (١٩) العمدة ٢ : ١٨٥ ص ١٩٠٧ .
- (٢٠) طبقات الشعراء المحدثين ص ٢٣ .
- (٢١) الموشع ٢٥٠ السلفية ١٣٤٣ هـ .
- (٢٢) اصدمة ص ١ : ٥٨ .
- (٢٣) المختار ص ٨١ .
- (٢٤) نفسه ص ٨٤ .

- (٢٥) نفسه ص ١٩
- (٢٦) نفسه ص ٢٦
- (٢٧) البيان والتبيين ج ١ : ١٥٠
- (٢٨) دلائل الإعجاز ص ٤٩
- (٢٩) الصورة والبناء الشعري ص ٢٢ ط • دار المعارف ص ٨١
- (٣٠) نفسه ص ٣١
- (٣١) وقد أشار إلى ذلك الدكتور أحمد كمال (في الفصل الذي عقده عن بشار وشاعريته من كتابه (الحياة الأدبية في الحضرة المنيه القرن الثاني الهجري) ص ٥٩٥ وما بعدها دار الفكر بدمشق ١٩٦١
- (٣٢) العصر العباسي الأول ص ٢٠٧ دار المعارف بمصر ط ٦

الغربة النفسية في شعر العقاد

اعداد

الدكتور / رزق محمد داود

مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة

العربية بدمنهور

ليس من شك في أن جماعة الديوان ، تعد من طلائع الاتجاه الرومانتيكي في أدبنا الحديث ، والمعروف أن الرومانتيكين عموما قد دعوا الى الخلق الفطري ، والعودة الى الطبيعة الحانية ، التي تتوفر فيها السعادة لكل أبناء الجنس البشري ، ومن هذا الخلق الفطري وتلك الطبيعة الحانية ، استمدوا عواطفهم الانسانية التي ترجع الى ما قطروا عليه من الهام .

وقد أراد الرومانتيكيون أن يكون الوجود أكثر استجابة لمغاة لاسان ، وأن يكون الانسان اله حاكم ذاته ، وسيد قدره ، وأن يكون غاية وليس وسيلة ، تسيره الأقدار وترغمه الحتمية رغبات الوجود العامضة، لذلك كانوا متشائمين رافضين ، لا يرضيهم شيء ، ولا يقنعون بشيء ، ومن ثم فشلوا في تحقيق النجاح الاجتماعي لأنهم كانوا يبحثون كل شيء ، حتى أبناء مجتمعهم بل المجتمع ذاته ومن هنا شعروا بالغربة النفسية فيه .

والعقاد — رائد جماعة الديوان (١) — تأصلت فيه هذه النزعة منذ صغره ، فصار جزءا من نسيج مشاعره وعواطفه ، فضلا عن ساروكه

(١) يرى بعض النقاد أن عبد الرحمن شكري هو رائد هذه الجماعة

وتصرفاته ، وبخاصة قبل أن يلتحق بأبناء الشعب مداما عن حقوفهم في مجلس انقواب ، وفي منبر الصحافة ، ففي تلك المرحلة، كمن شعوره الدفسي بالأغتراب في أعوار نفسه أبعيده ، نظرا لظروقه السياسية التي كان يعيشها آنذاك .

والمعروف من يرجو أنه لم ينعم بعلم رسمي بعد حصوله على شهادة تمام الدراسة الأبدية (٣) ، ولكنه استطاع بمجهود الخاص، وبفدراته الذاتية ، وبما ظهر عليه من درعة الحديد ، وراسي حديد امرا من آثار النهضة الاسوانية ، أن يثقف نفسه في مختلف مروع العلم والثقافة بطريقته اهله له ان يرجع على قمم حياته بصفهيه ، لأكثر من نصف قرن . وهذه السمة التي لا يباد يترك العقائد فيها أحد ، غرس في بقيقه رعة التأدي في وقت قضاخر شعبه معاصروه بالانقسام والمرب ، وبما هو اسبه من اسرجت العلمية ، الأمر الذي أدى الى ما يسبه رد الفعل لدى البعض ، فسمع في الاعتزاز بقيمه .

ومهم د : محمد خفاجي في كتابه الأدب العربي الحديث ومدارسه ص ٤٦ ، د : محمد مندور في كتابه الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الأولى ص ٤٩ ، ص ٩١ ، ١٢١ ، د : نواهم أبو الحبيب في كتابه تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر ص ٢١٨ ، هذا بينما يرى فريق آخر أن العقاد هو رائد الجدية ومهم د : عبد الحى دياب في كتابه عباس العقاد ناقدا ص ١٣٥ ، د : شوقي ضيف في كتابه الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٦٨ . د : حمد هيكل في كتابه تطور الأدب الحديث في مصر ٣١ ، ١٥٦ . د : نعام وزاد في قسم أدبية ص ٩٦ ولأسناد محمد طاهر الجبلاني في صحبه العقاد ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ وبعد التحقيق والتدقيق نرى رأى الفريق الثاني لقوة حججهم .

(٢) انظر « أنا » للعقاد ط دار الهلال ص ٣٠ .

« غلى في الدفاع عن مبادئه ، وأسرف في الدود عز مرامته - وبطش كل
من فكر في الحوم حول عرينه »

وقد صور ذلك شعرا في قوله :

أنا حاطم الأصنام والقبب
الحقبت منه الرأس بالذتب
في أمة الألقاب أسبقتهم
سبعيا بلا نعت ولا لقب
في أمة الأموال أتركهم
بمدي بلا مال ولا نسب
في أمة الأتساب أنشئ لى
نسبها من العلية والأدب (٣)

من هنا شعر العقاد بالمعربة النفسية ، وخاصة بعد أن تسعت
لفجوة بين آماله وطموحه وبين الواقع الممض الذى كانت تعيشه مصر
في عصره « ١٨٨٩ - ١٩٦٤ » وهو عصر وحشة 'عقائد أبلى وصف
في قوله : « انه عصر طبيعته المخلق والذرد بين ماضى عبق » ومستقب
مريب ، وقد بعدت السافة فيه بين اعتقاد الناس فيما يجب أن يكون
وبين ما هو كائن فغشيتهم الغاشية ، والشاعر بجبلته أوسع من سائر
الناس خيالا ، فالمثل الأعلى ، أرفع في ذهنه منه في أذهان عامة الناس ،
وهو الطفهم حسا ، فأله أسد من ألهم ، وانما يكون الألم على قدر بعد
البون بين المنتظر وبين ما هو كائن فلا حيرم ان كان الشاعر أظن
الناس الى النقص ، وأكثرهم سخطا عليه « (٤) »

(٣) ديوان العقاد « ما بعد السعد » ط دار المعارف ص ٢٩ .

(٤) مقامة ج ١ من ديوان المازنى ص ١٧ ط المجلس الأعلى لرعاية

الفنون والآداب .

وقد نفم العقاد على المجتمع . وقد أساليب الحياة فيه ، وأدته
 الغربية النفسية الى العزلة والامطواء وهو أصلا مفطور على العزلة ،
 لأسباب يرجع بعضها الى مورثة وبعضها الى الطفولة الباكورة وبعضها
 الى تحارب الحياة (٥) ، لذلك استغرقت الكتب حياته ما بين كتب يقرأه
 أو كتاب يؤلفه ، أو قصيدة يبدعها .

وقد أحس العقاد ذلك في نفسه ، فاعتذر عنه في أسلوب رقيق اد
 يقول : « وليس معنى العزلة أنني أحارب الناس ، أو أنني لا أبادلهم
 العطفة والشعور ، فإني أحب مساة الناس جهدي ، ولا أستبج
 لنفسي ان أبدأهم بما يسوء ، ولكنني لا أبيع لأحد أن يستحق بالاساءة
 الى » (٦) .

وقد يتعدى الأمر من أسفه الاخوان الى ألفته غيرهم من الأحياء
 والأشياء . وهو اوبنه تعص بالنماذج التطبيقية على تأصل هذه المزرعة
 فيه ، فقد بكى قلبه (٧) ، وتعاطف مع كتبه (٨) . وغنى للطائر المصري
 غناء خالدا ، بل أهداه ديوانا كاملا هو « هدية الكروان » .

وقد أخذ الاغتراب النفسى لدى العقاد أكثر من مطهر . فهناك
 الاغتراب الزمنى الذى يكمن فى احساسه بأنه لا يصلح لهذا الزمن .
 ونقمتة عليه من أجل النفوس لقبه فيه ، لأنه يعرف مقامه بينهم ،
 ولا يتمى الخلود فيهم ويعد العيش بينهم سجا ينفر الشاعر من
 الوجود كله :

نفوس أعاف ، مقامى بها

أأخذ فيها ؟ لبئس الخلود !

(٥) « أنا » للعقاد ص ٢٦ ط دار انهال .

(٦) مجلة الرسالة العدد الصادر فى ١٧/١١/١٩٤٧م

(٧.٨). انظر خمسة دواوين للعقاد ص ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٧٠ وديوان

العقاد ص ١٣١ .

ومسجن أعاف وجسودى به
 أليس كنيلا يتعصن الموجنود
 قرب خلود كفيد السجين
 ونسبان قوم كفك القيود (٩)

ونلمح عربته في الحياة - وأثر الزمن في سلوكه ، وأر جفاءه
 وغلظته أثر من فعل للناس معه ، وانعكاس لصورة الحياة لديه
 في قوله :

إذا استصعبت نفسى وضاق قلبى فاجبها
 ولاحت لراى العين كالجبيل الوعر
 فلا تتكروا منها جفاء ووحشة
 ولا ترجموها بالقبيح من الكبر
 فتلك ظلال الناس فيها ودونهم
 طينائع كالماء النمر إذا جرى
 ولولا صفاء الماء ما عقلت به
 مشابه من أوعار شيطانه الغبر
 وان جشأت نفسى وصابت سماؤها
 وغامت دياجيتها على الأتجم الزهر
 فمن أرضكم ضرؤها وقتامها
 ومن صوبكم ذاك الغمام الذى يسرى
 تليكم غواشيتها الغضاب وفوقها
 شمس تميظ الليل عن طلعة الفجر
 وأنا لمرآة لما فى زماننا
 نحدث عنه حيث ندرى ولا ندرى

(٩) حمسة دواوين للمقاد ص ١٠٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

تفليكن لتنا أفراحتنا من حذرنا
وما قاضت الدنيا لنا بنسوى الشر (١٠)

ويبلغ العقد قمة نغمته على زمنه ، بعد أن غدا الأسافل يصعدون ،
وأهل القيم يهبطون وتوسل دور المناصب ليها بالدعاء ، والخياله
الرخيصة ، وانعكست قيم الأشياء :

فشئت الجهالة واستفاض المنكر
فالحق يهمن والضلالة تجهش

والصدق يسرى في الظلام ملثما
وينسى في الصبح الرياء فيسفر
أنا لمفى زمن كأن كباره

بنسوى الكبر شأنها لا يكبر
بنس الزمان لقد حسنت هواءه

دئسا وأن بحارته لا تطهر (١١)

وهذا الاتجاه هو ذات الاتجاه الرومانتيكى حيث « ان الصلة بين
الرومانتيكين وعصرهم صلة حراع وجهاد ، أو صلة سحق وغضب .
وهى صلة الشعور القوى التأثير المنطرف الذى ينشد مثالا ، ومن شأن
هذا المثال أن تنعكس مسورنه فى الأدب على أنه صورة لما ينبغى أن
يكون ، لا لما هو كائن ، فهذه الصورة فى تعارض مع ما عليه المجتمع
الذى نشأت فيه » (١٢) .

أما الاغتراب المكاسى لدى العقد فيتمثل فى احساسه بالفرار من
بيئته الى بيئة أخرى تحيا فيها روحه ، ويحلق فى أجوائها بخياله، ويجد

(١٠) ديوان العقد ص ٢٦٠ .

(١١) ديوان العقد ص ١٣١

(١٢) الرومانتيكية د . محمد غنيمى ملال ط دار النهضة ص ٤٠

فيها تمتعه المكرية ، وفي رأى العقاد أن القرابة الفكرية أهم وأولى من القرابة البيئية والمكانية حينما يذهب الى أنه « لو كانت هناك نفس في المريخ خطر في ضميرها مثل الذى يخطر في ضميره ، لكانت ألصق به وأوفى رحما ممن يلونه ويجاورونه على فرقة فى الرأى والاحساس ، ولو أن قائلًا جمعنى به الفكر والهوى لما كان غريبًا عنى وإن فرقتنا لغة وباعد بيننا زمان وموطن » (١٣) .

و لعقاد ينفق فى هذه النظرة مع المفكر الرومانتيكى « ستد دال » الذى يقول : ان الوطن الحق هو الذى يلتقى به بكتير ممن يشبهونك » (١٤) والمفكر الرومانتيكى « جيراردى نرفال » الذى يقول : « لكل غنان وطن مثالى غالبا ما يكون بعيدا من وطنه لأصلى تروح اليه موهبته الفنية » (١٥) .

ومن مساهم الاغتراب الرمانى والمكافى لدى العقاد ، ترفعه على جمهور اناس « وهى سمة تأصلت فى نفسيته منذ صغره ، اذ كان يحس فى نفسه عظمة لا يجد لها ظلا فى سواه منذ رفض أن يلبس البطلون القصير — كرملائه — فى حصة التربية الرياضية وهو طبل بالمدرسة الابتدائية بأسوان ، رغم أنه كان أصغرهم سنا وأطسواهم قامة » (١٦) .

ونمى هذا الشعور لديه ، مع نمو مداركه ومشاعره، وأضناه ما جلبه عليه حبه الناس فقد كلف بحبهم زما الى أن صارت غاية أمانيه أن ييقضوه ، لأنهم لا يعطفون الا على كل منحدر فى الحس والمعنى ،

(١٣) العربال — ميخائيل نعيمة ط ١٢ (١٩٨١) بيروت ص ٦ .

(١٤، ١٥) الرومانتيكية ب محمد غنيمى هلال ط دار نهضة مصر

ص ١٢١ ، ٦٨ .

(١٦) أبا العقاد ط دار الهلال ص ١٢٢ .

ويعجزهم المتطلع الى القمم العاليه ، وكم نسج لنفسه من فضائلهم
حتى غدا ينظر الى أصغرهم ، شأن الطبيعة في قياس الأشياء ، ومن ثم
هجو يحتقر أرضا خلت من أزداده ، وموطنا لا يعمره مثله :

وكم تلفت بحب الناس لى زمننا
فاليوم يفضهم من خير أمالي
فالناس تحنو على الوادى ويعجزهم
جهد المتطلع عن ذى القمة العالى
وكم نسجت لنفسى من فضائلهم
نسج على الزرع من هون واجلال
فاليوم أكبرهم عندى كأصغرهم
ان الطبيعة مقياسى ومكيالى
انى لأصغر أرضا ليس يعمرها
من الخلائق أزدادى وأمتالى (١٧)

ويؤكد هذه الفكرة في موطن آخر حيث يرى أن شقاء العظماء
راجع الى افتقارهم الأشياء والمنظائر ، أما الأصاغر فهم أشباه
كثيرون ، والناس يذودون لن شابههم فادا علا عنهم رجوه ، وان سفل
احتقروه ، وعلى ذوى النبوغ تطوين أنفسهم على لعزلة والشقاء :
ان الشقى الذى لا حسد يشبهه

وللأصاغر أشباه وأمتال
من شابه الناس مرته مبودتهم
ومن علا عنهم ساءت به الحال

فأهناً بمجدك إذ تشفى بعزلة
وليعظ بالصفو أو غاد وجهال (١٨)

وهذا الشعور مسرود من العواطف الرومانتيكية أيضا إذ أن
المرء لديهم يكن دائما فريسه ألم مرير بسبب الجفوة بينه وبين مجتمع
لا يقدر ما فيه من نبل الاحساس ونتيجة انهيار آماله المراسعة ، وتعد
خفوه بالمثال المشهود . ولذا كاز الحزن طابع الرومانتيكية ، وهو حزن
طابع الرومانتيكية ، وهو حزن يدل على عزلتهم الروحية ونفورهم من
أدواء المجتمع (١٩) .

ويؤكد العقاد هذا حينما يذهب الى أن طلب الحق عليه أن
يوطن نفسه على احتمال المكاره لأن الحق والأمن لا يجتمعان ، فاما أن
تسحب عن المجد معرضا نفسك لأخطاره ، واما أن تقبع في الهوان آمنا ،
هم سبيلان من بين السلامة لا

يأسف لمى الحق أو يحلم برؤياه
ومن بغى الحق في الدنيا فلا أسف
على السلامة ان خاسته دنياه
قد يهجر الأمن من ذلوا ومن وهنوا
وما تفرق قط الهول والجاء
فاختر لنفسك اما الحمد في خطر
أو الهوان وقد تشقى ببلواه
وما اختيبارك الا ما خلقت له
ان الطبائع ما ترضاه ترضاه (٢٠)

(١٨) انساب ص ١١٢ .

(١٩) الرومانتيكية د - محمد غنيمي هلال ص ٤٣ .

(٢٠) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٢١ وانظر « حياة الأمن »

الدوان ص ٢١١ .

وقد وصل هذا الشعور الى قمته في نفس العقاد ، حينما اشترع
العظماء قانون يحاسبون بمقتضاه لا ينسحب على العامة ، لأن
لكل مقياسه ومعياره اذ يقول :

لا تُلج ذا بأس وذاهمة
على ذنوب العصبية الغلب
فليس مقياسك مقياسهم
ولا هم مثلك في مأرب (٢١)

ويعلل العقاد ذلك بأن الليث لا يوثق بالحبابة التي تتصب للثعلب،
ومن ثم فهو يطلب عدل الناس لا عدل الموازين التي لا تفرق بين
العث والسمين (٢٢) .

انا نريد إذا ما الظلم حاق بنا
عدل الأناسي لا عدل الموازين
عدل الموازين ظالم حين تتصيبها
على المساواة بين الحر والدون
ما فرقت كفة الميزان أو عدلت
بين الحلى وأحجار الطواحين
ولما كن العقاد يستشعر المعظمة ، في مجتمع عزت فيه العظمة
والعظماء ، فقد تضاعف شعوره بالغربة بعد البون بينه وبين معاصريه،
وهو بون يستحيل معه الالتقاء .

عرفت نفوسكم وعرفت نفسي
فليس الى التعارف من سبيل

(٢١) ديوان العقاد ص ١٢٤ .

(٢٢) خمسة جوايز للعقاد ص ١٢٤ .

أُمُورٌ مِنْ بَدِيهِسَاتِي وَحَدْسِي
 حَسِبْتُمْ صَدَقَهَا كَالْمَسْنَحِيلِ
 جَلِيلِ الْأَمْرِ عِنْدَكُمْ حَقِيرِ
 وَأَحْقَرُهُ أَجِيلٌ مِنَ الْجَلِيلِ
 فَلَسْتُ مِبَالِيَا مِنْكُمْ بِبَذْمِ
 وَلَا آسَى عَلَى ظَنِّ جَمِيلِ (٢٣)

وقد ترتقب على ترفع العقاد على الناس ، واحتقاره سلوكهم ونفاذه
 ما لديهم من بواعث وقيم ، أمر آخر أعنف من الترفع وهو المذهب
 الاجتماعي وهو هنا لا يحتقر الناس بتعداد مثالبهم الا ليؤفخهم حتى
 يتخلصوا من سلفياتهم ، لأنه وجه هذا النقد في الأغلب الأعم الى
 الشعب ، بوصفهم رجال المستقبل ومساط الأمل في اصلاح الأمة :

كَمْ إِذَا أَعَاشِرَ مِنْ صَبَحِي وَأَعْدَائِي
 مِنْ لَيْسَ يَعْقِلُ آمَالِي وَأَرَائِي
 قَسُومَ عَلَى كُتُبِ مَنِي وَيُفَصِّلَانِي
 عَنْهُمْ مَسَافَةً بَيْنَ الْهَيْثِ وَالْشَّاءِ
 لَوْ كَانَ يَفْرَقُنِيَا بِمَعْدِ الطَّلَابِ لِمَا
 كُنَّا وَكَانُوا سَوَى تَجَمٍّ وَيَوْغِيَا
 هُمُ الرِّجَالُ كَمَا قَالُوا وَلَيْسَ لَهُمْ
 مِنَ الرِّجْسِ وَلَةِ إِلَّا فَضْلُ أَسْمَاءِ
 وَيَلِي عَلَى مَصْرٍ قَدْ أَمَسَتْ وَلَيْسَ لَهَا
 مَسْرُورِي اعْتِسَازٌ مَسْهُوطٌ بِالْأَذْلَاءِ

قد أكملوا انفسهم موفورا فلا عجب

ألا يضيقوا بتنقيض الأجلاء (٢٤)

ويستطرد العقاد في وصف سببيات الشباب المصري ، وهو يضع نصب عينيه سوء المصير الذي ينتظر مصر من شباب هذه أخلاقه ونلك قيمه وسلوكه .

وليس في هذا الكلام تعال بقدر ما فيه من أسف وعطف عليهم . والرومانتيكى عندما ينعالى على الناس ، لا يعنى أنه عدو لهم بوصفهم من الناس ، لأن شغله الشغل هو العطف على مظلوميهم والثورة من أجلهم ، ولكن العبقرية لا يلائمها أن تنغمس في سواد الناس (٢٥) .

وفي هذا المجال نرى العقاد يحارب وسائل الخداع والنمويه . وأساليب المرائين والمنافقين :

سحقا لهاتيك الوجوه قاذها

كذابة لا تحسن التمويه

حسنه ولو نقلت صفات نفوسها

لرأيت أقبح ما رأيت وجوها (٢٦)

وفي موطن آخر :

ليس أضنى لفؤادى من عجوز تصابى

ودميم يتحالى . وعليم يتغصبى

وجهول يملأ الأر ض سؤالا وجوابا (٢٧)

(٢٤) ديوان انعقاد ص ١٥٨ .

(٢٥) انظر الرومانتيكية د . محمد عيسى هلال ص ٤٧ .

(٢٦) ديوان انعقاد ص ٦٩ .

(٢٧) ديوان انعقاد ص ١١٣ .

وله في هذا المجال كثير من القصائد والمقطوعات مثل : « صديق غائب » (٢٨) ، « المشيء من غير معدنه » (٢٩) ، « ذات وجوه » (٣٠) ، « سر في طريقك » (٣١) ، « زماننا » (٣٢) وغيرها •

وقد اضطره ذلك أن يتلون — أحياء — مع المملوكيين متى كان في ذلك حكمة ، متبعاً طريقة زهير بن أبي سلمى في قوله :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويظأ بمنسم (٣٣)
حيث يتناول العقاد :

نر مع الناس كيساً كغبي
هكذا الكيسون كانوا قديماً
وتجاهل فليس من بجهل الجهـ
ل حرياً بأن يسمى عليمـ
واذا المرء كان بالحمق يحظى
فمن الحمق أن تكون حكيماً (٣٤)
كما استدل ذلك أن يلوم أديبنا أخرى ، ليقى نفسه لؤم الأعداء الذين
يسرهم أن يكون كريماً إذ يقول تحت عنوان « اللؤم سلاح » •

يسر صديقي أن يراني مبـراً
من اللؤم موسوما بكل سماح

• (٢٨) ديوان العقاد ص ١١٢

• (٢٩، ٣٢) ديوان العقاد ص ١١٣

• (٣٠) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٢

• (٣١) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٨

• (٣٣) شرح المعلقات المسح للزوزنى ص ١٠٣

• (٣٤) ديوان العقاد ص ١٠٤

كما سر خصما أن يراك أمامه
 تنزله حربا بغير سلاح
 هو اللؤم سيف اللئيم وجنة
 من الناس والدنيا مجال كفاح
 فوها لنفسي في المجال مجردا
 أضعت مجنى بينهم ورمساحي (٣٥)
 ويذول في مقطوعته « بمن تثق » اتى دور معانيها في هذا الخلق :
 ثق بالرديلة تلقها
 في كل حين حاضره
 ان الفضيلة قلمها
 تلقاك الا عابره
 حتى الأقاويل غرضه
 لهوى الهنت النادرة
 ما كل يوم يرتجى
 عطف لنفسوس لطاهرة
 ومن النوادر أن ترى
 عند القطف قسادة
 من لم يدر في دهره
 دارت غايه الدائرة (٣٦)
 والخبائه في رأى العقاد متأصلة في الجنس البشرى كله :
 قلت لعمرى : خائننى خالدا
 وخائننى عمرو فمأذا أقول ؟

(٣٥) ديوان العقاد ص ٨١ .

(٣٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٢١ .

أبلغتها زيدا فما زادني
 عن صاحبيه فاحتواني الدهول
 ناجيتني سرا وبى خيفة
 ممن أناجيه ففيه فضول
 ثق من خيانات بني آدم
 أذن وقل أنتم ثقات عدول
 لا تشك هذا عند هذا ففى
 هذا وهذا عنصر لا يجوز
 كل بني الدنيا ومن بينهم
 أنت قروع جمعتها الأصول (٣٧)

ومن ثم يرى العقاد أن أقصر الطرق للسلامة من الناس هو
 الاستغناء عنهم لأن تبادل اللوم والعتاب بين الناس وليد افتقارهم
 لبعض :

أنا لا ألوم ولا ألام
 حسبي من الناس السلام
 ليس العتاب بمصلح
 خللا توارثه الأنام
 أنا إن غنيت عن الأنا
 م فقد غنيت عن الملام
 وإذا افتقرت إليهم
 فاللوم من لغو الكلام (٣٨)

(٣٧) خمسة دواوين للعقاد ط الهيئة المصرية للكتاب ص ٣٢١

(٣٨) ديوان العقاد ص ١٢١

وإذا نعود الناس منك خيرا فياك أن تخونك الخاروف يوما ، فقد
صار حقا لهم لو هنته حسبك ، أما اذا تعودوا منك شرا فأهملتهم
يوما شأنهم يثنون عليك ويشكرووك :

من عود الناس خيرا طابوه به
كأنه الدين يلوى بالمعاذير
ومن تعقبهم شرا فأهملهم
يوما تقبل منهم أجر مشكور
لا رأى الناس في نفع ولا ضرر
وما لهم قط من حكم وتقدير (٣٩)

ويوازن العقد بين عطائه القيمي والفكري الحاد ، وعطاء غيره
امسادي الفاسي وكيف كوفي عطاء الناس بالموارنة بعطائه في قوله :

أعطيتهم لؤلؤا حرا فحين رأوا
صغيرة منه صاحوا : أي افلاس
وجادهم بالحصي غري فحين رأوا
خريزة غيه قالوا : أكرم الناس (٤٠)

ومثل هذا كثير من القصائد والمفطوعات ، مثل « الظن » (٤١) ،
« سر في طريقك » (٤٢) ، « الدم الصامت » (٤٣) ، « طباع مكشوفة » (٤٤)
وغيرها .

-
- (٣٩) حمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .
 - (٤١،٤٠) خمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .
 - (٤٢) السابق ص ٣١٨ .
 - (٤٣) السابق ص ٢٠٧ .
 - (٤٤) السابق ص ٢٠٦ .

والعقائد بعربيته النفسية ، ونقدته الاجتماعي لأبناء محتمة ،
لا يتوقع منه أن ينظر سهره في زمن أصبحت الشهرة والمشهورون فيه
مواطن اتهام ، وهو الزمن الذي عناء بقوله :

صعد اللثام الى ذراه فقهقوا
ان القروء لبالسلق أخير
وبقدر ما بذل امرؤ من قدره

يرقى فأكبر من قراء الأصغر (٤٥)

وهو في البيت الأول يرسم صورة للثام عصره ، وهي صورة
كاريكاتورية ساخرة اذ رأهم قروءا يتسلقون نحو الذرى وهم بقهقهون ،
ولا شك في أنه تنال في هذه الصورة أمثالها على ابن الرومي شاعر
الأثير .

وفي رأى العقاد أن الدهر الذي يحيف على عظمائه ، لا يستحق
منهم أكثر من أن يتعلوه ! وأن الشهرة اذا غدت سلعة يحظى بها من
يعذل لها العرف والتندر والكرامة ، فتعسا للشهرة والمشهورين :

دع الشهرة العوزاء تقتاد غافلا
على حكمها يجرى وان طاش أو ظلم
اذا الدهر لم يعرف اذى الحق حقه
فللادهر عندي موطىء النعل والقدم
اذا جاز بيع الذكر في شرع أمة
فلا كان من ذكر ولا كانت الأمم (٤٦)

أما نتائج هذه الغربة النفسية في حياة العقاد ، فقد تمثلت — بعد
أن ضاق بحياء المجتمع — في ذهابه الى الطبيعة الحانية ، حيث ارتقى

(٤٥) ديوان العقاد ص ١١٣ .

(٤٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٧١ .

بين أحصائها ليحضر إلى ذات نفسه عأخذ يضرب في صحراء أسوان
وجبالها ويغيب عن نفسه في فسيح دويله حيث الفضاء المطلق بينهما كان
قلبه يختنق في حدود الوجودات في المدين وزحام الناس .

لذلك خلع على الطبيعة احساسه وفكره . وناحاه واستلهمها ، لأنها
تمتد لديه ينبوع المشعر الحق . ومن ثم صور مفاخرها المختلفه في قوة
وصدق . بذرق عطري سمح ، فتحدثت بين الشمس والرياح والثمار .
كما تحدثت عن رقة الأسقام ، وأنعام الطيور ، وجمال لورود والزهور
بشئى ألوانها ، ومختلف أشكالها :

الشمس تضحك والآفاق ضافية
جلواء وأروض بالأثمار فينان (٤٧)
والياسمين خفوق في جوانبه
والطيور تراثيم رالحسان
في كل روض قري للزهر يعمرها
يا حبذا هي أبيات وسنك
الورد يحمر عجبا في كمائمه
والياسمين على الأغصان ميسان (٤٨)
والبنفسج أمساح ممسكة
كأنه راهب في الدير مخزان
وحبذا زهر الليمون يسكرنا
منهن جام خلا من مثله الحان
والبلبل بحيه والأطيار هاجعة
بلال وشحاذير وكروان (٤٩)

(٤٧) فينان : مشعر .

(٤٨) ميسان : نائم من الوسن .

(٤٩) ديوان العقاد ص ٤١ ، ٤٢ .

ويستطرد الى وصف الصبح والنهار ويتعاطف مع الطيور والنبات
والذيل ، ويعتني للطائر المصري « الكروان » غناء حالدا ويوظف له
ديوانا كاملا هو « هدية الكروان » .

وللعقاد في مباحح الطبيعة والافتتن بها مقطوعات ، وقصائد أكثر
من أن يحيط بها ونظرة الى عناوين بعضها يدلنا على باقيها مثل « وقفة
في الصحراء » (٥٠) ، « الشتاء في أسوان » (٥١) ، « البدر في
الصحراء » (٥٢) . « الطبيعة والحياة » (٥٣) ، « الى ربه الحب —
المزهرة » (٥٤) ، « على شاطئ البحر » (٥٥) « الربيع الحزين » (٥٩) .
« زهر القرنفل » (٥٧) ، « النهر النائم » (٥٨) ، « الورد » (٥٩) ،
ليلة على النيل » (٦٠) ، « زهريات » (٦١) ، « الليل والبحر » (٦٢)
وغيرها ...

(٥٠) ديوان انعقاد ص ٦٠ .

(٥١) السابق ص ٧٠ .

(٥٢) السابق ص ٧٣ .

(٥٣) السابق ص ٧٤ .

(٥٤) السابق ص ٧٥ .

(٥٥) السابق ص ٧٧ .

(٥٦) السابق ص ٧٨ .

(٥٧) السابق ص ٩٥ .

(٥٨) السابق ص ١٠٧ .

(٥٩) السابق ص ١١٤ .

(٦٠) السابق ص ٢٢٦ .

(٦١) السابق ص ٢٩٥ .

(٦٢) السابق ص ٣٦ .

وإذا كانت العودة للطبيعة والتعطف معها والهيام بها من سمات
الرومانتيكيين عندما فشلوا في مواجهة الواقع فهربوا اليها وإلى الخمر
وإلى النساء ، غالذي لاشك فيه أن العربية النفسية التي كانت تعيش
عواطف المقاد ، كانت أحد الأسباب في هيامه بالطبيعة وتعاطفه مع غير
الأحياء من الجمادات والحيوانات ومظاهر الكون والطبيعة .

أما النتيجة الثانية التي أفرزتها تلك الغربة النفسية في شعر العقاد
فتكمن في اهتمامه بالتاريخ واحتفائه بآثار مصر الخالدة وكأنه بعد أن
ضاق صدره بمعاصريه ، لجأ إلى أجدادهم يستلهمهم المعظمة ويستمنحهم
الخلود .

وقد حقق أجدادنا في وادي النيل صناعة التماثيل ، رفعوه ضخمة
مكنة يرى في ضخامتها معنى الخلود ، وغشوا باطنها بالظلام الدامس
فمكسوا على جدرانها ظلام الغيب المجهول ، وأحاطوها بالرموز والأسرار ،
وها هو يقول في « هيكल ادفو » :

دار ابطللمسة الكرام جلالا
زالوا وهذا مجدهم مسازالا
هاقي منحنينا من خلودك نفحة
فنتقول فيك من الخلود مقبالا
واسستفتحى باب الرموز تمسدا
بالسحر لفظا صادقاً وخيالاً
انى وقفت لمدبك أرفع أخصى
: مسدرا وأخفض ناظري اجبالا
فحنيت رأسا في وصيدك ما انحنى
من قبيل الا لاله تعالى

وذكرت قوما فيك لم يشهروا

الا عروشنا ضحمة وظنلانا (٦٣)

فهو يستمنح المعبود الخنود ، بعد أن دخله خاشعا يطلا الأرض بخطو
لأمس وحديث هامس ، وهناك طاب له الحضور محنى رأسه اجلا
واعظاما ، وهو رأس لم يحزن لا لله تعالى وكل ذلك صادق حين يصدر
من العقاد لأن هذه خلأته وذلك تعبيرة ، وتكاد شخصيته تطالعنا خلف
كل بيت .

وفي هذا التيار نجد كثيرا من القصائد والمقطوعات التي يحتفى
فيها بآثار مصر وتاريخها مثل :

- « هيكل الكردك » (٦٤) . « على مقابر الملوك الفراعنة » (٦٥) .
- « تمثال رمسيس » (٦٦) « يوم الحصاد » (٦٧) « عمود فرعون » (٦٨)
- « مدينة الشمس » (٦٩) . « في جنب الهرم » (٧٠) . . . وغيرها (٧١) .

ومن نتائج غربة العقاد النفسية في شعره ، عكوفه على ذات نفسه
بعد أن شقى بحياة المجتمع وخاصة بعد الحرب الأولى التي زلزلت

-
- (٦٣) ديوان العقاد ص ١٤٣
 - (٦٤) ديوان العقاد ص ٢٧٠
 - (٦٥) السابق ص ٣٤١
 - (٦٦) السابق ص ١٩٥
 - (٦٨) السابق ص ٣٧
 - (٦٩) السابق ص ٣٢٨
 - (٦٧) خمسة دواوين للعقاد ص ٤٢٠
 - (٧٠) السابق ص ٣١٢
 - (٧١) انظر خمسة دواوين للعقاد ص ٢٣٣ . ص ٤٦٥ .

القيم في النفوس (٧٢) ، حيث أصيب بمحنة نفسية (٧٣) أثمرت مطولبه الكبرى « ترجمة شيطان » التي تمثل لونا من انترفع على الناس بما تضمنته من عمق الفكر وصلابة المادة المعنوية وعذف الصياغة الشعرية ، وبما تمثله من التمرد المصارخ على نظم الحكم الشاملة والمطلقة .

ونعدها من رمزيات العقاد التي يرمز بعنوانها الى الترجمة لنفسه باعتبارها واحدا من النابغين والعظماء وكيف يعامل في مجتمع لا يقدر مواهبه ، ولا يتجاوب مع قيمه الفكرية المعنوية . ولعل في تكرير كلمة « شيطان » ، في العنوان ما يدل على أنه واحد من جماعة أهدرت حقوقهم وضاعت مشاعرهم وسط أكداس الظلام .

لذلك جاءت القصيدة « مصوره حير تصوير » حالة الفنان الحر ، في وطن تكاثرت فيه القيود وتعاقبت عليه ألوان الاستبداد .

وفي القصيدة لشي لا يستطيع تحليلها لطوبها وعمقها — ترى حيال العقاد يخاف هذا الشيطان في فزع الجحيم في وقت اشتد ظلامه ، ويصعد معه الى السماء . ويهبط الى الجحيم مرة أخرى ، ويأذن له أن يمارس مهمته في اغواء الناس ما استطاع .

قال كوكبي محنية للأبرياء

فأطاعت ! يا له من فاجرة

ولو استطاعت خلافا للقضاء

لاستحقت منه لعن الآخرة (٧٤)

(٧٢) مجمع الأحياء للعقاد مكتبة عريب ص ١٦ .

(٧٣) انظر المسجل الى شعر العقاد ط (١٩٧٤) ص ٢٨٦ .

(٧٤) ديوان العقاد ص ٢٤١ .

نعم ! للأبرياء هم الذين ييجح بينهم الاضلال ويروج الافساد ،
أما الأشرار فقد غنوا عن غوايات تطيعهم المسقوية ، والشاعر يرسم هنا
صورة لبطش الحاكم بمن يوالوهم ممن يؤثرون احراجهم من رجالهم ،
فيأمر الحاكم أحدهم بأمر يكون في تنفيذه ثورة للناس عليه ، وفي تعطيله
تمرد على الحاكم وعدم تنفيذ أمره مما يستوجب عقابه .

وهن ثم كان شديدا أمام الشيصن ، أيعصى له فيكسب رصا
البس أم يطيع الله ويخسر الناس ، وفي كلنا الدالين هو الخاسر
الضال فكان أن أطاع ، وبدأ رحلته ببلاد الزنج فاحتقرهم وترفع بنفسه
عن أغوائهم ، وطوف بالأرض حتى بدر الروم أو بحر المعجم وهناك
استطاع اضلال الناس بأن أخرج لهم شيئا سماه « الحق » وبسب
هذا الحق قتلت للناس ، وفسدت الحياة فسادا مريعا ، حيث برر به كل
إنسان سلوكه ، فالضعيف يبرر ضعفه بأنه من أجل الحق ، والقوى
يبرر اعتدائه بأنه من أجل الحق . . وهكذا وبعد أن أناب الشيطان عنه
هذا « الحق » في اغواء الناس ، خلد هو الى السكون والراحة :

ورمى أول فسخ فأصابا
ودعاه الحق واستلقى قنسام
وأناب الحق عنه فاستجابا
فأذا الحق لجسج واختصام

نلاحظ هنا أن الشيطان يوظف الحق ويستخدمه ، وهي رمزية
تعنى الكثير في فكر العقاد الذي لا شك في أنه كامنا وراء الشيطان في
كل تصرف .

وهكذا يطل هذا التجديف الفكرى الهائج والقانط من الحياة
والأحياء الى نهاية القصيدة التي تقع في مائتين وعشرين بيتا .

وبمسد ...

فإن عكوف العقاد على ذات نفسه ، ومحاولته نحت هذه الصورة
وأمثالها — وهى صور تتم عن عمق الفكر والتمكن من اللغة وطرائق
استعمالاتها — تعد احدى النتائج التى أثمرتها الغربة النفسية فى شعوره،
فابتعد عن الناس بقدر ما تحصن داخل أسوار نفسه متخذاً من إمكاناته
الفكرية الهائلة وسائل بديلة يعايشها بدلاً من الحياة والأحياء .

قصيدة «السيفينة والطوفان»

شعر الدكتور صابر عبد الدايم

تدليل ونقد الدكتور / محمد على داود

أستاذ الأدب والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بدمنهور

القصيدة :

قال تعالى . « حتى اذا كنتم في السفك وجرين بهم بريح طيبة
وغرحوها بها جاءتتها ربح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » *
واصل السمر يا سفينة نوح
ربانك الذى غاب حى
مزقى ظلمة الخطوب وصدى
زحفها واحمى عزك السردى
وأبىدى الطوفان فى عنفوان
يحسر الموج عن حماك الفتى
لم يزل شاطئ الأمان بعيدا
دون مرمك كل عمر زكى !
انها رحلة الكرامة فامضى
واصرعى اللج بالصمود القوى
واعصرى العزم ثورة واحتسبها
ثم شبقى طريقك الأبدى

يمدى اليأس من خطاك وسيرى
 نخبو فجر الكرامة العبقري
 ضمدى الجرح ليس يعصم إلا
 وحيدة الصف للثرى اليعربى
 خفت غدر الطوفان أن يغرق الأ
 بناء فى ليل فرقة عصبي
 جبل الجودي اعتلاه ضباب
 وجليد أحفاسه عن ناظرى
 وأرى فى الأفق أشباح يأس
 وشراع الرجاء عنها قصى
 وبشير السلام لم يأت بالزى
 ترون بل حياء بالخلاف العمى
 فى يديه حقيقة نام فيها
 سر مأساتنا البعيد الخفى
 دار فى كل محفل ينشر الآ
 راء مثل المشك المسرحى
 جاء فى جولة وعاد لأخرى
 ثم ذابت وما قضى أى شى
 وكأن السلام ظلك كلام
 يقتصداه ضواء خطبوعتى
 وكأن السلام عذراء تمشى
 فى طريق الأشواك بين العمى
 مسار العوبة تحركها الأظما
 ع فى مسرح الأسنى المسمالى
 باسمه صار موطنى الحزن فى
 بئر الصراع المدمر الدموى

فاذا الويل ميسه ينهش كالدثب
 المدي راح ينهش الادمسى
 في ثرى « هورشميم » صاحبت ألوف
 من قضى عرضيه فهو حى
 ودماء الشهيد فى كل شبر
 أنبتت دوحه الغد الماحى
 لم تزل تحرق المأس رياضيا
 شوهتها خسروب عصر غبى
 عشش الذر فى بطون العذارى
 فاذا بالجنين غير مسوى
 أى ذنب جنسها طفل برى
 فسرى بيننا بوجه شقى
 ربما عسائق الوجود كسيحا
 أو ضريرا أو ذاهلا أو عيى
 أو بأنفسين أو بخمس أياد
 أو برأسين أو بلا أى شى
 انها وصمة العلوم ووجه الـ
 عقل فى درب فكره التشرى
 سلم فى الحياة غير شريف
 شياهه من دم الضعاف القوى

* * *

هذه الروم فى السياق مع الـ
 قرس وكل مضارع ثعابين
 ان يقدم جنى فقيمه سيموم
 أو ينسأصر فنصيره لولبى

كم على العسرب صب نار هلائ
 ومحا نشوة ابتهاج هنى
 كم بيسيرت وزع الميت حتى
 شهد الطفل حقه وهو حى
 وفلسطين في يديه تلوى
 في قيامة من الدمار المعنى
 انهب في سوق السياسة بيعت
 ثم منوها بانعتاق بهى
 فاذا جنة الامانى لهيب
 واذا الضوء للذبح محلى
 واذا التفسير كالامانى سراب
 واذا العز في الثرى منسى
 واذا غلبة الضياع تهز الـ
 فلك هزلا مباغتيا هتلى
 فتهدى الشراع والفلك غاصت
 في محيط الاسى العميق الاتى

* * *

واذا بالسواء يرفع به الربى
 بأن في ممة الجسور الكى
 بدأ المسير والسفينة أشـ
 لاء بلا دفعة ومجرى سوى
 أصبح الفلك والشراع لديه
 أمل أخضر وصبح ندى

* * *

فانهمى يا سسفينتى لا تقولى
 مات نسوح وجف عطرى الشذى

كل من فيك أنضجته المآمي
 فارتدى ثوب ثأره اليمبري
 وتحدى الرياح في عنفوان
 وصمود يقبل عزم الدعي
 عبر موج الصعاب أنا سبحنا
 نبتغي شاطئ الأمان الأبى
 واتخذنا الصمود مجدا
 فثنا السائح مد الهزيمة الهمجى
 ونسجنا الآمال أشرعة دا
 مت بأفق المستقبل الشاعري
 فعدا نلتقى على قبة المع
 راج ثجنى انتصارنا الأبدى
 ونقيم الصلاة في المسجد الم
 أقصى سراج الهدى ومسرى النبنى
 وهنا يا نسفینتی أحضن الآ
 مال اذ هبت بالحياسة على
 وأنادى هواك ملء فؤادى
 يا بلادى وكل شيء لىدى
 تد عشقت الهوى وأنت هوايا
 فاسلمى وانعمى بنصر هنى

تخليل ونقد السفينة والطوفان

الدكتور صابر عبد الدايم شاعر ذو شخصية نهلت منذ نشأتها من
 معين الثقافة الإسلامية : انقرآن الكريم الذى حفظه فى كتاب القد رية
 والسنة النبوية الشريفة .

كما استقرأ التاريخ العربى والإسلامى وضم الى ذلك الادب المثر
ما قرأ من رياض التراث العربى يقرؤه ويستجليه فكرا وفنا وتذوقا
ويستنهض منه الذى يروق . كما يمكننا القول انه ضم الى هذا التكوين
المنهجية والعمق ، يتضح ذلك اذا ما وقفنا على نشأته فى أحضان
الأزهر الشريف الذى فيه بدأ يتألق يوم أن كان يتولى الشعر طالبا فى
معهد المرقارى الدينى يبال اعجاب مشايخه وتشجيعهم وحبهم ، وكم
نال الجائزة الأولى فى المسابقة الشعرية آنئذ .

ونجد توح هذه المسيرة التى حث تحيا معه نهضة فى كل اتجاه بما
يمدها من مصادره فوجها بقدرته انفيضة فى هذا المحرر بمسيره
الأكاديمية التى هيسأت له ان يعيش مع الشعراء والأدباء فى جولامه
البحثية القيمة وحبه لكل ما يتصل بهذه البوابة الفلسفة التى تجمع
فرسان الكلمة من الأدباء والشعراء والفقهاء . فكم من مهرجانات تشهر
أقامها فى جامعة الأزهر بالمقارنات كما شارك فى الكثير من المهرجانات
الشعرية المصرية .

كما قرأنا فى ديوان له قصائد تنادى بوحدة الصف العربى تحت
لواء الإسلام ، ويبرز فى بعضها دور المرأة منذ ظهور الإسلام ومسلم
ما قدمته لقومها وعروبيتها وإسلامها من هذه القصائد قصيدة «أبى الطريق
المبك » التى ألقاها فى مهرجان الشعر الأول بكلية اللغة العربية بالمقارنات
عام ١٩٨١/١٩٨٢م .

واذكر من هذه القصائد واحدة بعنوان « أسماء الثورة ولعطاء
والتحدى » فلا عجب اذا عندما نطالع له قصيدته التى عنوان لها
السفينة « الطوفان » ولا عجب أبدا عندما نقف على استلهامه الروح
الإسلامية فى القصيدة .

ولعله أراد أن يؤكد لنا هذه الانتمائية فكان البدء ببعض من الآية
الثانية والعشرين من سورة يوسف : « ... حتى اذا كنتم فى الفئ

وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج
من كل مكن * * » والتقى بسير لى روح المعنى الذى دارت حوله هذه
القصيدة التى مطلعها :

واصلى المسير يا سفينة نوح ان رباك الذى غلب حى
وبذور القصيدة تتركز فى نظرة الشاعر للعميقة الموارية الى هذه
المرحلة المدرجة من قارح العرب وموقفهم من عدوهم وما هم فيه من
قتلت وتمزق وما تعكسه المواقف المحزنة مع كل فجر جديد - ولا زال
- من انتكاسات واتساع لهزة الخلاف فى كثير من الأمور الممزقة
لوحدة الصف العربى مما يذهب ريح العرب ويؤدى الى استنعار
الخلاعات التى تؤدى فى النهاية لى لتردى فى ليل الفرقة العسبى
فتتمزق الأرض والكرامة بين مخالف الضياع ونخفت البقية من اشعة
الأمل بين أشباح اليأس ولا يكون بعد غير اليأس الذى يقطع كل خيوط
الرجاء ، وهذه الحالة لا مخلص من شرها ولا منقذ من ضياعها لا الله
بحكمته وقدرته •

فالشاعر يرى أن لعرب أصبحوا فى حالة من اليأس تشبه حاله
اليأس التى كان عليها نوح عليه السلام حين دعا قومه بخل السبل
والمرسل ليل دنهارا فلم يستجيبوا ، ولم يكن الا ما أرادله الله حيث أمره
أن يصنع السفينة برعية الله ويحمل فيها من كل زوجين اثنين واحدا ،
الطوفان وكانت القصة المذكورة فى كتاب الله عز وجل •

ان هذه المرحلة من التمزق تجاه القضية العربية والاسلامية قد سبى
الشاعر أغوارها وتعيشها فكرا مهزوبا بروحه التى تخفق بحب
العروبة والاسلام حتى صار يرى أن لا منقذ من هذا المصباح سوى
سفينة كسفينة نوح عليه السلام • تحمل ما هو صالح من الحياة
والأحياء وتترك ما بعد ذلك للطوفان ليتبخر فى أوردة الضياع •

— ان هذه السفينة رمز الانتصار المأمول الذى تصنعه يده القدرة

الإلهية ، ولم لا تسير السفينة مادام المبدأ باقيا ، فان نوح عليه السلام قد مضى وأساس دعوته باقى ممثلا فى توحيد الله عز وجل ، وهو بذلك حى فى شخص رسالة التوحيد ، لقد رأى الشاعر أن العرب أصبحوا فى حاجة شديدة الى مثل السفينة المذكورة ليذهب المزبد جفاء ويمت فى الحياة ما يدفع الناس ديننا ودنيا ، ولم لا والناظر الى واقع العرب يرى أنه ما زبغت أنصار من ضارا وما تهزقت وحدة العرب الا من انصرفهم عن العمل بشريعة الاسلام فصرف الله عنهم واثى فى قلوبهم الوهن ، وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله ومستى » .

ومن هنا سلخوا مسلك الهلاك ، فقد أخذ اللجاج بهؤلاء المتمزقين حتى أقصاهم عن الحق فهربوا من مأذنتهم الى مكان سحرق ، فلا ريب أن نسمع الصوت عاليا من الشاعر يقول :

واصلى السير يا سفينة نوح ان ربك الذى غاب حى

وفى سئلتهم الشاعر لهذه الصورة من فحصة نوح رمز لقوة لانتهية المخالصة من الحالة التى تردى اليها العرب من تفرق وتمزق تجاه تدوهم وما يصنعهم كل يوم من امراء للخلافات وفى ذبياع عصر الاخلاص تتوسع هوة الخلافات حتى باتوا غشاء كذباء المسيل أمام عدو سرس توازره قوى الضلال والشقاء والبغى من كل جانب .

— واذا كانت سفينة نوح عليه السلام سببا آخر لنجاة المؤمنين وما معهم مما أمر الله نوحا بحماهم معه ورعايته فمثل ما يعذبه بها فى قصيدته السبب الأسمى الذى من أجله نجى الله هؤلاء ، انه السير على الطريق المستقيم فكرا وسلوكا والتمسك بالشريعة العراء : الكتاب والسنة قولاً وعملاً ، وبذلك تتحقق لهم الوحدة والمصروف الله عز وجل يقول : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ويقول فى محكم آياته « ولينصرن الله من ينصره » .

— بها سفينه يرجوها ، تسير لتسير همرقه ظلمه الخطوب ولتند
زحف الطغيان وفتحى المعر السرمدي ونبىد الظلم و ليأس عن الحمى
العربى يقول :

واصلى السسير يا سفينه نوح
ان ربك الذى غاب حى
مزق ظلمة الخطوب وصدى
زحفها وأحمى عزك السرمدي
وأبيدى الطوفان فى عتفوان
يحسر الموج عن حماك الفتى
وبالنظرة اسافذة والبصر الثاقب يؤكد فى عزم واصرار مطلبت
المسيرة مر حسر ووزيمة وصمود شاطئ الأمان ما زال بعيدا والوصول
ألبه ينطب تدمحية بالدماء الزكية ، ولم لا نضحى فى سبيل رحلة
الكرامة متسلحين بالصمود و لعزم موقنين أن فى ذلك المعزة كل المعزة
والكرامة كل الكرامة • يقول :

لم يزل شاطئ الأمان بعيدا
دون مرساك كل عمر زكى
انها رحلة الكرامة قاصى
واصرعى اللج بالصمود القوى
واعصرى العزم ثورة واحتسيها
ثم شقى طريقك الأبدى

ان هذه المسيرة المباركة التى يرجوها الشاعر سنبعد اليأس من خطى
العرب وسنسير بهم نحو فجر الكرامة العبقري وستضمد الجراح ،
ولا ريب أن البعث لهذه المسيرة يتمثل فى اتحاد الضمير العربى واتصاف
العرب جميعا بحبل الله ، فالتقوة والعزة كل المعزة فى الاتحاد والتمسك
بحبل الله المتين • ومن هذا المنطلق يهيب الشاعر بالسفينة قائلا :

بجدي اليأس من خطاك وسيرى
 نحو فجر الكرامة العبقري
 ضمدي الجرح ليس يعصم الا
 وحدة الصف للشرى العبقري

وبهذه الأساليب التي حمى رجاء الشاعر في نوبه المثالي يقدم
 صورة لأهميته التوقفة الى سر السفينة التي هي رمز للمطلب السالف.
 ينجأ اليها في ثورة اليأس بحثها على اسراع الخطى نحو تجسيد آمله
 القومية . ثم يحيم شبح اليأس أمام ناظريه فيستنطق السفينة في هذ
 الحوار تقول على لسانه :

خمت غدر الطوفان أن يفرق الـ
 أبناء في ليل فرقة عصبي
 جبل الجردى اعتلاه ضباب
 وجليد أخفاه عن ناظري

وبعد أن يستنطق الشاعر لسفينة لتعكس فكره ونظيره رثيه الذي
 يؤخذ في هذه المحاربات أن البعض الأول في ضعف العرب هو تمزقهم
 يتوجه بفكر مركز حول مرحلة من مراحل التاريخ المعاصر للأمة العربية
 مسحلاً تأملاته حول هذه المرحلة صاب جام عضه على بعض من كان لهم
 أثر بارز في هذه المسيرة . والتي ثلت حرب العرب مع اسرائيل ١٩٧٣ من
 أحداث كان على اثرها اتفاقية بين الجانب المصري والجانب الاسرائيلي.
 والشاعر في هذه الفكرة يقف ازاء شخصية معينة يعرض ذلك في صور
 متلاحقة من السخرية التي تنقطر من خلال التصوير والتعبير موصفاً
 بدم الحدي مما كان دحماً لآباء كل ما يهوى في الحو العربي من أعاصير
 التمزق يقول :

وبشير السلام لم يأت بالزيتو
 ن بل جاء بالخلاف العصي

في يديه حقيقة نام فيها
 سر هاستاتنا العبيد الخفي
 دار في كل محمل ينشر الآرا
 ء مثل المحمل المسرحي
 جاء في جولة وعاد لأخرى
 ثم ذابت وما قضى أى شئ
 وكان السلام ظل كلام
 يتحداه ضوء خطو عتي
 وكان السلام عذراء تمشي
 في طريق الأشسواك بين المعصى

ان ما أتى به المتحدث عنه - في نظر الشاعر - جعله في موطن
 السخرية ، كما صار العوبة في بيد الأطماع يستهزأ بها ، فقد تردى موطن
 الشاعر - بما فعله بشير السلام - في ليل فرقة عصبى . يقول :

صار العوبة تحركها الاطماع في مسرح الأسمى العالمى
 باسمه صار موطنى الحرفى بئر الصراع المدمر المدموى
 ويرى الشاعر أن بشير السلام صنع بعمله الهلاك الذى راح
 ينهش الناس من كل جانب ويمرو صرح حياتهم ، يقول :

فاذا الويل ينهش كالذئب

السذى راح ينهش الأدمى

وبعد هذا بخلق الشاعر بفكره منتقلا من الجو الوطنى الى الأجواء
 الإنسانية ، انها نقلة من الخاص الى العام ، من الحديث عن المسألة
 التى ألت بالوطن الى الحديث عن المسألة التى ألت بهيوشىما في
 الحرب العالمية الثانية وما خلعت من آثار أتت على الكثير من سكانها
 وامتدت حتى لازالت تلم بالأحباء بما فيها ، من فيها ما بين حريق يقضى
 على رياض الحياة وآخر يشوه وجه الحياة يعيش في بطون العذارى ،

بلاحي الأجاس في البطون حتى سرف مري امساطا من التشويبهات
المتلاحقة

يقول الشاعر :

في نرى هورثيم صاحبت الموقف
من قضى عرضيه فهو حي
ودماء المتهديت في كل شبر
أنبتت دوحه الفساد المحمي
لم تزل تحرق الماسي رياضها
شوهتها حروب عصر غبي
عشعتس الذر في بطون المذارى
فاذا بالجنين غير سوى
أي ذنب جناه طفل بريء
فيرى بيننا بوجهه شقي
أو بأنفيسن أو بخمس أياد
أو برأسين أو بلا أي شي

ان ما حدث في هين وشيما يمثل وجه الحضارة المظلم ووصمة
العلم وانحراف الفكر الى الوجه القتري ، وهذا سلم غير شريف ساء
الأقوياء من دماء الضعفاء ، يقرر هذا فيقول :

العقل في درب فكسه القتري لها وصمة العلوم ووجه
سلم في الحياة غير شريف شاده من دم الضعاف القوى

ثم يستعرض الشاعر التاريخ ليدكر بطبيعة العدو على امتداد
الأزمان مذكرا بما شهدته التاريخ مما كان من خداع الروم والفرس
للعرب ، هذا الخداع الذي يقدمه لعدو في ألوان براقه ظاهرها في
بعضه النفع بينما يخفي تحته السم الزعاف ، كما يشير الشاعر الى

بعض الألياب العدو وأحببنا بناصر فريسته على غيره ليتولى هو
ازدرادها وحده ، يقول :

هذه الروم في السباق مع
الفرس وكل مضادع عبقرى
ان يقدم جنى فففيه سموم
أو يناسر فنصره لولبى

وهذه بعض صفحات التاريخ التى تطالعنا ببعض مما صب على
العرب من نيران الهلاك وما وقع عليهم من اعتداءات ، وصفحات التاريخ
نفيس بما يؤكد لئلا من ينفق أدنى تأمل أن قول الله الكريم « ولا تؤمنوا
إلا لمن تبع دينكم » حق لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
وكان ينبغى أن يفهم هؤلاء هذه الحقيقة وأن يتنبهوا للألياب الأعداء
وخدائهم ، ومن يتصفح تاريخ الحروب بين لعرب وأعدائهم يقرأ فى
كل حرب من هذه الحروب شاهداً على تأصل الغدر فى أغوار الأعداء .
يقول :

كم على العرب صب نار هلاك
ومحافشة ابتهاج هنى

ولا يزال العدو يذيق العرب والمسلمين الموت المزمزم فى كل مكان
فى العالم ، ألم يكن هو الذى دس سموم المارقة والحلاف بين العرب
من قديم ؟ ألم يشعل نيران الفتنة فى كثير من بلدان العرب والمسلمين
كما هو الحال فى بيروت ؟ ألم يقتحم كل الحرمات ؟ وها هى ذى غاراته
ونيرانه التى يقضى فيها على كل شىء حتى شاهد الطفل مصرعه وهو حى .

كم ببيروت وزع الموت حتى
شاهد الطفل حتفه وهو حى

وها هى دى فلسطين كبر شاهد على وحشية العدو وجبنه وغدره
فقد ازدرده منذ قرابة نصف قرن فاعتصم أرضها ، ونسرد أهلها وحطم

— ولا زال يحطم مقدساتها وأذى الكثير من أهلها لتتسريد والموت
والذل والهوان بـ سياسة غدرد وخيانتة وطغيانه حتى راحت فلسطين
تلوى في يديه •

يقول :

وفلسطين في يديه تلوى
في قبسود من الدمار العتي
انها في سوق السياسة بيعت
ثم منوها بانعتاق بهي

وكم من امن راودت منها و لعرب هم وادبها الاعيب الغدر
والخيانة حتى عدت الأمانى لهيبا كما غذا النصر سراپ •
فاذا جنة الأمانى لهيب

واذا العز في الشرى منسى
ومرة أخرى يعود الشاعر الى الحديث من أن هذه المسيرة على
المسفينة التى يعنى بها الشاعر — كما يبدو لى — رمز المصمود والتجمع
والقوة التى نعمل للنخلص من مخالف الصباغ اذى ينوش فلسطين
والفلسطينيين وهذا فى حد ذاته ترد للعرب أحمرين ، هذا الضياع
نيران تهب على السفينة فتهاوى من حديد وتعمون فى محيط الأسى ،
نسمعه يقول :

واذا غضبة الصيغ تهز
الفلك هزا مساعدا هتلى
فتهاوى الشراع والفلك غاصت
فى محيط الأسى العمى الأنسى

وينقل الشاعر عن بعد ملك سحابة من حنة الدقة التى لاهت فى

الأفق أثر ما أحاط بفلسطين والقدس من سوء فوق ما كانت عليه في السابق حيث استباح اليهود قدسيتهما •

هذه الیقظة التي بدت واضحة في الأجواء العربية محسوسة عرماً وتصميماً وتضحية بين الفلسطينيين ترى واضحة في أبنهم وبناتهم قلوبهم • كما يقف العرب معربين عن اللحمة القوية في هذه المساندة ما بن مساندة بالكلمة أو بسواها •

وليس بعيد أن يكون هذا الحديث عما حدث من رباهما • ففت رفع اللواء في همة الجسور وشجاعة الكمى • يبدأ السير غير أن الأمور لا تستقيم والسفينة أشلاء • ولعله يرمز بذلك إلى افتقاد العرب للوحدة المصاهرة من القلوب وحدة الضمير • فالكلام كثير والشعارات أكثر والروح في ذهول وغيبية فكيف المسيرة والأجزاء في تبعثر •••

ولعل لا أكون بعيداً عن الصواب إذ قلت أن المقطع الرابع الذي يقول فيه الشاعر :

وإذا باللواء يرفعه الربن
في همة الجسور الكمى

معبراً فيه الشاعر عن ارتفاع اللواء يعنى به القائد الفلسطيني الذي بدأ يتحدى كل الصعاب قوهره نفسه فدية لأرضه وراح يرفع اللواء وبدأ المسيرة في وقت ضاع فيه التثام شمل الجميع تحت لوائه حيث اختلفت مرئيات بعضهم عن رؤيته فتفرقوا أشلاء • غير أن عزمته لم تكن بل ظل يقود السفينة غير آبه بما يعوق المسيرة من رياح قاسية وأمواج عاتية حتى أخذ الحمم يتسرب تحت لوائه وينخرط تحت طاعته حتى سرت الحياة في خلايا أهلهم من جديد وراحوا يرتقبون الصبح الفدى •

واذا بالهواء يرفعه الربان
 في همة الجسور الكمى
 بدأ السير والسفينة أشلاء
 بلا دفعة ومجرى سوى
 أصلح الفلك والشرع لديه
 أمل أخضر وصباح ندى

— ويتوجه للشمار داعيا للعرب الى التماس الصمود والأمل
 يحدوه ، أنه يدورهم رغم كل الصعاب ، فنقد اتضح الأمر جايا وجنى
 الجميع ثمرات التجارب وقرأوا ما فى الفرقة من ضياع لهم ، وبدأت
 واصحا أنه لا سبيل سوى الاتحاد وأن يلبيس الجميع ثوب النار اليعربى
 يتحدون كل المعوقات فى عزم وصمود يبتغون شاطئ العزة يتخذون من
 الصمود مجدافهم ومن الآمال شرعتهم *

— وتترى للشمار الآمال الدية دية من الثورة والشوار حتى
 رح يعد آماله دلى اللقاء عند قبة المعراج ينثرون التهاني بهذى الجنى
 العظيم مقيمين الصلاة فى المسجد الأقصى المبارك ، يقول :

فانهضى يا سفينتى لا تقولى
 مات نوح وجف عطرى الشذى
 كل من فيك أنضجته المآسى
 فارتدى ثوب ثأره اليعربى
 وقهى للرياح فى عنفوان
 وصمود يفل عزم الدعى
 عبر موج الصعاب انا سبحنا
 نبغى شاطئ الأمان الأبقى
 واتخذنا الصمود مجدافنا
 الساق مد لهزيمة الأوجى

ونسجنا الآمال أشرعة حامت
 بأفق المستقبل الشاعرى
 فغدا نلتقى على قبسه
 الممرج نيجنى افتصارنا الأبدى
 ونقيم الصلاة فى المسجد الأقصى
 سراج المهدي ومسرى السبي

— ويتراءى الأمل الذاتى للشاعر عندما ترفرف رايات النصر
 وتتحقق اللقيا فيمائق هذه البلاد التى غصن فؤاده بهواها وعشقتها حتى
 صارت هواء د عا لها مستقرار الحياة فى ظلال السلام والنعمة والخصر .

يقول معبرا عن ذلك :

وأنادى

هواك ملء قسؤادى
 يابلادى .. وكلشىء .. لدى
 قد عشقت الهوى وأنت هوايا
 فاسلمى وانعمى • بنصر هنى

★ ★ ★

المعنوان « السفينة والطوفان »

ستطاع الشاعر باختياره هذا العنوان أن ينسج حوله أفكاره
 التى أكد بعضها بالتقاريف فى دوائر جديد ، سلافند وظف السفينة قريظينا
 بارعا ومساعدته على ذلك اندماج أفاق السعيبة مما جعله يحملها تيارات
 فكرية مجسدة ما فى أيمان الشاعر وهو جهة نحو هدف واحد ، لقد راح
 يعنى بالسفينة رمز التجمع الصالح والتدخل الإلهى قارنه وتارة أخرى
 يعنى بها الالتفاف حول الشريعة الإسلامية التى فيها المنقذ من هذا
 التمزق ، وثالثة يعنى بها الصمود والخلاص •

وبهذا المنحويح استطاع أن يهيم دواها أنماطا من الفكر المناسب
الذى أثرى التجربة وفتح له باب الحرية ليهاورها فى كل اتجاه وهو
بعيد عن حرج المباشرة الذى يؤدى الى الابتعاد عن تفريغ الشحنة
والاسترواح الى الحد الذى يريحه *

بين طوفائين :

لعل لا أكون بعيدا عن الصواب اذا قلت : ان الشاعر يقصد فى
قصيدته بكلمة الطوفان التيارات المعيقة لجمع الشمل العربى المبددة
للاتصارات والعاهلة على كل ما من شأنه بث الفرقة والعداء بين العرب ،
هو تثير هدم بينما هو فى سفينة نوح مسخر من الله للجانبين ظهرت
فيهما حكمة الله وقدرته : مسخر لدهل السفينة بمن فيها وما فيها لتجلى
قدرة الله وحكمته و ارادته فى انجاء هؤلاء ممن آمن به من ناحية
وم تصالح به حياة هؤلاء من مخلوقات أخرى ومن ناحية أخرى مسخر
لاغرق الكفار ممن لم يستجيبوا لنداء نوح ودعوته عليه السلام ،
فلا تناقض بين السفينة والطوفان ففيهما تتجسد القدرة الالهية والارادة
فى حسن ووضوح *

لكن السفينة فى القصيدة بكل ما تحمل من رمزية تعمل لاداة
الطوفان الغادر الذى هو من كيد الشيطان وأوليائه كما تهدف الى
النجاة الى البقاء ... الخ * ورحلتها رحلة الكرامة ، تقرأ للشاعر
هذه الجزئيات الحيارية .. وأبيدى الطوفان فى عنفوان ... ، إنها
رحلة الكرامة فامضى ... ، كما تظهر رسالة السفينة فى القصيدة فهى
تمزق ظلمة الخطوب ، وتتصد الزحف وقحمى العز السرمدى ، وتبديد
اليأس ، وتتصد الجراح الى غير ذلك مما هو مذكور فى القصيدة *

الفكر في القصيدة :

دارت القصيدة حول فكرة عامه شغلت — ولا زالت تشغل — العرب والمسلمين ، انها حالة العرب تجاه عدوهم الذي اغتصب أرضهم واستحل مقدساتهم أو القضية العربية بشكل عام والفلسطينيون بشكل خاص كما تضم ما يتصل بذلك من حروب العرب مع المغتصب وما ترتب على حرب ١٩٧٣م من اتفاقية « كامب ديفيد » وما تبع ذلك من مواقف عربية بعيدة عن الاعتصام بحبل الله المتين ومن خلال هذه الثغرة الشاملة الغدقة الفسيحة استطاع الشاعر أن يستوحي صفحات التاريخ وشواهد الماثلة التي أخرجها الشاعر من الجو الخاص الى العام بما حملها من فكر استنطقه في النهاية بالحكمة التي نطق بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا والماثلة في القول الكريم « ولا تؤمنوا الا بما تبع دينكم » (١) وبهذا أصبحت القصيدة ترف بالشعر القومي كما استلزمت الفكرة الكبرى ما يسم البعض من الأبيات بالنظرة الانسانية .

ولقد جمعت القصيدة من الجزئيات التي استلزمتهما الفكرة الجامعة في نظر الشاعر وهي ما يلي :

* ١ — دعوة السفينة لتواصل السير من جديد في حوار شيق بين الشاعر والسفينة • استنطقها بما دار في الأحواء العربية من معونات • وانقسمت الفكرة الى قسمين حسب الحوار الذي دار •

القسم الأول :

يرجو فيه الشاعر السفينة أن تواصل سيرها وتمزق ظلمات الخطوب وامتد ذلك في الأبيات من (١ — ٨) •

(١) صدر الآية ٧٣ من آل عمران •

ألقبهم القشتي :

يستتطق فيه السفينة بما يمنعها من المسير مما يدور في الأجواء العربية من معوقات وأحداث وآثار ذلك كله في أسلوب أحسن فيه استخدام الرمزية ذات الإيحاء المكثف بما حوى ذلك من كناية وتلميح جمع هذا في الأبيات من (٩ - ٢٠) •

ولقد ظهرت براعة الشاعر في عرضه للأسباب السابقة ساعده على هذا قدرته الفنية ، فقد تحدث بأسلوب ذي كثافة من لون معين أعطى به من الأسباب لكل حسب طاقته وفكره وثقافته وقدم هذا في ثوب من الحوار الفني الشيق •

٢ - المخرج على الحرب العالمية وذكر بعض مخلفاتها الشهيرة ، لقد ذكر هيروشيما وضربها بالقنبلة الذرية وثر ذلك الممتد إلى الحاضر والمستقبل ويختتم حديثه عن هذا الجزء بتقرير بمثابة الحكمة وهو أن استخدام العلم والفكر في التدمير « سلم في الحياة غير شريف » ، وأنه شريعة الغاب : (٢١ / ٢٩) •

٣ - التفاته إلى صراعات بعض الأعداء على مر التاريخ واستعراض ذلك بإيجاز يحمل كل عبء من صراعات الأعداء مشيراً إلى بيروت وما فيها من هلاك وقتل يوزع حتى الأبرياء من الأطفال والعجزة ومستعرضاً ما يجري في فلسطين من استنزاف وضيق وغوص في محيط الأسى العميق (٣٠ / ٣٩) •

٤ - التحول والصحو العربية ممثلة في حكمة ربن السفينة الصامد المصلح (٤٠ / ٤٣) •

٥ - « رجاء وأمل » وفي هذه الفكرة يرجو الشاعر من السفينة أن تنهض من جديد معتمدة على من فيها من مجاهدين أصقلتهم المآسى

وكأنه أهل بأنهم سيأتقون بأفق المستقبل الشعاري عندما يتحقق الأمل
بالعودة والمآقاء (٥٣/٤٤) •

« ومما يكن رأيته بوضوح في الأفكار الجزئية » :

أن الشاعر تتل حين سرد لأحداث التاريخ من الحديث إلى القديم
إلى الحديث ، والحاضر ولعله كان مشغولاً بما في عصره غير أنه أراد
التذكير بما تخلفه الحروب من تدمير وخراب أيا كانت ، وفي حديثه عن
الحرب العالمية ما يؤكد ما نذهب إليه إذ نراه يذكر معلماً من مهالكها
التي صارت حديث الناس مذ كانت ولا يزال من خلال الدمار والتشويه ،
واستنزمت طبيعة الحديث عن هذه الجزئية الروح الانسانية التي نراها
في أظفار ما قد تجره من هول وتشويه وتخلف في الودان والذراى
لدخلى إلى الحكمة المقررة أنها وصمة العارم الخ •

وحين تناول الروم في حديثه :

أذكر أبيات ثلاثة يستوحى المقارىء من خلالها مواقف الروم
والفرس مع العرب في القديم ويستلهم التاريخ والوجدان العربى
أوقفيهما وكيف كان كل منهما يسخر العرب في الصدمه وحمايته على
نحو ما كان يفعل المنادرة والغساسنة فقد كان الفرس والروم
يسخرانهما وأو أدى ذلك إلى اقتتال الامارتين معا ، ويذكر بخداع
الأمراء الدائم ومن ذلك نلمح ما حدث في هدنة ١٩٤٨م بين العرب
واسرائيل •

ويمكن أن تكون الرمزية كامنة في لفظتى الروم والفرس ، والروم
والفرس عدوان وهما عدو العرب منذ القدم ، وقد خلا يتنازعان على
المسابق نحر القوة والسيطرة في القديم ، ولا زالت الصورة تتكرر في
المعسكرين الشرقى والغربى ففى موقفيهما ما يذكر بموقف الروم
والفرس وكل منهما •

ان يقدم جنى فففيه مسموم أو يناصر فنصره لولبى

وكم خدع كل منهما العرب والعرب لا يشبهون ، فمضى يكون
لاعتبار ؟ والعدو هو العدو ولا يمدن جنى المعنب من المشوك •

* وهما يتعلق بالأفكار حديث الشاعر بن بشير السلام ووصفه
بصفات تتقاطر سخرية ، وفي نصوري أنه كان ينبغي — تكملة للصورة
الواقعية — ذكره السبب الأول الذى به تردى العرب فى بئر الصراع
الدهوى كما يقول الشاعر ، — فها هو ذا بلغر المشوم ، كذلك ما يشير
الذعر مما يحدث من شدة الشعارات الذين لا يلهيهم سوى در الكرامية
وارضاعها لأبناء العروبة حتى تظل أسواق أربابهم رائجة على حسب
أصحاب الأرض وأصحاب القضية الأواين ، لتد قدم هؤلاء الشدة
أصحاب القضية وجبات شهية للأحزان والافتراس •

* وجانب آخر وهو أنه حين قص الشاعر قصة بعض الحروب
كالفرس والروم لتسجيل المعبرة بعد الذكر والتذكير كان يمكن استغلال
ذلك فى التنويه بنتائج الصراعات بين الحق والباطل فى الأزمنة المغامرة
وأن الحق ينتصر فى النهاية وأن هذه الصراعات كانت مذ كانت الحياة
خلل فى ذلك ما يتوى العزيمة ويدفع الى التصميم على وجه خاص •

الغاطنة والتعبير :

ضمت القصيدة بين حياتها جملة من العواطف التى أسفر عنها
التعبير فى وضوح ، بين قري الآمال الدانية اذ بك تلحظ اليأس يطل من
حلال الحوار ليسجل هذا الصراع الذى يدير بينه وبين الآمل عاكسا
الحيرة التى تجوب نفس الشاعر ، كما تقرأ البغض والاشمئزاز وما
يحرك عوامل المشفقة والرحمة لتصل بعد الى ما يحرك الغضب ويشير
اليأس ثم يرد تبار الآمال المازوجينفس الشاعر ويشع من قلب كل مسلم
وعربى ، وهذه العواطف نابغة من تجربة ذاتية تسيطر على الوعي

الجماعي ، ولذلك جاءت الأفكار أشبه بالمتعددة الا أنها أقيمت حول أساس واحد يربطها وتتجذب الى مركزه .

وهذه العواطف جاءت ممتدة في القصيدة على المنحوتات السابقة وسيقت في أسلوب يتردد بين الحوار والاقرار فلمح هذا في الجزء الذي ساقه لشاعر في حوار رشيق بينه وبين السفينة ومن ذلك « واصل السير .. ، مزق ظلمة الخطوب .. ، أبعدى الطوفان .. ، اعصر العزم ثورة .. ، بددي اليأس من خطبك .. » ويتماوح الأسلوب في الأبيات الثمانية الأولى بين الرجاء والتعليل ليأتي الود في أسلوب حبري يتقاطر حسرة وألماً ، ويتدرج ارد في ثوب من الحوار الذي يتلبسون بالوصف السردى لأحداث التاريخ على لسان الشاعر حين تقرأ له :

وبشير السلام لم يأت بالزيتون بل جاء بالخلاف المعصي

ومن يقرأ هذا البيت الى قوله :

صار العوية تحركها الأطماع

في مسرح الأسى المعسالى

باسمه صار موطنى الحر في

بشر الصراع المدمر الدموى

يلمس وحدة الشعور وتجانس العناصر الفنية في رسم الصورة وبناء العبارة بطريقة قادرة على حمل عاطفة الغضب والسخرية في أنصع ألوانهما .

غير أن القارئ لهذه الأبيات - أيضا - يحس بكثافة السخرية من خلال ذكر المصفت والصور وأبضاً من خلال تكرار المسند اليه احدى عشرة مرة في ثمانية أبيات ، ودلى الرغم من هذا فكل بيت من هذه الأبيات يتضمن صفة تعكس العاطفة من غير أن يضيف الى سابقه تأكيداً بهذا الاحساس .

ولكن من يطالع الأبيات التي يقول فيها :

في ثرى هورشميم صاحبت ألوف من قضى عرضه فهو حى

الى قوله :

سلم في الحدياة غير شريف شاده من دم الضعاف القوى

يرى ان كل بيت يضيف تأكيدا للشعور بالمرارة والاحسرة والاشفاق
كما يضيف تأكيدا للشعور بالألم الممض حتى اذا ما وصل الى بهيمة
المقطع بلغ الشعور منتهاه ، ومن هنا نلمس الوحدة في صورتها المعنوية
والتعبيرية .

وحين يتحدث الشاعر عن الروم والفرس مقررًا حقيقة السالفه
المذكر فراه يمسير على نمط من المخالفة ان يرى وقد بدء بدءًا بتسم
بالعدو الذى يتدرج الى لتكثيف الهادى ، ليأخذ بنا فجأة بنشهد انهيار
للأمانى وتصدع الآمال و لتتردى الى الهاويه من جديد في تصوير
بديع .

ثم تراءى الرمزية التي تحوى من المعنوخ ما يحتاج كشفه الى
فضل من النأمل في صفحات التاريخ ليصل الى الفكر المقصود ، وهذا -
في تصويرى - يهد لود من البراعة في التعبير عن مثل هذه المعانى
التي يقول فيها :

واذا بالسواء يرفعه الربان

في همة الجسور الكمى

بدأ المسير والسفينة أشلاء

بلا دفعة ومجرى سوى

أصلح انفلك والشرع لديه

أمل أخضر وصباح ندى

وهذا عكس ما نراه في نفس القصيدة عند تعبيره المكشوف عندما
تحدث عن « بشير السلام » كما دعاه •

وفي المقطع الأخير :

الذى تترقرق فيه الآمال وتتراءى الصدوة العروبية المأمولة يحدو
الشاعر الأمل المبسم فيرجو سفينته أن تنهض من جديد نافضة غبار
اليأس عن أجوائهم متحدية الرياح بما يجري في عرقهم من عزيمة وإصرار
بمحقق الأمل الأخضر ويدنو الصبح الذي ويتعاقب الأحبة حول
المعراج •

* وتحوم الصورة مع الآمال الشاعرية متجانسة مع الأنسجة
والألوان ، والأبيات التي حملت حوارها مع السفينة ترى فيها الصورة
لفياضة بالعزيمة والتصميم والقوة والحماس يتخذ فيها الشاعر من
التشخيص والتحسين وسيلة للوصول بالصورة الى درجة من القوة
تناسب مع الماطمة ، ومن ذلك « مزق ظلمة الخطوب •• وضدى زحفها
•• وأبيدى الخوفان •• وأصرعى الملح بالصمود •• وأعصرى العزم ••
وضمدي الجرح •• وأرى في الأفاق أشبح يأس •• » الخ •

وعندما يتقف تجاه « بشير للسلام » تساءله الصورة التي أنتجها
في انعكاس ما يترقرق في ذاته من سخرية واشمئزاز في أنماط من الصور
الوصفية والفنية فهو يحمل :

في يديه حقيقة نام فيها

سير مأساتنا البعيد الخفى

دار في كل محفل ينثر الإراء

مثل الممثل المسرحي

صار العوبة تحركها الأطماع

في مسرح الأسمى العالي

باسمه صار موطنى الحر فى
 بئر لصراع المدمر الدموى
 فاذا الزيلد كفيه يذهب كالتقب
 الذى راح يذهب الآدمى

وفى حديثه عن هيروشيما لا يكتفى بالوقوف مصورا ما تحمله ذاته
 من أسى وانما يرجعها مختزقة الحجب والأستار نحو القلوب ، وهذا
 لا يتأتى الا من موهبة ذى رؤية شاملة تتحرك فى مساحات فسيحة .

لحماء الشهيد فى كل شهر
 أنبتت دوحة الفدا الملقى
 لم نزل تحرق المأسى رياضا
 شوهتها حروب عصر غبى

كما نطالع هذه الصور التى تعكس مرارة المعاناة وروعة الاشفاق ولوعة
 الحزن فى قوله عما ينتظر الأجنة بسبب ما حدث فى هيروشيما ، فالطفل .

ربما نائق الوجود كسيحا
 أو ضريحا أو ذهلا أو عبي
 أو بأنفسين أو بخمس أياد
 أو برأسين أو بلا أى شى

يجعلنا نقول : ان الشاعر بتجربته فى هذا الميدان استطاع أن
 يوظف المفردات توظيفا جيدا ، وهذه مرحلة ابداعية تتم من مقدرة
 معطاءة ، ومما تقدم نلمس التماسك بين العاطفة والصورة والتعبير .

فى القصيدة تعبيرات فى حجة الى وقفه لها فيها من دلالات معينة .
 وهى تعبيرات تشيع فى أشعاره حتى صارت من سماته التعبيرية — فى
 تصويرى — ومن هذه التعبيرات :

« فجر الكرامة العبرى » :

وهو تعبير يوحى بكرامة من نوع خاص ، اذها الكرامة العربية في
أسمى معانيها والتي كنت ولا زالت حديث صحائف التاريخ وهو من
العجب ، كرامة العربى منذ القدم ، انها الحياة الحقيقية كما يراها
العربى .

« التعبير الخفى » :

عبارة يحف بها سر المأساة تردينا فيها ، وفي وصفه بالبعيد
الخفى تنبيه القارىء والمسامع المتأمل الى اسفلهم الماضى من جديد
والبحث عن أبعاد المشكلة للوقوف على الحقيقة بوضوح ، وفي الخفى
ما يرشد الى أن فيها آثارا تتبع آثارا . وأن استجلاءها في حاجة الى
دقة ووقفة واسترشاد لادراك هذا الخفاء وفيه دعوة الى العرب لترك
الخلاف المريب وتقصى مشاكلهم للاختشال منها ببصيرة .

بئر الصراع المدمر الذموى :

في هذا الشطر ما يوحى بالنتيجة السيئة التى وصلت اليها من
جاء الخلاف وأن المشكلة أعمق وأخطر مما يتصوره البعض وأنه اذا
لم يتفاهم العرب لحقيقة التضيعة ويسارعون نحو الحل بخطى مدروسة
ومنظمة سيصير الأمر خطيرا والنهاية هي الفناء الذى يجر فناء ويريق
دماء ودماء .

حروب عصر غبى :

وصف العصر بأنه غبى يوحى بمدى ما فيه من خداع السياسيين ،
كما يوحى بأن كل انفساق يخفى تحته قتلا وتدميرا ، كما يدعو الى أخذ
الحذر بصورة دائمة .

بـخمس أياد :

والتعبير ، خمس دون غيرها « كصبع أو تسمع » يمكن أن يكون
قيمتنا من المناسبات اذ لصلوات خمس وأركان الاسلام خمسة ، أو أن
الأصابع قد يعزى بها التسوية ، فيكبر حجمها حتى يصل الى درجة يظن
معهما أن كل اصبع يد •

وزع الموت :

تعبير يوحى بـخسبوع من هذا العذر العادر الذي راح لا يجد
حرًا في هذا التوزيع بل أصبح عنده مناحا وكأن الموت صار منقذا من
قسوة الحياة التي صنعها لهؤلاء •

الضوء الأدبي محنى :

تعبير يغيد انقلاب المعايير وصياح اقيم وتفتش الباطل الى غاياته •

العز في الثرى منسى :

فيه ثارة لهؤلاء الذين هانت عليهم نفوسهم فراحوا يرضون
بهذه الحياة •

انتصارنا الأبدى :

يوحى بالانصار القائم على أساس من الدين والاسلام والمبادئ
لتحظى بتأييد الله ونصره على الدوام •

أحضر الآمال :

تعبير بعكس غاية الشعور بالفرحة الغامرة التي فيها الاحساس
بالحياة نتيجة تحقق الأهداف على خير وجه •

وأما طول النفس في القصيدة الى الحد الذي بلغته من الأبيات
فهذه سمة شائعة في شعر الشعراء ، كما أن المضمون الفكري فيها
يتطلب من الطول ما يؤدي الى توضيحه وتأكيديه في النفوس ولا
للموضارع من أهمية على النطاق القومي مما جعله يستنفذ فيه هذا
القدر من الامتداد .

وجاءت القصيدة من بحر الخفيف ولقد هزج الشعر للقامية قيـدا
فسكن حرف الروى ولعل ذلك من باب سكن تسلّم وفي ذلك بعد عما نجره
اختلاف حركة الروى « لو حرك » من اقواء واصراف . ويمكن أن
يضاف الى ذلك تعليلا وهو أن السكّين يؤدي الى احتباس الصوت
مما يؤدي الى تكوين طلعة انفجارية تظهر في البيت الثاني مما يجرى
كل بيت بمثابة طاقة مدوية ولعل هذا مما يناسب هذا النداء الموجه الى
المعرب والمسلمين للنهوض من المتردى القاتل ...

والله أعلم ...

السخاوى

ومنهجه في كتابه الإعلان بالنبى

لمن ذم أهل التاريخ

دكتور / محمد نيسان سليمان

جامعة الأزهر بأسسيوط

السخاوى مؤرخ من علماء القرن التاسع الهجرى ، قدم لقراءتنا الثقافية مؤلفات كثيرة في مختلف فروع المعرفة استفاد منها الباحثون في مجال الدراسة التاريخية وغيرها ومازالوا على الرغم من أنه عاش في فترة زمنية غير مستقرة سياسيا فقد عاش السخاوى دولة السلاطين المجراسة ، وهى دولة عسكرية متعسفة استحوذت على السلطة في مصر بصورة سيئة (١) .

يصف إلى ذلك الأحوال المالية بمصر ، فمن الماليك منذ نشأة دولتهم إلى آخر أيامهم استحوذوا أيضا على خبرات أرض مصر بحية أصبحت لهم أشبه بملكية خاصة من السلطان إلى أصغر مملوك وقد ترتب على ذلك أن تحول عدد غير قليل إلى أحرار .

(١) راجع : كتاب الماليك في مصر والشام د . سعيد محشور .

ولعل الذي ساعد على ازدهار الثقافة العربية في مصر مع الوضع الاقتصادي السيء ، أن مصر أصبحت وحدها حاملة لمشعل الثقافة العربية بعد أفول لمراكز لتفدية في الشرق ، ولا سيما بغداد نتيجة الغزو المغولي وفي الأندلس مثل قرطبة ، وقد كان لاحتكار المصاليث شئون السياسة في مصر ، سبب آخر في أن جعل العلماء يتدبرغون لبحث العلوم بين الناس والطلاب بصفة خاصة (٢) بحيث بلغ عدد كبير منهم في مختلف العلوم . وكان من هؤلاء المسيوطي ، والمقرئزي وابن حجر والذهبي ، السخاوي وابن خلدون وغيرهم وقد عبر عن ذلك ابن خلدون حيث قال : ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ، فهي أم العالم ، وايوان الاسلام ، ويذبح العلم والمذائع (٣) .

والمسحوري عاش في ذلك العصر ، الذي نصج فيه مفهوم وماهية التاريخ وتأثر بذلك ، ورأى أن موضوع التاريخ هو لاسان وزمن فهو يرى لتاريخ في نظره أكثر شهولا من غيره من المؤرخين وهو أحد تلاميذ ابن حجر العسقلاني ، وأحد معاصري المسيوطي ومنفسيه .

السخاوي :

هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد . عرف بألقاب كثيرة ، لشهرته . منها : الحافظ ، شمس الدين ، وكنى بكنية منها أبو الخير ، وأبو عبد الله ، أبو محمد : ولكن الذي عرف به وترجم له : هو لفظ السخاوي ، ونسب السخاوي هذا يرجع

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٥ .

(٣) راجع : مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨ ، الضوء اللامع لسخاوي

في تاريخه ص ١١٠

ص ٧ ، ص ١٧٢ .

لى سخا وهى بلدة غربى القسطنطية بمصر(٤) فهو قاهرى نسبة الى القاهرة . وتسمى نسبة الى مذهب الامام الشافعى ، الذى أحده السخاوى مذهباً له .

ولد السخاوى فى ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثمانمائة من هجرة ، بحارة بهاء لدين محل أبيه وجدته (٥) فهو سخاوى قاهرى شافعى المذهب . نشأ السخاوى فى بيت علم وحرب اليه حفظ القرآن الكريم . فأقبل عليه وحفظه وهو صغير ، وصلى به فى شهر رمضان وحفظ عمدة الأحكام والفقه والمنهاج ، وألفية ابن مالك العرقى والنخبة لابن حجر ، وقد حرص السخاوى على ملازمة ابن حجر ، فسمع الأحاديث الكثيرة منه . فكان من أكبر الأخدين عنه وأعانه على ذلك قرب منزله ، فكان لا يفوته وقد علم من حجر شدة حرصه لسخاوى على ذلك . فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه . يأمره بالحضور للقراءة . ولدرس . ولا وثق ابن حجر من السخاوى أن له فى القراءة والافادات ، والتصنيف للكشف عن التراجم والمتون وسائر الاصطلاحات . حتى صار أكثر أهل العصر سموعاً وأكثرهم رواية وقال عنه ابن حجر : هو أمثل جماعتى وأذن له .

وبعد وفاة شيخه الشهاب ابن حجر ، سافر الى مكة والمدينة أكثر من مرة للحج والمجاورة ، والتقى بالعلماء فى مكة ، وقرأ بها الكتب الكبار والأحز ، الصغار ما لم يتعباً لغيره من الغرباء ، ثم رحل الى

(٤) راجع شذرات الذهب فى اخبار من ذهب . لابن عماد الحنبلى

ج ٢ ص ١٥ ، الضوء اللامع للسخاوى والمقدمة ، الاعلان السويش لمن ذم

أهل التاريخ المقدمة .

(٥) راجع : النهر المسيوك فى ذيل السلوك للسخاوى ص ٢ - ٢

شذرات الذهب لابن العماد ج ٨ ص ١٥ .

الآفاق وجلب البلاد ، ودخل حلب ودمشق وبيت المقدس وغيرها طلباً للعلم ، واجتمع له من الروايات بالسماع والمقراء ما ينفوي الموصف ، ثم عاد إلى القاهرة ولازم الأساتذة والاشغال والتأليف لم يقتر أبداً فانتفع به الخاصة والعامة والكبير والصغير ، وانتشرت في عصره الأسانيد المحررة والاسمعة الصحيحة ، والروايات المفيدة ، فاستفاد منها السخاوي وفاد(٦) ومن ثم فإن السخاوي تعلم تعليلها دينياً أثر فيه وكان له مدى في مؤلفاته التي ألفها ، يضاف إلى ذلك أن السخاوي كان له منها تاريخياً مخالفاً لمنهج المؤرخين في القرن التاسع الهجري ، متأثراً بشيوخه وظروف عصره(٧) .

مؤلفات السخاوي :

السخاوي قدم للتراث العربي مؤلفات كثيرة ومفيدة ، أغلبها بميل إلى العلوم الدينية والتاريخية وهذا يرجع إلى الفشاة والتربية من هذه المؤلفات .

- ١ - « الجواهر والدرر » في ترجمة الشيخ ابن حجر .
- ٢ - « متح الغيث » بشرح الفية الحديث .
- ٣ - « الضوء اللامع في أخبار أهل القرن التاسع » ويسمى الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ويقع في ست مجلدات ذكر فيه ترجمته لنفسه على عادة المحدثين وهو مطبوع .
- ٤ - المقاصد الحسنة في الأحاديث الجارية على الأسس وهو أجمع وانقى من كتاب السيوطي المسمى بالجواهر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة .

(٦) راجع الضوء اللامع لأهل القرن التاسع بسخاوي ج ١ ص ٢

(٧) راجع : الاعلان بكتوبينج لمن دم أهل آندارينج ص ١٥ السخاوي

وفي كل واحد منهما ، ما ليس في الآخر .

٥ - القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ، وهو نفيس جدا .

٦ - التاريخ المحيط على حروف المعجم .

٧ - عمدة المحتج في حكم الشطرنج .

٨ - تلخيص تاريخ اليمن .

٩ - الأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والانجيل .

١٠ - تحرير الميزان .

١١ - عمدة القارئ والمسامع في ختم الصحيح الجامع .

١٢ - غنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجاج .

١٣ - الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (٨) .

وهذا الكتاب الأخير هو الذي ميز السخاوي عن غيره من المؤرخين في تناولهم لمفهوم علم التاريخ .

السخاوي بين معاصريه :

السخاوي كان يقدر مشايخه ومن تلقى على أيديهم العلم ، وقد قال عنه ابن حجر هو أمثل جماعتي (٩) ويقدر أقرانه يوم أن كان يافعا من طبقة التلاميذ ، وقد مدح السيوطي : حيث قال : في ترجمة والده ،

(٨) راجع : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ لسخاوي ص ٢

(٩) راجع : الاعلان بالخدمة .

وهو والد الماضل جلال الدين عبد الرحمن ، أحد من أكثر القردة على ،
ومدحني نظمها ومثرا دفع الله به (١٠) كما أثنى عليه في مناسبات متعددة ،
ولكنه عاد وتحمل عى السيوطى فى كتابه الضوء اللامع ، واتهمه
بإسحق والسرقة ، واتهمه فى آخر أيامه كلما وجد مناسبة ، تحامل
عليه ودمه ، ودافع السيوطى عن نفسه فى رسالته له وسمها « لكاوى
على تاريخ المسحوى » ذكر فيها أن المسخاوى « حفيظ فقير لا يباع
فى سوق العلم بقطمير (١١) أكب على التاريخ فأهسى فيه عمره ، وأغرى
فيه عمله بوسلف فيه أعراض الناس ، وملاؤه بمساوىء الخلق (١٢) ورد
عليه المسخاوى فقال : ويمكن تفسير الكم المرافى من المؤلفات الكبرى
والصغرى للسيوطى ، بأن كثيرا من رسائله لصغير لا يزيد الواحد
منها على مفالة طويلة أو صغيرة أو مختصرة منها « ما هو ورقة وما
هو دون كراسة » (١٣) .

يضاف الى ذلك أن المسخاوى اتهم السيوطى بأنه احتلس مؤلفاته
منه حين كان يردد عليه فأخذ عنه كما يقول : الخصال الموجبة
للضلالة ، و الأسماء النبوية والصلاة على النبى الخ ، بل أخذ من
مكتبة المدرسة المحمدية وغيرها كثيرا من التصانيف القديمة التى
لا عهد للكثير من المعاصرين بها ، وقدم وأخر ونسبها الى نفسه (١٤)
على أن السيوطى لم يتغاض عن حملات المسخاوى عليه ، بل سخر

(١٠) راجع : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج ٤ ص ٦٦ .

(١١) راجع الكاوى على تاريخ المسخاوى محفوظات دار الكتب

ورقة ٢ - ٣ .

(١٢) نظم الاقدام فى أعيان الأعيان تحقيق فليب حى ص ١٥٢ .

(١٣) راجع الضوء اللامع للمسخاوى ج ٤ ص ٧٠ - ٧٥ .

(١٤) راجع الضوء اللامع للمسخاوى ج ٤ ص ٦٩ .

منه وشامل عليه في مؤلفاته التي أفرد مؤلفا منها دليل من السخاوى سماه كما ذكر . الكوى في تاريخ السخاوى ، وجاء فيه نرته أعراض الناس ، وهدمت في تاريخه من أسس (١٥) .

وأرى أن هذه الاتهامات والقذح لا يجوز بين مثل هؤلاء العلماء الذين قدموا تراثنا التاريخى ولخصرى مؤلفات كثيرة وكان لأجدر بهما أن يذأيا عن مثل هذه الأمور التى تجعل الباحثين ينظرون اليها بفره يقال من قدرهما العلمى وقد أعجبنى موقف أحد الباحثين حيث قل وأصبح لقرن التاسع الهجرى معسكرا يقوده السخاوى ومن قواده ابن الكركى ، وابن العليف قليمذ الجوهري، وأحمد بن العسقلانى يقوده لسوطى ومن أذعاره الفخر الدينى وأمين الدين الأقصرانى وسراج الدين العباسى وغيرهم ، ويتناول المعسكران التهم والنقائص والسباب وذكر المثالب وأحذف الخصومة بينهما زما ليس بالتليل ويرى البحث أن واجب العلماء فى كل عصر أن يترفعوا عن مثل هذه الخصومات التى قد يساء الظن فى فهم المراد منها والتى تشوه سمعة أئمة جيل بأكمله (١٦) .

علم التاريخ بين العاوم الأخرى :

ارتبطت الكتابة التاريخية منذ بدايتها فى صدر اسلام بالعاوم الدينية ارتباطا وثيقا ، فكان المؤرخون الأولون يكتبون فى لسيرة النبوية وفى المعازى وفى نسب قريش ، وفى لطبقات وفى الترجم لرجال والفقه والتفسير ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم أكثر ما

(١٥) راجع الكاوى فى تاريخ السخاوى مخطوط .

(١٦) راجع بحث السيوطى والدراسات القرآنية : د . أحمد عمر

أمثلة الشعوب الماضية البائدة لما تتطوى عليه هذه الأمثلة الدينية من عبر دينية ، ومواعظ حلقية ، كما جاء القرآن الكريم بنظرة علمية الى التاريخ ممثلة في متابع النبوات ، وكان لهذه النظرة أثرها العميق في اهتمام المسلمين بدراسة « تاريخ الرسل والأنبياء » (١٧) .

يخسف الى ذلك أحوال الأمم السابقة لأمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وقع الاستبدال بالتاريخ في الكتاب العزيز ، حيث قال الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لم تحتاجون في ابراهيم ، وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » (١٨) وهذا من اللطف الاستدلالي وانفسه من حيث أنه تعالى : استدلل على بطلان دعوى اليهود في ابراهيم عليه السلام انه يهودي وبطلان دعوى النصارى في ابراهيم عليه السلام أنه نصارى بوضوح أخرى للاستدلال قال الله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ، ما تثبت به قوادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة للمؤمنين » (١٩) ثم قال أيضا في كتبه العزيز : « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » (٢٠) .

ثم صورة أخرى يستدل بها على أخبار الأمم ، فقال تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء » (٢١) واستدلال

(١٧) راجع : التاريخ العربي والمؤرخون د. شاكر مصطفى جابر ٢١١

(١٨) سورة آل عمران آية ٦٥ .

(١٩) سورة هود آية ١٢١ .

(٢٠) سورة القمر آيات ٤ - ٥ .

(٢١) سورة يوسف آية ١١١ .

آخر من كتب الله تعالى على علم التاريخ للأهلة ، فقال تعالى :
 « يسألونك عن الأهلة ، قل هي مراقيت للناس والحج » (٢٢) وفي كتاب
 الله الذي لا يأتيه الباطل ، الكثير والكثير من الأدلة على أن لتاريخ
 علم له فوائد ولكن مجال البحث لا يتسع لها .

يضاف الى ذلك أن كتب الحديث بها الكثير من الأدلة على أن علم
 التاريخ مفيد ، ولا غنى لعلم من العلوم عنه ، روى السيوطي في
 الجامع الصغير - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بلغوا
 عنى ولو آية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ممن كذب على متعمدا ،
 فليتبوا مقعده من النار » (٢٣) .

وكذلك روى ابن عباس رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « مرت ليلة أسرى بنى على موسى بن عمران
 عليه السلام ، رحل آدم طواله جعد ، كآته من رجال شفرة ورأيت
 عيسى بن مريم مربوع المخلو الى الحمرة والبياض سبط الرأس وأرى
 مالكا خازن النار ، والدجال فى آيات ، أراهن الله اياه » (٢٤) .

وقد كان تطور الكتابة التاريخية جزءاً من التطور لتقاسمى الذى
 عرفه المجتمع الاسلامى فى القرون الثلاثة الأولى ، وهذا التطور كان
 اسلاميا صرفا ، لم يتأثر بمؤثرات ثقافية أجنبية ، أى فى جوانب
 منه ، ومحددة ، واذا كان التاريخ تعبيرا عن مشيئة الله فى الناس وقد

(٢٢) سورة البقرة آية ١٨٩ .

(٢٣) راجع الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٧٦ .

(٢٤) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٢٧ - ٣٢٨ .

استخدم للمعبرة ولبيان لتجرب والخير والاحماع والمسن ، واذا كان اعتبر منذ البدء ، علم خاصا أو نوعا من العلم ، فإنه بالنسبة لغير اتجاه نحو لفلسفة الجبرية ونحو ارتباط الانسان بقدر الله ، كما عبر عن شعور متزايد بقيمة التركم الزمني في تكوين الأمة (٢٥) وفي القرون الثلاثة الأولى كما ذكرت لم يوضح علم التاريخ عناصره في المنهج و المادة وصار علما مستقلا ، بصرف النظر عن مكانته غير البارزة بين العلوم الاسلامية الأخرى •

ومع بداية القرن الرابع والخامس الهجرى ، بدء علم التاريخ مسيرته العلمية المستقلة الى حد كبير ، مسجلا طورا خاصا جديدا ، في تلك المرحلة ومتأثرا دون شك بنمو العلوم الأخرى ، واتساع نطاق الحضارة المادية وانتشار الورق •

واذا كن علم التاريخ حسب المفهوم القديم ، ادى الكثير من الكتاب تسجيل أخبار الأحداث والناس ، فقد كان دوما بالضرورة على صلة بأحداث السياسة وأخبار الرجال ولاشك انه تأثر بها أكثر من تأثر أى علم اسلامى آخر ، بل لعل الفروع الثقافية كلها كانت تسير وتطور من وراء الأحداث ومن فوقها ، فان الفقيه والناحوى والمحدث وصاحب الفلسفة لا يهتمون بالحاكم ولا بالمعارك الخارجية ولا الطبيب باحتلال بلد أو بموت حاكم ، أما المؤرخ فن عينه ويده مرتبطتان بالأحداث نفسها وهى صورة للعصر الذى يعيش تأثر به ويؤثر فيه ، ولذا فقد أضحت علم التاريخ فى جانب التراجم ، وفى جانب الحوادث ، ركنا أساسيا فى علم المحدثين ورجال الفقه ، والدين ، والأدب الكل يطالعه ، ويدرسه ويؤلف فيه ، وأصبح علم التاريخ من

(٢٥) التاريخ العربى والمؤرخون ج ١ ص ٢١٥ د شاكى مصطفى

المهمات ومشاعغل أهل العلوم الدينية بأنفسهم ، وبجانب هذا فان رجال السياسة من خلفاء وحكم وأمرأ ووزراء وكتاب ، وحجاب وملاط عملوا بدورهم في الحقل التاريخي ، وبعضهم حتى من الخلفاء كتبوا التاريخ واذا دأن هؤلاء كتبوا التاريخ ومؤلفاتهم ميزة خاصة فلأنهم كانوا يضعون أيديهم عمليا على مناجم التاريخ الأساسية من دواوين ومر وثائق ووسائل وغيرها ، ولم يكن أصحاب العلوم الأخرى على اهتمامهم العلمي والفلكي والبياضي والفلسفي ، بالبعيد عن الاهتمام التاريخي وهناك أمثلة كثيرة من هؤلاء ألفوا لعلم التاريخ لأهميته وهوائده (٢٦) •

وهذا كله يعنى أن التاريخ قد أخذ يشتمل كعلم خاص ونشاط ثقافي يشغل أذهن المفكرين في القرنين الرابع والخامس الهجري وان لم يبحث هؤلاء في ذاته وفي دراسة خاصة به وقد استمر ذلك أيضا في لقرن السادس وما بعده من مؤلفات حتى النصف الثاني من القرن الثامن والقرن التاسع الهجري لتظهر أولى الأبحاث الإسلامية الخاصة بعلم التاريخ نفسه وقد ظهرت أربعة أو خمسة أعمال متتابعة وظهرت على أرض مصر العزيزة أرض الأمجاد والبطولات وحملت في الغالب طابع لدفاع عن علم التاريخ (٢٧) أكثر مما حملت من طابع التعمق والتحليل لكنه وماهيته ومناهجه الفكرية وأولى هذه الأعمال : كتاب المختصر في علم التاريخ « لمصطفى الدين محمد بن سليمان الكافيجي المتوفى سنة ٥٨٧٩هـ (٢٨) » ، وهي رسالة في عشرين ورقة انتهى منها في

(٢٦) راجع التاريخ المؤرخون د • شاکر مصطفى ج • ١ ص ٢٣٠ •

(٢٧) راجع شذرات الذهب اخبار من ذهب لابن العماد الجليل

ج ٦ ص ٢١٨ • ٢١١ • ر • ١٢ • ١٢ • ١٢ •
(٢٨) راجع كشف الظنون حاجي خليفة والبيجارى كتاب الإملان

سنة ٨٦٧هـ حسب ما ذكره السخاوي وكتاب الشماريخ في علم التاريخ « للسيوطي » : المتوفى سنة ٩١١هـ (٢٩) ، وكتاب الشماريخ في علم التاريخ لعبد الرحمن بن عبد القادر الفارسي المتوفى سنة ١٠٩٦هـ (٣٥) .

أما السخاوي فقد ألف كتابا أستدرك فيه على السابقين ما وقعوا فيه وهو كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، وسوف نقدم له دراسة نقدية في هذا البحث لأهميته حيث اعتمد السخاوي على الكافيحي .

وقد اهتم الكافيحي برسائله فهي أقدم رسالة اسلامية معروفة عن علم التاريخ انها محاولة أولية هامة سبق بها الكافيحي الى طرق عدد من المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وعرضه وأهدافه وفوائده وأجيب عليها باختصار محاولا وضع نظرية للتاريخ وأصوله ومسائله (٣١) وقد طبق المنهج الفقهي وأراد استخراج منهج البحث والتدوين التاريخي وقد قدم الكافيحي مرة أخرى لهذا الفن كتاب آخر سماه « النصر القاهر والفتح الظاهر » ولم أتمكن من الاطلاع عليه ، وأما كتاب الشماريخ في علم التاريخ للسيوطي فهي رسالة أخرى في علم التاريخ لكنها صغيرة الحجم لا تزيد على عشرين صفحة، وهي دون ذلك أقل شأنًا بكثير من الناحية الفكرية لرسالة الكافيحي لأن السيوطي لم يحاول ايجاد فكرة جديدة تتعلق بالتاريخ كعملية علمية واكتفى بأن قسم الرسالة الى ثلاثة أبواب الأول منها في بدء التاريخ أي الحوادث التي تتخذ

(٢٩) راجع التاريخ والمؤرخون د. شاكر مصطفى ج ١ ص ٢١١

(٣٠) راجع كتاب الاعلان للسخاوي ص ١٣٠ .

(٣١) راجع التاريخ العربي والمؤرخون د. شاكر مصطفى ٢٢٥/١

بدء لتوزيع الناس كهبوط آدم وبدء البيت والهجرة ، والباب العنفي في فرئد التاريخ وكلها ذات طابع ديني أخلاقي ، وفي الباب الثالث جمع بعض المعارف التاريخية ومنها حساب التاريخ بالشهور والأيام فكأنما أراد عدم بحث ماهية التاريخ ولكن وضع بعض الأسس العلمية لتدوين التاريخ بين يدي الناس (٣٢) ولذلك قال المسخاوي عنها أنها وريقات صغيرة غير مفيدة (٣٣) .

منهج المسخاوي في الكتابة التاريخية :

للمسخاوي من علماء القرن التاسع الهجري ، تأثر منهجه بكثير من مؤرخين السابقين له وخاصة الذهبي والكافيجي ويظهر هذا التأثير في نقل الروايات واسناده وقد نجد في كتابه الضوء اللامع على الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام وقد ثبت على اسلوب المسخاوي لدرسته التاريخية وقد أمكننا هذه النزعة على صفحات كتبه التي أنفها وخاصة في كتابه المقاصد الحسنة في الأحاديث على السنة (٣٤) .

يضاف إلى ذلك أن لمسخاوي نقل كثيرا من مؤلفات الذين عاصروه والذين سبقوه وكان النقل مألوفاً في العصور الوسطى ربما عاد إلى ذلك قلة النسخ التي كانت تكتب من المؤلفات وعدم انتشارها انتشاراً كافياً بسبب غلاء الورق وعدم اختراع آلات الطباعة (٣٥) ومثال ذلك

(٣٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣٣) راجع الضوء اللامع للمسخاوي ج ٤ ص ٦٩ .

(٣٤) راجع كتاب الاعلان للمسخاوي ص ٣ .

(٣٥) راجع بحث دراسة نقدية لكتاب حسين المحاضرة المسموطة .

دمشقية / سيدة الكاشف ص ١٣٨ .

نقله لكتاب الجواهر والنور في ترجمة ابن حجر وغيره (٣٦) •

المسحوقى معاصر لأحداث القرن التاسع الهجرى ولأنك من معاصره المؤرخ العربى لأحداث زمانه تصبغ روايته بطابع الصدق والدقة - فالمؤرخ الذى يعيش فى زمن قريب من الزمن الذى دارت فيه الأحداث التى يقوم بتسجيلها أقدر من غيره من الملاحظين، على تصويرها بألوانها الحقيقية ، ذلك لأن الكتابة التاريخية المعاصرة فى زمن الأحداث تعتمد كثيرا على المعاينة والمشاهدة والسمع من مصادر متنوعة والمعاينة والتحقيق يجنبان المؤرخ من الوقوع فى الأخطاء التى وقع فيها من لم يحدو حدوده والسحوقى حررنا من كتابة تاريخية على نظم الحوليات لعصره وأبو انه كتب نجاءت ملاحظته على الأحداث بصورة صادقة محايدة ولكنه لم يفعل، وإن قللة المعلومات التاريخية التى قدمها فى السحوقى فى الحوادث قيسا بالمادة المضخمة التى قدمها فى التراجم تجعل من العسير علينا ، أن نميز له منها خلاصا فى هذا المجال خالف فيه غيره من كتاب الحوليات الذين سابغوه مثل الطبرى وابن الأثير وابن الجوزى وما يلاحظ على منهج السحوقى أنه حشد فى بعض مؤلفاته ما هو غريب وعجيب كما فعل السيوطى فى بعض مؤلفاته ، وربما أن يكون دافعهم الى ذلك خلق أو افتعال جاذبية الباحثين ، ولكن أغلب مؤلفات السحوقى جاءت بصورة طيبة هادئة •

والسحوقى قدم كتاب الاعلان على فكرة جديدة ومنهج منظور له فوائد وأهداف • وبذلك رأينا أن نقدم دراسة منهجية له فى كتابه

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ :

ان المسخاوى سلك مذهباً في القرن التاسع الهجرى ميزه عن غيره من معاصريه حيث ألف كتب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (٣٧) فقد جعله عبارة عن عرض جميل لأهمية علم التاريخ وأوضح في هذا المنهج صورة بارزة لفوائد علم التاريخ من بين العلوم الأخرى والذي دفع المسخاوى الى هذا المنهج ان العصر الذى كان يعيش فيه كما ذكرت سابقا عصر غير مستقر سياسيا ومتدهور ماليا ، فنصب المسخاوى نفسه مدافعا لعلم التاريخ وأهله .

ولابد أن المسخاوى تأثر بمن سبقه من المؤرخين مثل الأستاذ محيى الدين الكافيجى الذى كتب رسالة فريدة من نوعها وهدفها وعدوانها المختصر المفيد في علم التاريخ فيها نظرية التاريخ وأجاب عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وهدفه وفوائده .

وعرف الكافيجى التاريخ بأنه علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله ، وعن أحوال ما يتعلق به من غير تعيين ذلك وتوقيته (٣٨) وبرهن الكافيجى على أن التاريخ علم كسائر العلوم المدونة كالفقه والنحو واللبيان وغير ذلك ، وهذا الاستدلال يؤكد الحاجة الى علم التاريخ كما هي الحاجة الى أى علم آخر من العلوم الاسلامية .

ويرى الكافيجى أيضا أنه يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوى الحديث وقد بينها في رسالته حيث قال يشترط في المؤرخ بلعقل

(٣٧) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ج ٤ .

(٣٨) المختصر المفيد في علم التاريخ مخطوطة في دار الكتب رقم

والمضبط والاسلام والمعادلة (٣٩) ولا ريب أن السخاوى نأثر بالكافيحى ومن سبقه من المؤرخين كالأدهبى والسبوطى وقرى ذلك واضحا فى كتابه الاعلان •

الا انه رأى أن موضوع التاريخ هو الانسان و لربما نرى الى فهو يرى التاريخ فى نظره أكثر شمولا من نظرة الكافيحى خاصة عندما فسر ذلك بقوله « بأن مسائل التاريخ هى أحوال الانسان والزمن لفصله للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الوجودية للانسان وفى الزمان، ورأى السخاوى أن فائدة التاريخ هى معرفة الأمور على حقيقتها » (٤٠) •

وقد جاءت معلومات السخاوى وغيره و لروايات التى نقلها من المؤرخين السابقين كثيرة فى توضيح فائدة علم التاريخ حيث رتبها ترتيبا زمنيا متناسقا •

أم عن الأسلوب الذى كتب به السخاوى الاعلان أسلوبا سهلا طيبا ابتعد عن الألفاظ الصعبة والعبارات الغامضة حتى يتمكن الباحث من أن يدرك بسهولة هدف السخاوى من دفاعه ورده على الذاميين لعلم التاريخ وأهله ، وهو جزء مهم فى الاعلان فقد قال « وأما الذامون فمنهم من خصص ومنهم من عمم » (٤١) •

ويلاحظ على السخاوى حشد المادة الزائدة وهو ما بشوش على النص حيث انه استطرد فى توزيع العلماء على مختلف العصور التاريخيه وكذلك مختلف المدن الاسلاميه وقد أخذها من لأدهبى مع تعديلات طفيفة (٤٢) •

(٣٩) اعلان بالتوبيخ ط ١٩٦٣ ترجمة د. صالح أحمد العلى ص ٥

(٤٠) المختصر المفيد، فى علم التاريخ الكافيحى دار الكتب ورقة ٢

(٤١) راجع الاعلان لسخاوى ص ٨٦ - ٩١ •

(٤٢) راجع لاعلان بالتوبيخ السخاوى ص ١٧ - ٥٨ •

اهتم السخاوي بالنقد التاريخي في عبارات موجزة أحيانا ولاذعة في أخرى حيث قال : انتقد بعض المعاصرين لشيخنا كثيرا من تراجم معجزة ، بانتقادات ساقطة فلم يكن ذلك بمانع من التنافس في تحصيل المعجم والتناقل عنه التي وقتنا بين العرب والعجم بل كان والله الحمد سببا لأخمد القائم بإظهاره ونشره وعدم استتاره ، مع ألفتاء تذكره وأخفاء فقره (٤٣) وقال أيضا وإقحش أبو عمر بن الرباط في حق الذهبي بسبب التاريخ ونحوه (٤٤) .

أن السخاوي لم يهتم بالتطابق والتجانس في العناوين الرئيسية لكتابه الإعلان ، إنما يتوقف طول المشرح للعنوان أو قصره على حسب الروايات والمعلومات التي يعتقد أنها توفى بالغرض ، ومع ذلك فإن الاختصار لبعض الروايات لا يعنى أنه اختصار غير مفيد فحين يختصر يخرج المقارئ بطلب الموضوع وهذا منهج المؤرخ من فكرته ولغته ، وبحق فإن السخاوي قدم للتراث العربي منهاجا فريدا وفي هذا الكتاب طرح السخاوي أفكاره الأساسية عن التاريخ كعلم ، وجدواه وضرورته كأداة حضارية بيد أن الخلفية الثقافية للسخاوي كمحدث من جهة وحقيقة أنه يتدرج في إطار « عالم الدين - المؤرخ » من جهة ثانية جعلته يؤكد أهمية التاريخ وجدواه باعتباره قرعا من فروع الثقافة المساعدة في خدمة العلوم الدينية ، والحقيقة أن كتاب الإعلان - بالتوبيخ يعكس وجهة نظر عالم الدين أكثر مما يكشف عن رؤية المؤرخ وتحدد أبعاد فكرة التاريخ لدى السخاوي من خلال أفكاره التي يطرحها في كتابه إذ يقول وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن وحج

(٤٣) راجع الإعلان من ١٥٠ - ٢٢٧ ؛

(٤٤) راجع الإعلان من ١٠٢ ؛

وحفظ وضبط وتوثيق وتجميع وما أشبهه مما مرجعه المفحص عن
أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم (٤٥) •

هذه هي الوظيفة الأولى لعلم التاريخ ، وهي وظيفة محدودة
للغاية كما يراها السخاوي • وذلك أنه يجعل من التاريخ أداة لتتبع
سير الرواة والأئمة كغاية من أهم غايات هذا العلم • بيد أنه لا يهمل
حوادث التاريخ الأخرى التي يراها تحتل درجة أدنى في أهميتها من
الدرجة التي تحتلها أحوال الرواة والأئمة • وحين يريد السخاوي أن
يسوق لنا تعريفا جامعاً مانعاً لمصطلح التاريخ يقول «... والحاصل أنه فن
يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت » (٤٦) •

وقد عرض شمس الدين السخاوي بعض جوانب مشكلة التاريخ
عند المسلمين وأعطانا صورة من المآخذ التي كان علماء عصره يوجهونها
إلى أهل التاريخ وحاول الدفاع عنهم (٤٧) •

دراسة وصفية لكتاب الاعلان بالتوبيخ إن ذم أهل التاريخ :

الغرض من هذه الدراسة ، هو تصحيح بعض الأخطاء التي وقع
فيها من قاموا بتحقيق كتاب الاعلان للسخاوي •

وصف نسخ المخطوطة :

١ - نسخة مخطوطة سنة ٨٩٧ هـ :

توجد نسخة من كتاب الاعلان لم تطبع وهي الام كما يقال عنها
في لغة التحقيق أو (١) ولم اتبين مكانها ولكن من خلال العبارات

(٤٥) الرؤية الحصارية للتاريخ د. قاسم عبده قاسم ص ٢٠ •

(٤٦) الاعلان بالتوبيخ للسخاوي ص ١٧ •

(٤٧) التاريخ والمؤرخون د. حسن مؤنس ص ١١ •

الآتية أيقنت انها كما ذكرت « قبل مؤلفه رحمه الله تعالى ورضي عنه
آخره وانتهى تبليغه مع ابي لم استوف فيه الغرض في أحد الربيعين
سنة سبع وتسعين وثمانمائة بمكة أشرفه وكتبه محمد بن عبد الرحمن
السخاوي وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
تسليما » (٤٨) •

٢ - نسخة من المخطوطة سنة ٩٠٠ هـ :

وهي نسخة مدفوعة في حزانة رواق الأتراك بالأزهر الشريف
بمصر وهي لم تطبع والاستدلال على ذلك ما قاله الدكتور صالح
أحمد العلي الذي ترجم الكتاب من الانجليزية الى العربية قال : « وقد
حاولت أن أرى المخطوطة التي نقلت منها مخطوطة تيمور تاريخ ٧٠٤
والتي كتبت سنة ٩٠٠ هجرية • والنص يقول : انتهى الى هنا في يوم
الخميس ثالث عشر جمادى الأولى سنة تسعمائة بمنزل كاتبه من مكة
المشرفة المنتقر الى لطف الله وعونه أبا الخير وأبي فارس محمد
المدعو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي المشافعي
والأثري ، عاملهم الله بلطفه الخفي » (٤٩) •

٣ - نسخة من مخطوطة « تيمور » سنة ١١١٥ هـ •

وقد تمت كتابة هذه النسخة على يد الفقير عبد الوهاب بن محي
الدين السلطي نسبة والدمشقي وطننا ومولدا غفر الله له ولوالديه وللسائر

(٤٨) راجع النسخة المطبوعة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ تيمور طبعة

القدي ص ١٦٩ لكتاب الاعلان السخاوي •

(٤٩) فهرس المخطوطات مكتبة الأزهر رقم ١٣٢ تاريخ ، النسخة

المترجمة لروژنال ١٩٦٣ م •

المسلمين اجمعين في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى سنة خمس عشرة ومائة وألف (٥٠) ٨١١٥ •

٤ - نسخة أخرى من المخطوطة : مصورة :

توجد في مكتبة حلب اطلق عليها مخطوطة أحمدية ولم يدون امامها برقم كشفها محمد راغب الطبايح عندما شاهد النسخة المطبوعة بالعربي في دمشق سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م (٥١) •

٥ - نسخة من المخطوطة : مصورة :

عرفت بمخطوطة ليدن رقم ٧٤٦ قد حققها وطبعها الأستاذ روزنتال تحت عنوان علم التاريخ عند المسلمين وقد كتبها رجل اسمه على ابراهيم اليماني الحنفي ويشير الى أن السخاوي كان لا يزال حيا عندما كتبت المخطوطة واءتقد انها ترجع الى النسخة الأولى لسنة ٨٩٧ أو النسخة الثانية سنة ٩٠٠هـ (٥٢) •

نتائج البحث :

قدم البحث دراسة لمنهج السخاوي وقد اهتم بمنهجه في كتابه الاعلان على حسب ما توفر من معلومات وروايات عن ذلك المؤرخ •

انتهى البحث الى أن عنوان الكتاب للمسح التي طبعت قد حدث فيه أخطاء ربما أن تكون من الطباعة أو غيرها فالعنوان الصحيح باختيار

(٥٠) راجع النسخة المطبوعة سنة ١٣٩٩هـ للسخاوي التي لم يعلى

عليها في الهامش بحققها المجهول ص ١٧٠ •

(٥١) راجع النسخة المترجمة للدكتور صالح أحمد العلي ص ١٥ •

(٥٢) ارجع السابق لكتاب الاعلان للدكتور صالح أحمد العلي ص ١٢

جسهما رجعنا الى المخطوطات فتبين أنه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم
أهل التاريخ » وليس الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (٥٣) ، أو الاعلان
بالتوبيخ على من ذم علم التاريخ (٥٤) ، أو الاعلان بالتوبيخ لمن ذم
علماء التاريخ (٥٥) .

بعض الباحثين أضاف كتابا آخر وهو « الجواهر الدرر » الى كتاب
الاعلان وسماههما « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » (٥٦) ، وهذا
لم يرد في النسخة المخطوطة بالأزهر .

بعض الباحثين كذلك نقل كتاب الاعلان من اللغة العربية الى اللغة
الإنجليزية وحققه وأطلق عليه اسم جديد « علم التاريخ عند المسلمين »
واللفظي قام بهذا هو الأستاذ الفريد روزنتال (٥٧) .

الدكتور بشار عواد الذي ألف كتاب « منهج الذهبى في كتابه تاريخ
الاسلام » ادعى أن كتاب الاعلان للمسحاورى طبع في القاهرة
سنة ١٩٧٢م وأنه يشتمل على ثلاثة أجزاء (٥٨) .

وبالرجوع الى كتاب الدكتور بشار تبين أنه اعتمد على كتاب
الاعلان أكثر من ثمانين مرة ولم يحدد مثلاً ج ١ أو ج ٢ أو ج ٣ وانما

(٥٣) راجع النسخة المطبوعة سنة ١٩٧٩م محققها مجهول .

(٥٤) راجع مقدمة تلك النسخة السابقة ص ٢ .

(٥٥) بحث منشور في مجلة العربى العدد ١٥٧ ص ١٥ .

(٥٦) راجع النسخة المترجمة للأستاذ روزنتال ص ٣٢٨ .

(٥٧) رجع مقدمة بحث الدكتور بشار عواد علم التاريخ الاسلامى

ص ٢٠ .

(٥٨) راجع الذهبى ومباحه. فى كتابه الاسلام ص ٢٢٨ .

اكتفى في هامش كتبه بلفظ الاعلان كذا (٥٩) وهذا يدل على أن الكتاب لم يشتمل على أجزاء ثلاث •

وبالرجوع الى النسخ التي طبعت لكتاب الاعلان سواء النسخة التي طبعت سنة ١٩٣٠م أو التي طبعت سنة ١٩٦٣م أو التي طبعت سنة ١٩٧٩م نجد أن جميعها اشتملت على جزء واحد قمثلا طبعة ١٩٧٩م تقع في مائة وأربع وسبعين صفحة من القطع الكبير وان آخر صفحة بها ١٧٤ فقط •

والنسخة التي طبعت مترجمة للدكتور الصالح أحمد المولى سنة ١٩٦٣م تقع في أربع مائة وستين صفحة من القطع الكبير أي أن آخرها صفحة ٤٦٠ ، بينما يشير الدكتور بشار في كتابه الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الاسلام لى ص ١٥٧ هامش رقم ٧ الاعلان ص ٦٢٥ ، ص ١٦٩ هامش رقم ١ الاعلان ص ٧٢١ ، ٧٢٣ •

واعتقد أن كتاب الاعلان جزء واحد ولا توجد فيه مثل هذه الصفحات وربما أن يكون الدكتور بشار على صواب اذا كان الكتاب قد طبع واشتمل على ثلاثة أجزاء كما ذكر أو انه قد اختلط عليه كتاب الاعلان ، وكتاب علم التاريخ عند المسلمين • وكلاهما للأستاذ روزنتال •

وهذا جهد مقل وأسأل الله التقدير أن يلمها الصواب والرشد •

دكتور / محمد نيسان
جامعة الأزهر بأسسوط

المصادر والمراجع

الكافيجي :

- محيي الدين محمد بن سليمان ت ٨٧٩هـ -
- المختصر المفيد في علم التاريخ (مخطوط)
- السيوطي جلال الدين عبد ابن أبي بكر ت ٩١١هـ
- الكافيجي : محيي الدين محمد بن سليمان ت ٨٧٩هـ
- الشماريخ في علم التاريخ (مخطوط)
- الكاوي علي تاريخ السخاوي محققه فيليب حسي
- الفارسي : عبد الرحمن بن عبد القادر ت ١٠٩٦هـ
- زهرة الشماريخ في علم التاريخ (مخطوط)

قاسم عبده قاسم : دكتور

- الرؤية الحضرية للتاريخ دار المعارف ١٩٨٥م

حسين مؤنس : دكتور

- التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ دار المعارف

صلاح الدين المتجدد :

- اعلام الساريخ والجغرافيا عند العرب ١٩٦٣م

شاکر مصطفى : دكتور

- التاريخ العربي والمؤرخون ج ١

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩هـ

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب

داوس : (أ - ل)

- التاريخ وأثره ومبادئه ترجمة مجدى الدين حفى

سيلة كاشف : دكتورة

صادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه *

عبد العزيز النوري : دكتور

بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب * و

عبد الحميد العبادي :

التاريخ عند العرب *

محمد عبد الغني حسن :

التراجم والسير كاز المعارف *

سعيد عاشور : دكتور

الماليك في مصر والشام *

ابن خلدون :

مقدمة ابن خلدون *

السخاوي :

الضوء اللمع في أعيان أهل القرن التاسع

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ *

انتبر المسبوك في ذيل السلوك *

العُشَانِيَّةُ وَالْفَصْحَى

تاريخ ، وعلاقة

د. عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة

تمهيد :

من المسلم به أننا لا نعرف على وجه اليقين ، متى كانت النشأة الأولى للأمم لعرب في شبه الجزيرة العربية ، وكذلك لا نعرف النشأة الأولى للغة العربية ، تلك اللغة الفصحى التي وصلت إلينا في أوج اكتمالها ودونة على وجه اليقين ، لأول مرة في تاريخ الطويل ، من خلال القرآن الكريم ، الذي يعد أول كتاب هدون بالعربية الفصحى . والذي عليه جمهرة الباحثين ، واستقر عليه الرأي منذ أمد قريب ، أن اللغة العربية بلهجاتها التي كانت ممتشرة في شبه الجزيرة العربية ، تبعاً للتباين المختلفة في البادية والحضر ، اكتملت ونضجت خلال قرون طويلة ، دلت على تلك النقوش العربية القديمة ، التي يرجع أقدمها إلى القرن لثاني قبل الميلاد ، وهي النقوش اللحيائية (١) . وأقدم النصوص المتكاملة بالعربية الفصحى بلهجاتها المختلفة التي وصلت إلينا ، كانت قبل الإسلام بقرن ونصف تقريبا ممثلة في الأدب الجاهلي ، وبخاصة الشعر .

(١) تنسب إلى قبائل لحيان التي يرجح أنها من قبائل تمود التي كانت تسكن شمال الحجاز . وينظر لمزيد من التفاصيل تاريخ اللغات السامية (الباب السادس ص ١٦١ وما بعدها) لإسرائيل ونفسيون ، وفقه اللغة ص ٩٨ د . على عبد الواحد د . وفصول في فقه العربية ص ٥٠ د . رمضان عبد التواب .

فمؤرخو الأدب العربي (٢) ، يحددون الفترة الزمنية لعصر الجاهلي بمائة وخمسين عاما قبل الاسلام ، وهي أقدم فترة زمنية وصلت اليها خلالها أقدم الأشعار التي صحت روايتها ، وهي مطولات وقصائد مهلهل بن ربيعة القطامي في قتل أخيه كليب ، ومقطعات نفر من الشعراء قريبي العهد به أمثال : العنبر بن عمرو بن قميم ، ودريد ابن زيد ، والأفوه الأودي ، وأبي داود الأيادي .

ثم قصائد امرئ القيس بن حجر الكندي ، وعلقمة ، وزهير ابن أبي سلمى وطرفة ، وغيرهم من شعراء لمعلقات .

ثم ما لبثت تلك اللهجات العربية أن التقت في لغة نموذجية واحدة هي العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم ، وتوحدت عليها قبائل العرب جميعا ، والأقطار التي دخلت في الاسلام تحت ظلال القرآن الكريم .

وطرأت على الفصحى أمور كثيرة ، باعدت بينها وبين المتحدثين بها حتى غدا المحدث متفشيا بين المعوام والخواص الى ان تعددت اللهجات في الأقطار العربية ، وصار لكل دولة لهجتها العامية التي تميزها عن غيرها — وهذا ما سوف نعرض له بالتفصيل في هذا البحث ، الذي نؤرخ فيه للعامية ، مبينين العلاقة بينها وبين الفصحى في تاريخها الطويل حتى العصر الحديث ، فالعامية ما هي لا لغة محرفة عن الفصحى ، أو انحرفت عنها ، وليست لهجة منفصلة عنها ، أو لغة مغايرة لها .

(٢) ينظر الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ١٠ ، ٤٣ ، ٤٤

للمشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عيسى ، وأدبيات اللغة العربية

ص ٤ ، ٨ لمحمد عاطف بك وآخرين .

وفد يكون من المفيد أن نعرف بمعنى اللغة و اللهجة ، والعلاقة بينهما ، ليتضح مفهومهما لذكرهما في البحث .

اللغة :

كما يذكر ابن جني : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (٣) .

ويعرفها ابن خلدون بقوله : « هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانی ، ناشئة عن القصد لافادة الكلام ... وهو في كل أمة بحسب اصطلاحتهم » (٤) .

وعند فندريس من علماء الغرب المحدثين : « نظام من الرموز الصوتية » (٥) .

اللهجة :

في اصطلاح علم اللغة الحديث لها تعريفات عديدة منها « أنها مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمي الى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة » (٦) .

وفي تعريف آخر هي : « طريقة معينة في الاستعمال اللغوي ، توجد في بيئة خاصة ، وهذه الطريقة تكون صوتية في غالب الأحيان » (٧) .

وفي المعجم الروسيط : « طريقة من طرق الأداء في اللغة » (٨) .

(٣) الخصائص ١/٣٣ .

(٤) القسمة ص ٥١٤ .

(٥) اللغة ص ٣١ ترجمة د. الدواخل ، ود. القصاص .

(٦) في اللهجات العربية ص ١٦ د. ابراهيم أنيس .

(٧) اللغة العربية ، خصائصها وسماتها ص ٧٢ د. عبد العمار حلال .

(٨) المعجم الروسيط ٢/٨٤١ مادة « لهج » .

تاريخ العامية

العامية :

هي تلك اللغة ، أو اللهجة التي نتحدث بها في حياتنا اليومية ، مهما تباينت الطبقات ، واختلقت البيئات ، وتتنوع الأعراس ، ويختلف بها أدباء العامية ، وشعراؤها .

وهذا المصطلح له أسماء عديدة عند اللغويين منها « اللغة العامية » ، ولشكر اللغوي الدارج ، واللهجة المشاعة ، واللغة المحكية ، واللهجة العربية العامية ، واللهجة الدارجة ، واللهجة العامية ، والعربية العامية ، واللغة لدرجة ، والكلام الدارج ، والكلام العامي ، وفنمة الشعب » (١٠) .

وتلك اللغة أو اللهجة العامية ، لم تنشأ طفرة في عصر من العصور وإنما تضافرت في خلقها عوامل ، ومرت من حين بدايتها الى شعورها وانتشارها بأطوار ومراحل .

أما العوامل فكثيرة ، منها السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والصراع اللغوي ، والاتصال الحضاري ، ويؤازرها ما يتصل بالجهاز الصوتي في الانسان ، كالأخطاء السمعية ، وسقوط بعض الأصوات الضعيفة عند الكلام ، وانحراف الأصوات اللينة أو حذفها .

وهناك سبب آخر من العوامل السابقة ، وهو انهيار القيم الدينية والأخلاق الإسلامية بالنسبة عن كتاب الله وسنة رسوله الله ، لأن من يتهاون في دينه ، يسهل عليه كثيرا أن يتهاون في لغة دينه ،

(١٠) فقه اللغة العربية وخصائصها ص ١٤٤ ، ١٤٥ د . اميل

وإذا تتبعنا تاريخ العامية منذ البداية الأولى ، لوجدت أنها كانت قديمة وهو دية لاكتمال العربية الفصحى ، وذلك منذ بدأ اللحن يظهر في عصر المحالات الفردية ، التي لا تمثل ظاهرة تسترعى الأنظار في أول أدورها ، ولكنها سرعان ما كثرت وانتشرت ، وأصبحت في العصور المتتالية لعصر النهضة ، ظاهرة خطيرة استوقفت العلماء واسترعت أنظار الباحثين ، فسجلوها في كتبهم ، ودونوها في مؤلفاتهم كالشعبيين مواطن الخطأ في تلك الظواهر لطارئه على الفصحى ، موضحين وجوه الصحة والصواب ، ووضعوا قواعد وضوابط في النحو العربي تعصم مراعاتها اللسان من الخطأ .

و سوف نؤرخ لهذه المظاهرة على سبيل التجوز ، لأنه من الصعب التأريخ لكامل عمل هذه الظواهر اللغوية بالمعنى المفهوم (١١) للتاريخ أو التطور اللغوي التاريخي .

بذهب الدكتور حسن عون الى أن اللحن قد بدأ قبل الاسلام لاعتبارات واقعية ومطلقة ، منها اتخاذ بعض العرب الاءاء غير العربية موردا للرزق ، مما أثرت لغتهم غير العربية في العربية ويضرب مثلا بشاعر مشهور هو عنتر بن شداد المتوفى (٦١٥ م) .

هــ تـ كنت أمه حشبة اسمها زبيبة . ولكنه لم يتتبع أثر الحبشية في لغته .

ثم في أيام ظهور الاسلام نجد من غير العرب صهييا لرومي ، وبلالا الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وغير ذلك ممن كان لهم أثر في تسرب بعض الكلمات من لغاتهم الى العربية . ناهيك عن المصاهرة الزوجية التي لها أبغ الأثر في اللغة .

والواقع اللغوي من وجهة نظري يؤيد بعض ما ذهب اليه
الدكتور حسن عون ، فالرحلة الأولى للحن بدأت بالخطأ في المعاني
حيث أثر عن بعض شعراء الجاهلية نماذج من هذه الأخطاء .

— من ذلك قول زهير بن أبي سلمى في وصفه للصفادع (١٢) :

يخرجن من شربات مأؤها طحل

على الجدوع يخفن الغمر والغرقا

الشربات : جمع شربة ، وهي حويض يتخذ حول أصول النخلة
فيرويها ، والطحل : الكدر ، ويريد بالجدوع : جذوع النخل .

ويذكر المرزباني في الموشح «٤٧» أن هذا أنكر على زهير ، لأن
الصفادع لا تخرج من الماء ، لأنها تخاف الغمر والغرق ، وإنما تطلب
الشطوط لتبيض هناك وتفرخ .

ومن هذه الأخطاء قول أبي ذؤيب الهزلي في المدرة (١٣) :

فجاء بها ما شئت من لطيمية

يدوم الفرات حولها ويمرج

اللطيمية : نسبة الى اللطيمة ، وهي عير كانت تحمّل لبز والعطر
ونحوهما الى أحياء العرب ، وكانت مما تحمل ، الدر : وقوله يدوم
الفرات : أي يسكن ، ويقول الأصمعي : الفرات : العذب ، ولا يجيء
منه الدر ، إلا أنه غلط وظن أن الدرّة اذا كانت في الماء لعذب فليس
لها شبه ، ولم يعلم أنها لا تكون في الماء العذب ، « .

(١٢) ينظر الأخطاء اللغوية الشائعة ص ٢ للاستناد بمحمد علي النحّار

(١٣) السابق ص ٢ . وأبو ذؤيب من الشعراء المخضرمين .

أما الخطأ في عهد النبوة فكانت بدايته تتصل بحركات الأعراب
لأن أول ما اختلف من كلام العرب ، وأحوج الى التعلم الأعراب ، لأن
اللحن ظهر في كلام الموالي ، والمتعربين من عهد النبي - ﷺ - ،
فقد لحن رجل بحضرته فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » (١٤) •

وروى أن أحد ولادة عمر - رضي الله عنه - كتب إليه كتب لحن
فيه فكتب إليه عمر : أن قنع كاتبك سوطا (١٥) •

ومن ذلك قصة الأعرابي المشهورة إذ سمع قارئاً يقرأ قول الله
تعالى « أن الله بريء من المشركين ورسوله » بالكسر في « رسوله » (١٦) ،
فقال الأعرابي : أو قد بريء الله من رسوله ! ان يكن الله تعالى بريء
من رسوله ، فأنا أبرأ منه . (١٧) •

وحكاية أبي الأسود لدؤلى (١٨) مع ابنته مشهورة حيث أخطأت
في ضبط الجملة إذ قالت لأبيها وهي تريد التعجب - يا أبت ما أحسن
السماء (بضم أحسن ، وكسر السماء بالاضافة) قال أى بنية نجومها •
قالت لم أرد أى شئ ، فدعا أحسن ؟ إنما تعجبت من حسنها • قال :
اذن فقولى ما أحسن السماء ! (بالفتحة على الكلمتين) •

(١٤) انظر الخصائص لابن جنى ٨/٢ •

(١٥) السابق •

(١٦) القراءة الصحيحة المشهورة بضم اللام على الاستشفاف ، أما
القراءة بالكسر فهي خاطئة لأنها تفيد عطف الرسول على المشركين ، وهذا
ما استوجب تعصب الأعرابي حين سمعها • (من الآية رقم ٢ من سورة
التوبة) •

(١٧) ينظر الخصائص ٨/٢ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٥ •

(١٨) ينظر أخبار النحويين البصريين للمسيرافى ص ١٤ •

ومراتب النحويين لابن الطيب اللغوى ص ٢٦ •

تلك البوادر اللحنية في حركات الاعراب ، كانت الحافظ الأول
الذى استنهض همم علماء العربية لوضع قواعد النحو العربي ، وعلى
رأسهم أبا الأسود الدؤلى الذى وضع الأساس الأول لهذه المقواعد .

ولا فريد أن نطيل في سرد النماذج ، فكتب اللغة ، والأدب بها
الكثير ، وكذا كتب لحن العامة والفصيح .

ثم تلت المرحلتين لسابقتين ، مرحلة جديدة في اللحن ، حيث
نطرق الى بنية الكلمة ، ودلالة الألفاظ ، وكان ذلك بعد عصر الراشدين ،
في مكان الحاضرة حتى انه « لم يأت زمن الحجاج حتى فشا اللحن في
كلمات اللغة ، وحتى صار يستهجن الفصيح في كلمات العامة » (١٩) .
ثم ست هذه المرحلة ، مراحل معاصرة ، وكل منها تسلم السنة
التالية وقد اصابها من الاسراف والتعير ما جعلها غريبة بين اهليها ،
وكلما « ساءت العامة على خطئ المسحرف ، وامتد سيرها هذا ، وكثر
توغل العرب الفتحين في بلاد أعاجم ، وكلما امتد السير زادت بعدا
عن الفصحى ، لا أن هذا الطريق لم يكن ممهدا ، بل كانت تعترضه
عقبت من غناية المعناء بالفصحى لما رأوا ما منبت به من التحريف ،
فأخذوا في محاربة هذا الداء ، وصنفوا في تقويم شعبية وردها الى
الفصحى ، وتطهيرها ، أو تطهير أقلام الكتّاب على الأقل من اللحن ،
ونجد كثيرا من هذه الجهود في مثل أدب الكتّاب لابن قتيبة ، ودرّة
الغواص للحريرى » (٢٠) . وغيرهما من كتب لحن العامة .

ولم يقتصر الأمر في تأثر العربية بلغات البلاد التي فتحوها ،
وانما تعداه الى أكثر من ذلك ، حيث امتزجت الأمة العربية « بالفرس

(١٩) ينظر مولد اللغة ص ١٢٧ للعلامة الشيخ أحمد رضا .

(٢٠) السابق ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

والروم والأيونان ، وغيرهم من الأمم الأجنبية ، امتزاجا قويا تمتد في مصاهرة العرب هذه الأمم ، فتخذوا منهم الزوجات والجواري ، فأنجب منهن البنات والأولاد ونحن نعلم أن للامهات تأثيرا كبيرا على بناتهن . وأولادهن ، وأزواجهن . بفضل التقريبه ، والمعاشرة ، مما جعل الالكنة الأعجمية تشيع بين الناس حتى المشهراء والأمراء منهم » (٢١) . لأنها شاعت وكثرت في هذه المرحلة .

وأصدق مثال (٢٢) على هذا عبيد الله بن زياد ، الذي أصبح أميرا على خراسان ثم الكوفة ، والبصرة ، يحرف في كلامه فينطق بما يعاب عليه ، لأن أمة فارسية اسمها مرجانة ، من ذلك قوله : « افتحصوا مسيرتكم » يريد سلوا سيرتكم . مما فتح مجالا لهجو يزيد بن المفرغ له حيث قال :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك ضائع

وهو صاحب المراثية المشهورة التي نظمها بعد موت المغيرة بن المهلب والتي جاء فيها .

فان مرتت بقبوره شاعقر له
كرم المطى وكل طرف سابع

فقال له : يزيد بن المهلب بعد ما أنشده هذه القصيدة : أفعقرت أنت عنده ؟ قال : كنت على بنت الهمار ، يريد الحمار .

(٢١) مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ ص ١٥٥ بحث بعنوان

« بن العامية والفصحى » للأستاذ عبد الرازق البصير .

(٢٢) . لسابق ص ١٥٥ ، ١٥٦ . ولد عبد الله بن زياد في أصفهان

ونقلا بها ، ثم اسقل الى خراسان ولم يزل بها حتى مات ٦٧ هـ ٦٨٦ م في

الأعلام ص ٤٥٥ م .

ودعا زياد غلامه فأرسله في حاجة فأبطأ ، فلما جاءه قال : منذ
لادن دأوتك الى أن قلت لبي ، ما كنت تسناً ؟ •

بيد : منذ لادن دعوتك الى أن قلت لبيك ، ما كنت تصنع ؟ •

وهذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ —
٨٦٨ م) بروى نماذج من هذا المثل أو الانحراف اللغوي • منها :

— قال يوسف بن خالد التيمي لعمرو بن عبير : ما تقول في دجاجة
ذبحت من قفائها ؟ قال له عمرو : أحسن • قال : من قفاؤها • قال :
أحسن • قال : من قفاها — قل له : من عندك هذا ؟ قل من قفاها
واسترح (٢٣) •

— وذكر أن أحد الموالى نطق خمار وهش : همار وهش ، والعير :
اير (٢٤) •

وهذا ابن حنّى (المتوفى سنة ٣٩٢) يعقد في كتابه الخصائص باباً
في أغلاط العرب (٢٥) « وآخر في سقطات العلماء (٢٦) •

ومن أخطاء الشعراء :

أبلغ أب دختنوس مألكنة

غير الذى قد يقال ملكذب (٢٧)

(٢٣) البيان والتبيين ٣١٩/٢ •

(٢٤) المسائق ٣٢٠/٢ •

(٢٥) انظر الخصائص ٢٧٣/٣ •

(٢٦) السابق ٢٨٢/٣ •

(٢٧) أبو دختنوس كنية لقيط بن ذرارة ، ودختنوس ابنه ،

سمّاها باسم كسرى (انظر المسائق ٣١١/١ • وملكذب : أصلها من

الكذب حدثت النون) •

يرى ابن جنى أن « مألكة » خطأ ، إذ أن أصلها « لأك » فهي
ملئكة (٢٨) •

ويقول في «وسع آذر» (٢٩) : ومن اغلاصهم ما يباعيدون به في
الألفاظ ، والمعانى من نحو قول ذى الرمة :
والجيد من أدمانة عتود

فقليل : إنما يقال أدماء وآدم • والأدماء جمع ، كأحمر وحمران •
وأنت لا تقول جمرانة ، ولا صفرانة •

ويسجل الحريري (الموفى سنة ٥١٦) في كتابه درة الفواص في
أوهام الحوص مماذج كثيرة من هذه اللحن ونسك الأوهام المخالفة
لقاييس العربية وفواعد النحاة ، منها قوله : « ومن مفاحش ألحن
العامية لحاقهم هاء التانيث بأول فيقولون : الأولة كناية عن الأولى ،
ولم يسمع في كلام العرب ادخالها على « أفعل » الذى هو صفة مثل
أمر وأبدى ، ولا على « أفعل » الذى هو للتفصيل نحو أفضل
وأول » (٣٠) •

« ويتوالت في المنسوب الى الفاسقة والباطلاء فكهنى .
وبعلانى » يخطئون فيه ، لأن العرب لم يلحقوا الألف والذون في النسب
الا بأسماء محصورة زبدا فيها للمبالغة ، لقولهم للعظيم الرقبة •
وهبسى ، المكعب الحبة لحيانى • • • والمنسوب الى الروح

(٢٨) خصائص ٢٧٤/٣ ، ٢٧٥ •

(٢٩) السابق ٢٨٠/٣ ، والأدمانة : يريد بها الظبية السوداء •

راعتود : التى ترعى وحدها وأصله فى النوق •

(٣٠) درة الفواص ص ١٧٠ •

روحاني *** والى يائع الصبدال والصبيدن (اسمين للعقائر)
صيدلاني ، وصيفاني « (٣١) •

وفي ذيل المنصيح للبغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩هـ) نرى كلمات
كثيرة قد اشتهرت وذاتت في عصره ما زالت موجودة كما هي في
عاميتنا ، من ذلك •

١ - السحت : وهو السائل • ويعقب البغدادى على هذا الخطأ
الشائع بقوله : لا يقال بالناء ، فهو شحاذ (٣٢) •

٢ - يشتر (٣٣) : التى نسمعها كثيرا في ريفنا ، وهى محرفة عن
الفعل يجتر • وهو بفعل من الجر أى يجذب الحيوان الغذاء من جوفه
فيعيد مضغه •

ودما يطرد اللحن فيه في عصره ، ومازال شائعا في عاميتنا ،
فقد هم : في اسم الفاعل المعتل العين بغير همزة ، وهو بالهمز فقط .
نحو القائم ، والمقاتل ، والبائع ، والسائر « أى انهم يتوارن قائم ،
وشايل وباييم وساير » (٣٤) ولعل ذلك فيه تسهيل للهمزة وهى لهجة
مشهورة في قریش •

وما أن جاء القرن النامن الهجرى حتى اختلفت لهجات الأقطار
لعربية والاسلامية التى استبدلت لغتها بالعربية الفصحى ابان
الفتوحات الاسلامية ، وأصبح لكل قطر لهجته التى تميزه عن الآخر ،
وجميعها نباينت عن الفصحى ، أو لغة مضر كما يسميها ابن خلدون

(٣١) السابق ص ١١٢ •

(٣٢) ذيل المنصيح ص ١٦ •

(٣٣) السابق ص ١٩ . وانظر ص ٢٣ •

(٣٤) السابق ص ٢٣ •

« المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) لدى يسجل لواقع المعوى في عصره بقوله :
 « علم أن ملكة اللسان المعرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ، ولغة
 أهل الجيل كثرهم . معايرة اللغة مضر الذى نزل بهما القرآن » و . هـ . هـ
 لغة أخرى من امتزاج العجمة بها » (٣٥) •

ثم قال نحت « حصل فى ان لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة
 بنفسها مخالفة للغة مصر » : اعلم ان عرب الصحابة فى الأمصار وبين
 الحضر ليس بلغة مضر لقديمه ، ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة
 أخرى قائمة بنفسها . بعيدة عن لغة مضر ، وعن لغة هذا الجيل العربى
 الذى لعهدت . وهى من لغة مضر أبعد . فأما أنها لغة قائمة بنفسها
 فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التباين الذى يعد عهد صداعة أهل
 لنحو لنا •

وهى مع ذلك فختلف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم ، فلهذا
 أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب . وكذا أهل الأندلس
 معهما . وكل منهم متصل بلغة أى قادية مقصوده ، والابانة عما فى
 نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة ، وفقدان الآداب ليس بضائر
 لهم • • • • •

وأما انهما أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل ، فلأن البعد
 عن اللسان إنما هو بمخالفة العجمة . فمن خالط العجم أكثر كانت لغته
 عن ذلك اللسان الأصل أبعد ، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم • • • • •
 وهذه ملكة مترجمة من الملكة الأولى التى كانت للعرب ، ومن الملكة
 الثانية التى للعجم ، فعلى مقدار ما سمعوه من لغةهم يدرجون عليه
 يسعدون عن الملكة الأولى ، واعتبر ذلك فى أمصار افريقية والمغرب

والأندلس ، والمشرق ، أما الأريقية والمغرب فخالطت العرب فيها
 الدراية من العجم برفور : هم بها بهم ، ولم يكذبوا عنهم هذا
 ولا حب ، فغابت العجمة فيها على اللسان العربى الذى كان لهم ،
 وصارت لغة أخرى ممزجة ، والعجمة فيها آغلب (٣٣) .

وبهذا يتأكد لنا ما سبق ذكره من أن هذه العامية كانت نتاج
 عوامل كثيرة ، خلال قرون عديدة ، اختمرت فيها هذه الملاحون وكثرت
 ثم شاعت حتى أصبحت في عصرنا هذا لهجة نادية لها بعض الخصائص
 التى تميزها عن الفصحى ، وصارت في مد وجزر خلال هذا القرن ،
 نادية تطفئ ، وأحياناً تتحمر ، في الحديث اليومي ، وغيره من مناحي
 الأدب كالشعر العامي ، والقصة ، والمسرحية وغير ذلك من ألوان
 الغنون .

ولأن الأمر لم يكتف عند حد سريان العامية في مسارها اليومي
 دون تدخل ، أو تنظيم لها ، أو توجيه من المشرقيين على الفصحى ،
 أو من أعدائها الخارجيين عنها ، وإنما ظهرت في الأفق دعوة ، قدم بها
 أعداء الفصحى يدعون الى اتخاذ العامية بديلاً عنها ، واتخذت هذه
 الدعوة أشكالاً ، وانقسمت الى مذاهب واتجاهات ، وسوف نعرض
 لتاريخ هذه الدعوة من بدايتها حتى الان .

الدعوة الى العامية :

ان الدعوة الى العامية ، لتحل محل الفصحى ، كانت تصدر الى
 عرض أساسى هو القضاء على القرآن الكريم ، الذى رأى فيه أعداء
 الاسلام ايقوة العظمى التى تجمع المسلمين ، وتوحدتهم في لغة واحدة .
 تلك اللغة التى تربط المسلمين بثوائهم العلمى والحضارى والدينى ،
 واللغوى .

وهذا « الاتحاد اللغوي » (٣٧) كما يقول الأستاذ عباس حسن :
 « دعوة قديمة جديدة ، تظهر حيناً ، وتختفي حيناً على حسب ما يتاح
 لها من جو ملائم ، وفرصة مهيأة » (٣٨) .

ولقد بدأت هذه الدعوة كعمل منظم ، وبرنامج مخطط منذ القرن
 التاسع عشر الميلادي ، وذلك على أيدي مجموعة من المستشرقين .
 « ففي عام ١٨٨٠م على التحديد كانت البداية الصريحة المكتوبة ،
 والمنشورة ، حينما نشر الدكتور « أوليام مبييما » كتابه « قواعد
 العربية في العامية المصرية » ، وتنبأ فيه بمرت العربية الفصحى ، كما
 ماتت اللاتينية » (٣٩) .

ولكن دعوه تلك قد تحطمت على أعتاب الفصحى ، كما أن نبوءته
 لم تتحقق ، وإن نتحقق ، ما دام يتلى كتاب الله ويدرس ، ومعه ستة
 رسائل الله — ﷺ — باقية على مر الزمن ، وما بقي الأثر من عامرا
 معلمائه ، وهؤديا لرسالته ، مع معاهد العلم الأخرى في مصر والعالم
 الاسلامي .

وهذه البداية الصريحة المعلنة قد سبقها أعداد وتمهيد ومنحطوط
 ودراسة ذيل ذلك التاريخ المذكور بأكثر من قرن ، ويتجلى هذا في
 اهتمام الأجانب بدراسة اللهجات العامية ، والتركيز عليها في بحوثهم ،
 دوين اللهجات الفصحى ، أو العربية الفصحى بوجه عام ، وهذا الاهتمام
 له مظاهره ودلائله ، « حيث أدخلوا تدريس اللهجات العامية في

(٣٧) اللغة والنحو ص ٢٥٣ للأستاذ عباس حسن .

(٣٨) السابق ص ٢٥٢ .

(٣٩) ينظر بحثنا والحياة ص ١٠١ دكتورة بنت الشاطيء . وأهل

تشر هذه الدعوة باللغة الألمانية أبعدا عن التأثير في الحال الفكرى

العراقى . ينظر فقه اللغة ص ١٥١ د . أميل يعقوب .

مدارسهم وجامعاتهم ، كما أنشأوا مدارس خاصة لدراسة هذه اللهجات ، واستعانوا بالمستشرقين المهتمين بهذه الدراسات ، وكذلك الشرقيين الذين كانوا يعملون في بلادهم » .

١ - وفي إيطاليا : تأسست سنة ١٧٢٧م مدرسة نابولي للدروس الشرقية .

٢ - وفي النمسا : أنشئت مدرسة « فينا » سنة ١٧٥٤م .

٣ - وفي فرنسا : أنشئت مدرسة باريس للغات الشرقية الحية سنة ١٧٥٩م ، وفهام بالتدريس بها المستشرق الفرنسي سلفتردي ساسي ، والسوري ميخائيل الصباغ ، الذي شاركه في تدريس العربية ولهجاتها المحلية ، ولف كتابا « في المعجمة المصرية والشامية » وذلك في سنة ١٨٨١م .

٤ - وفي روسيا : أنشئت في موسكو سنة ١٨١٤م مدرسة « لاراف » للغات الشرقية ، ودرس فيها معهد عياد الخطاطي ، ولف كتابا في العامية المصرية بعنوان « أحسن النخب في معرفة لسان لعرب » وذلك في سنة ١٨٤٨م .

٥ - في ألمانيا : أنشئ مكتب في « برلين » لتدريس اللغات لشرقية ومنها العربية ولهجاتها المحلية ، وكان من المدرسين العامة فدحا دكتور أحمد والي ، والعامية الشامية ، أمين معربس ، و الدكتور هارتن الألماني الذي كان يعمل « قسلا » لبلاده في بيروت .

٦ - وفي المجر : أنشئت الكلية الملكية لعالم الاقتصاد الشرقية ، ودرس اللهجات ، ومنها العربية سنة ١٨٩٠م .

٧ - في انجلترا : أنشئت جامعة لندن في أوائل القرن التاسع عشر فرعا فيها لتدريس العربية الفصحى والعامية ، وكان من

مدرسيها : حبيب أنطوان السلموثي ، اللبفاني ، ولما ذهب الى لندن
أحمد فارس الشدياق ، اقترح عليه تأليف كتاب في العربية المحكية ،
أي العامة ، فوضع باللغة الانجليزية سنة ١٨٥٦م وسماه « أصول
اللغة العربية المحكية » (٤٠) .

والأمر الواضح — رغم خداع بعض المسميات — أن الهدف
الحقيقي لتلك امدارس أو المعاهد وفروعها هو تبيان صعوبة التصحى
ومشكلاتها بجانب سهولة العامة ، مما يخدم فكرهم وفكرتهم ،
ويحقق هدفهم .

وإذا نذكرنا الى داخل مصر نرى أن دعوة الأجانب الى العامة ،
قد بدت بوضوح في كثرة مؤلفاتهم ، التي تدعو الى تيسير اللهجات
العامة ونيل التصحى ، تحقيقا لأغراضهم .

من هذه المؤلفات (٤١) :

١ — « قواعد العربية العامة في مصر » للدكتور ولهم سميقة
الاماني الذي كن يعمل مديرا لدار الكتب المصرية .

٢ — « اللهجة العربية الحديثة في مصر » للدكتور كارل شوثرز
الأماني وكان مديرا — كذلك — لدار الكتب المصرية ، وأحد كتاب
دائرة المعارف الإسلامية .

٣ — « العربية المحكية في مصر » للكتاب الانجليزى سندن ولور .

٤ — « المقصب في عربية مصر » للمفاضى الانجليزى بالمصاحم
الأهلية المصرية « فيلوت باول » .

(٤٠) تاريخ الدعوة الى العامة في مصر ص ٩ وما بعدها . ننوسه
ذكرها .

(٤١) السابق ص ١٧ — وما بعدها .

« - محاضرة المهندس الري الانجليزى بالقاهرة » ولكرسى «
بعضران : لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ » وذلك فى
سنة ١٨٩٣م . وفيها نسب تأخر المصريين الى تمسكهم باللغة العربية
الفصحى .

ونجد ان هذه الامور ادى الى اسبغها ونحس فيها الاجساد وبعض
المستشرقين وجدت ان يؤيدهم ويدافعونها فى دخول الامة العربية ،
حيث انشأوا هذه وما ربه مع اهداف خصوم الفصحى من خارج
البلاد . ومن كان بعض ادعاءات الشرفاء لدراسة العامية لم يكن لهم
هدف لخدمهم ، ولا هدفهم ، رانما كانت هدفهم عوامل اخرى تتفق
مع ما يهدف اليه « علم اللغة الحديث » من خلال فرع مهم من
فروعه ، وهو علم اللهجات ، وذلك لخرض الاربقتاء بالعمية الى
الفصحى ، والموقوف بهذه الدراسة على مرمى التغيير والانحدار ،
وعوامل انحدار الفصحى الى العامية ، لوضع القواعد والضوابط للحد
من هذا التردى ، ومعالجة أوجه القصور فى الأسباب .

ولما حيزم نواجه المواقف التى منذ بداية هذا القرن حتى
الآن ، لا بد ان نعترف بوجود الثنائية اللغوية ، أو الازدواجية كما
يذهب بعض الباحثين (٤٢) . مع استمرار الصراع بين المختين
وانقسام العلماء حول هذه النقطة . فعلى حين يذهب فريق الى أن
الثنائية من دلائل تحضر الإنسان ، يرى فريق آخر أنها بليّة
عظيمة (٤٣) . وقد يبدو من هذه العبارة مفارقة الفريق الثانى للعربية
الفصحى فحسب . وهذا وهم . لأنه يقترح اقتراحات منفتة فى

(٤٢) ينظر فقه اللغة ص ١٤٥ د ، اميل يعقوب .

(٤٣) اسبق ص ١٤٨ .

اتجاهات خمسة ، وجزءها تم نعقب عليها بالتعليق والرأى
فيما يلي (٤٤) :

الاتجاه الأول : يدعو الى السمو بالعامية الى الفصحى .

الاتجاه الثانى : يطالب بالتخلى عن لفصحى والعامى الى لغة
أجنبية يرى حسب زعمه أنه تحيينا علميا ، وثقافيا ، واقتصاديا .

الاتجاه الثالث : يدعو الى نوع من الملاقاة ، أو التمازج بين
العامية والفصحى .

الاتجاه الرابع : يدعو الى ما يسمى اللهجة العربية المحكية
المشتركة ، وهى التى يرى أصحاب هذا الرأى لغة المتأدبين فى الأقطار
العربية . ولها أسماء عديدة ، منها : اللغة المتوسطة ، عند ساطع
الحصرى ، واللغة الثالثة ، عند توفيق الحكيم ، واللغة العربية الحديثة ،
عند يوسف الخال الخ .

ومن أهم خصائص هذه اللغة سقوط الأتراب ، وانصاعها كما يقول
أليس مريجة « بنورم » (٤٥) مشترك ، واعتمادها الفصحى معينا .

الاتجاه الخامس : يرى اعتمد العامية فى الكاية العلمية والأدبية ،
وفى محال الشئون التى تستخدم فيها الفصحى . أى الدعوة الى
العامية الخالصة .

(٤٤) السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤٥) هو المصطلح الانجليزى ، أو الفرنسى

ونشد عربية فريحة الى النورم وفق الوزن العربى « فعلل » وهو كما يوضحه
مريجة : المشترك ، أو النموذج العام أو المؤلف ، أو العادى المتفق عليه
والمتبول (هامش ص ١٥٠ من السابق) .

والاتجاه الأول : صعب التحقيق ، بعيد المجال في عصر اقتصاد المقيم الدينية والتوردي الاجتماعي ، والانحراف اللغوي .

والثاني : دروس ، وغير مبرور ، لأنه يمثل دعوة خارجة على المؤلف ، ودعائية لكر اللقيم ، وكأنها دعوة بغير دعاء ، أو دعوة بغير صدى ، وإن نقف عندها ، لأنها لا تستحق النظر والمناقشة .

الأوجه الثالث : براه مقبولا من الناحية اسمية واللغوية ومن من مدعيه منهجيا وواقفيا ، وسوف نعرض له بالتفصيل في العلاقة بين العامة والفصحى .

أما الاتجاه الرابع : الذي يدعى إلى ما يسمى بالفصحى المخففة ، أو السجدة العربية الحديثة المشركه فهو رأى نرفسه كذلك ، لأنه مجرد الفصحى من أهم خدمتها ، وأبرز سماتها ، وهو الأعراب . بل إن صاحب هذا الاتجاه يذهب أبعد من ذلك ، فتأسيس فريضة (٤٦) ، يدعو إلى : الاقتصاد في الضمائر ، وأحكام العدد والمعدود ، والتوريد النحوي ، وغير ذلك من قضايا النحوي الأساسية .

ودعوة أنيس فريضة في المقام لها ما يضاف في مصر ، فليدور محمد كامل حسين دعا إلى ما يسمى بالفصحى المخففة (٤٧) ، أو اللغة العربية المعاصرة . ومن خصائصها كما يقول : « عدم التمسك بالأعراب ، إلا لحالات الواضحة جدا ، وإطراد أبواب الفعل » وصيغ الحركات ، وجموع التكسير الأفيما ، هو مشهور ، والمعدول عن مطابقة العمل

(٤٦) ينظر فقه اللغة للدكتور اميل يعقوب .

(٤٧) انظر اللغة العربية المعاصرة ص ٨٨ وما بعدها للدكتور محمد

كامل حسين ، ومجلة مجمع اللغة العربية العدد ٣٩ ص ٦٠ دراسة حول

هذا الموضوع للأستاذ محمد شوقي أمين ، (نسخة الفصحى المخففة) .

عندما يترن هذا مثنى ، وانفك محاطة الرجال والنساء في حبال
لجمع ، وإباحة لبعض الكلمات غير المروغة للكاتب ، أو المرس .
بالصين المختلفة ، بحيث لا يتوقف عندها للتفكير في صحتها . من ذلك
مثلا : أروجه العديدة في الحق بكلمات « القزم » والحنق ، والسخط .
والحقبة « (٤٨) » .

وهذا الاتجاه لا يقل خطورة عن الاتجاه الذي يدعو الى ترك
الفصحى ، والالتزام بالعامية ، بل هو أكثر خطورة منه ، لأنه يدعو
دفعه . عربية فصحى في ظاهرها ، لها قواعدها التي تدرس . وهي في
واقع الأمر وحقيقة معاول تهدم العربية من الداخل ، لأنها أصلا تاما
بين التراث الاسلامي كله وبين حاضر ذلك الجيل الذي يتعلم قواعد
هذه اللغة ، التي ليست على سفن القدماء ، التي دون بها تراثهم
وحضارتهم ، وعلى القمة من هذا كله كتابهم المتدس ، القرآن الكريم ،
والسنة النبوية الشريفة ، ولذا لم يلق قبولا عند جمهور العلماء
والمتقنين .

والاتجاه الخامس . وهو الذي ترك الفصحى واتخاذ العامية
لغة أدب وثقافة ، ودراسة وكتابة ، فان ندفعه بأكثر مما دفعه
المسابقون .

(٤٨) اللغة العربية المعاصرة ص ٩٣ .

القزم . بفتح القاف وسكون الزاي الرجل ذو القصر وذو الدنائة .
• القزم : مفتحتين : الضئيل الجسم القصير النقامة ، والقزم : بفتح وكسر
كالقزم مفتحتين (الوسيط مادة قزم) . والحق : بفتح الحاء والنون :
شدة انغص (السابق مادة حنق) . والسخط (بفتح السين والحاء
ويضم السين وسكون الحاء : الكره والغضب) السابق مادة سخط ،
• السطوة . (بكسر الحاء) من الدهر المدة . أو الزمن أو السنة (السابق
مادة حطب) .

فالأستاذ عباس حسن عقب على هذا لرأى بقوله « لا أريد أن أدفعه بأكثر مما دفعه به علماء الاجتماع الأوروبيون ، والمستشرقون في مؤتمراتهم وغيرهم من كبار الباحثين بعد دراسة طويلة ، وبحث مستفيض ، ففد عرضوا للمشكلة من حيث هي موضوع اجتماعي ، وموضوع علمي مني . لا تتفرد به أمة ، وركزوا بحثهم في الإجابة عن السؤال الآتي :

أهن الخير أن ترتفع اللغة العامية الى مستوى الفصحى . أم الخير في أن تترك الفصحى الى «درك العامية» ؟

جاءت الإجابة صريحة قاطعة ، في أن الخير كله في رفع العامية ، لا العكس وحججهم في هذا ناصعة ، يعيننا منها قولهم : أن العامية لا ضوابط لها تحدها ، ولا قواعد جمع تستاتها ، وأنها تختلف اختلافا واسعا بين أمة وأخرى .. » (٤٩) .

وفي عالمنا العربي تختلف العامية فيه كذلك بين أقطاره . بل إن القطر الواحد تختلف فيه اللهجات بين محافظاته ، أو مديرياته .

وفي عصر ابن خلدون في القرن الثامن الهجري كان فيه ما يشبه ذلك ، فما بالنا اليوم في عصر تداخلت فيه مصالح بين دول العالم كله ، وتنوعت وسائل المدنية والتحضر ، وكثرت الاختراعات الحديثة التي فرضت مسهياتها في كثير من الأحيان على اللغات المغايرة لها، مما أحدث فروقا بين اللهجات ولغتها . « وهذه لفروق كم لا يخفى على من يلتقى سمعه اليها عظمة جدا . فلهجة أهل مصر تختلف لهجة أهل الشام ... وكلا اللهجتين تباين لهجة المغاربة ، وتغابر اللهجات الثلاث لهجة سكان الحجاز . ولهجة الأردن لا توافق واحدة مما ذكر ، بل

إذا أخذت لهجة واحدة من هذه اللهجات ، كلهجة المصريين مثلاً ، نجدها متنوعة تدوعاً عظيماً ، وإن كانت معدودة واحدة في مقابلة لغة المغاربة أو السودان ، أو الشاميين ... » (٥٠) •

فكيف إذن يتيسر لنا وضع قواعد وضوابط ومعاجم تلك اللهجات المتباينة في الإقطار العربية ، بل في كل قطر منها تتباين لهجات المحافظين الواحدة وأذاً ، كان دعوة العامية يشكون صعوبة الفصحى الواحدة ، التي تجمع ونوحده ، فكيف تكون صعوبة العامية المتباينة ، التي نفرق وتبدد ؟ !

وعلى أية حال فإن سهم هذه الدعوة ردت إلى فحور دعائها ، وكان لها أثرها المحدود ، دون قصد منهم « ورب ضارده دفعه » •

أثر الدعوة إلى العامية :

كان من أثر العامية نبتت دراسات جديدة ، والأبحاث القيمة في دراسة اللهجات العامية ، واللهجات المسيحية ، والعلاقة بين العامية والفصحى ، مما كان له عظيم لآثر في خدمة الفصحى ، والأدباء بالعامية من وهدفها لتقريب من الفصحى ، وارتدت دعوتهم إلى عدس ما كانوا يهدفون ، وحلاف ما يتصورون ، فذنت فاتحة للدراسة العلمية المنهجية التي تنسدها علم اللغة في فرع من فروع وهو دراسة اللهجات •

وبدأ العلماء والباحثون يولون هذه الدراسة الجديدة اهتماماً خاصاً وتركزت بحوثهم في عقد الصلة بين الفصحى وأحدى لهجاتها أو العامية ولهجات الفصحى للكشف عن العلاقة بين ذلك منهما ، ومعرفة الخصائص المستقرة ، وأوجه الاختلاف ، وتسميته ووضع الحاول والقواعد التي تنال

الهوة بين العامية والفصحى ، وغير ذلك مما يخدم العربية من مجالات الدراسة ، كعلاقة المقراءات القرآنية باللهجات العربية .

وسوف نورد هنا بعض هذه البحوث في المجالين : اللغة العربية الفصحى ولهجاتها ، واللهجات العامية ، وعلاقتها بالفصحى :

أولا : من الدراسات في اللهجات العربية الفصحى :

١ - لهجات العرب للأستاذ أحمد تيمور طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢ - في اللهجات العربية دكتور إبراهيم أنيس الانجلو .

٣ - اللهجات العربية في المقراءات القرآنية د / عبد الرأجي دار المعارف .

٤ - اللهجات لعربية نشأتها وخصائصها د / عبد الله ربيع - د / عبد العزيز علام طبع سنة ١٣٩٧ - ١٩٧٧ المكتبة التوقيقية .

٦ - اللهجات الحجازية د / إبراهيم محمد نجا مطبعة السعادة .

٧ - اللهجة الحجازية في كتاب البحر المحيط لأبي حيان (رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم) .

٨ - في اللهجات العربية د / محمد أحمد خاطر دار المطبعة المحمدية .

٩ - العربية ولهجاتها د / عبد الرحمن أيوب سجل العرب .

ثانيا : من الدراسات في اللهجات العامية ، وعلاقتها بالفصحى :

١ - مميزات لغات العرب للأستاذ حفنى ناصف مطبعة المسعودى سنة ١٣٣٠ هـ .

٢ - المحكم في أصول الكلمات العامية د / أحمد عيسى مصطفى الببى
الطبع سنة ١٤٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

٣ - معجم تيمور الكبير أحمد تيمور الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ - لهجة القاهرة (رسالة دكتوراه من لندن) د / إبراهيم أنيس .

٥ - لهجة الكرنك (رسالة ماجستير من لندن) د / تمام حسان .

٦ - لهجة عدن (رسالة دكتوراه من لندن) د / تمام حسان .

٧ - لهجة النوبة (رسالة دكتوراه من لندن) د / عبد الرحمن

أيوب .

٨ - دراسة نحوية في اللهجة الليبانية (رسالة دكتوراه من لندن)

د / كمال بشر .

٩ - لهجة البدو في اقليم ساحل مريوط دراسة لغوية (رسالة

ماجستير د / عبد العزيز مطر مطبعة الهيئة العامة للكتاب .

١٠ - لهجة شمال سيناء (رسالة دكتوراه كلية اللغة العربية جامعة

الإزهر) و محمد سعد أبو عبا .

١١ - معجم شمال المغرب بطوان وما حوله د / عبد المنعم سيد

عبد العال دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

١٢ - محوثة سائرة في مجالات مجمع اللغة العربية وبخاصة المحدث

٢٤٩ (٢٥) ٢٤ لسنة ١٣٩٨ - ١٩٧٨ لادى كرس هذه البحوث ، والعدد

٣٩ ، ٣٨ .

(٥٢) بهذا العدد ثمانية بحوث عن العامية والفصحى ، حيث

خصص لهذه الدورة الرابعة والأربعين للمجمع الذى كان موضوعها الرئيسى

« العلاقة بين الفصحى و العامية » .

وغير ذلك من بحوث المستشرقين : منها :

١ — العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب تأليف يرهان هك .

المطبعة العربية الحديثة .

٢ — مقدمة في العامية العربية في مصر ، للباحث الانجليزى ن يشيل
(طبع في لندن سنة ١٩٥٦ م) .

٣ — أصوات العامية في مصر للباحث الأمريكى د. س. هريل (طبع
في نيويورك سنة ١٩٥٢) .

أغراض البحوث في العامية وعلاقتها بالفصحى

أما أغراض البحوث في العامية فمن أهمها :

١ — الوقوف على أصول الكلمات العامية لمعرفة ما أصابها من
تغيير أو تحريف في المستويات اللغوية الصوتية والنحوية ، والتعريف
والدلالة .

٢ — التقريب بين العامية والفصحى . أو الارتقاء بالعامية الى
مدارج الفصحى .

٣ — رصد حركة الدخيل من الكلمات الأجنبية في لهجاتنا العامية ،
وكذا في لغتنا الفصحى . والتي أصبحت تمثل خطرا داهما على اللغة ،
والوقوف أمام يورها الجشرف ، والحد من هذا السيل المستمر منها .
وذلك بالتعرف بخطورة هذا الطوفان وتعريف هذه المصطلحات .
والاستعاضة عن الكلمات الأجنبية بالكلمات والمصطلحات العربية .

ولأهمية هذه الدراسات ألقت في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة
علمية لدراسة اللهجات العربية الحديثية . ومن أغراضها « دراسة

اللهجات العامية في مصر وسائر الأقطار العربية» (٥١) ، وهي كما يقول الأستاذ العقاد « من نفع أعراض المجمع في خدمة اللغة الفصحى . لأننا نساير اللهجة العامية في تعبيراتنا ، وتصرفنا فيها ، ونقيس عليها ، فنخلص من المشابهة حسنا ، والمخالفة حيث آخر إلى شيء من الأصول التي جرت عليها اللغة الفصحى فيما يقابل هذه التعبيرات أو هذه التصرفات » (٥٣) .

ثم ذكر أغراض البحوث في الفصحى والعامية ، وسوف سنذكر غرضين أساسيين ومهمين هما (٥٤) :

- ١ - بحث يراد به التقريب بين اللغة الفصحى واللهجة العامية .
- ٢ - بحث يراد به الانتفاع من دراسة اللهجة العامية في توضيح بعض القواعد التي استقرت عليها اللغة الفصحى .

ثم وضح لغرضين السابقين بقوله :

- ١ - وهما لا شك فيه أن التقريب بين الفصحى والعامية ممكن . وأنه يزداد امكانا في العصر الحاضر ، لأن أسباب انتشاره والتفرع كانت ومبررة في العصور الماضية . ولم تكن إلى جانبها أسباب لتوحيد والتقريب قسارها في قوتها وأثرها ، فتوافرت هذه الأسباب في العصر الحاضر بعد شيوع الصحافة والاذاعة ، والصور المتحركة ، وقوالب الحكى المشهور باسم الاسطوانات .

(٥١) بحوث في اللغة والأدب ص ٣٨ للأستاذ عباس العقاد « آمال

من اللهجات العامية »

(٥٢) السابق ص ٢٨ .

(٥٤) السابق ص ٤٢ بحث بعنوان « أغراض البحوث في الفصحى

وعامة » .

ومما يرجى من آثار هذا التقريب أن ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين وأن يدخل في الفصحى مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة يمكن إجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بغير تعديل أو ببعض التعديل .

٢ - أما الانتفاع من دراسة اللهجة العامية في توضيح قواعد الفصحى فمن الأغراض التي يثقل فيها الخلاف بين الأطراف ، لأن نصريفات اللهجة العامية وشتقاقاتها ، وتركيب عباراتها يجري بين أيدينا وعلى مسمع منا . ومنها ما يتعلق بالأدال وتغير الحركات ، وخصائص الجملة الاسمية ، ومعاني الأضداد واختزال الحروف من الكلمات للدلالة على التنفيس أو على الحالة التي أشباه ذلك من مواضع الممارسة التي تفيد في الرجوع إلى عوامل التطور في اللغة الفصحى قبل استقرار قواعدها أو في سبيلها إلى الاستقرار .

وحيثما وضع العلامة أحمد تيمور معجمه الكبير في الألفاظ العامية عال في مقدمته . « غرضنا الأول من وضع الكتاب إحياء اللغة العربية الفصحى ، ذكر العامي ونفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة ، أن كان عربي الأصل ، أو بيان مرادفه إن لم يكن كذلك ليحل محله ، ويرجع إليه في الاستعمال » (٥٥) .

وأحياء الفصحى من خلال البحوث في العمية ، ونجاح محاولات التقريب بين العامية والفصحى ، تؤكد العلاقة بينهما ، وهذا مساند على حقيقة الهدف في الوصول إلى لغة فصحى معاصرة « لغة أخطا العاميون انتمسوا إليها . كما أخطأ المتفادون المنزول عندها » (٥٦) هي « فصحى مقسرة ، شفاطة ناصعة ، تنزل بيسرها ووضوحها عند سدفوح

(٥٥) مقدمة معجم تيمور الكبير ١/ ١٨ .

(٥٦) نومة المعبر الأدبي بين العامية والفصحى ص ٧٨ الأسبند

إبراهيم الأبيدي ، والأسبند رضوان إبراهيم .

العمية ، وترنفع بما فيها من طاقات حيوية دافقة الى امنية المبلورة التي عرفها التاريخ وواقع الحياة بها في جوهرها من سمات البقاء والخلود » (٥٧) .

وسوف يتحقق لتقارب التام في القريب ، حيث ان اعممية ينف المصحى التي نحتج الى تهذيب وتصحيح وتنقيح ، كما ان هذه المصحى المعاصرة ، ليست دعوة جديدة ، انما هي احياء لها منذ بدأ وسادت في العصر العباسي ، فلقد « استطاع الأدباء في ... » ، فنفذوا الى اسلوب جديد غزوه بعقولهم الخصبية ، وما أثاروه من المائى المبتكرة . مع حفاظهم فيه للمصحى بكل مفوماتها ، وأوضاعها لندوية والصرفية ، وهو أسلوب نهض على أساسين لغويين ، هما : عدم الألفاظ الدوئية الجافية ، وبذ الألفاظ العامية المسفة المبتذلة . أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال » (٥٨) .

وهذه المصحى المعاصرة ، قد تهيأ في هذا العصر ما يساعدها على الانتشار والذوع ، وفرض سيطرتها لغة حديث وأدب وكتابة ، وازاحة العامية المطلقة من طريقهما ، وهذا وقع نلمس قبائمه جميعا في شتى الآداب والفنون « فاللهجة العامية المستخدمة في كثير من القصص والمسرحيات المعاصرة ، ليست هي نفس اللهجة العامية المتداولة كما قد يظن كثير من الناس » بل هي لهجة وسطى بين العامية والمصحى ، وهذا نفسه يلاحظ في الأرجال الشعبية المعاصرة . فلغتها تقتصر كثيرا من كلمات المصحى المعاصرة وتراكيبها ، ومعنى ذلك ، أن الفنون الأدبية

(٥٧) السابق ص ٧٩ .

(٥٨) انظر مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ بحث بعنوان

« المصحى المعاصرة » د . شوقي ضيف ص ١٩ .

في العامية تدفع في عهدها الى الاقتراب من الفصحى ، اندفاعا يعثر
بأنها ستصيح يوما لغتها السائدة » (٥٩) •

وسوف نذكر بعض النماذج اللغوية لتوضيح وشائج القربى بين
العامية والفصحى ، منبهين الى أمرين :

الأول : من مظاهر المخلاف ، ترك الاعراب في الأعم الأغلب في
اللهجة العامية •

الثاني : كثير من كلمات العامية اشتاعة ما يزال ريبا فصحا لم
يصبه تحريف أو تغيير مثل : جمل ، باب ، كتاب ، حيوان ، انسان
جامع ، أكل ، ضرب ، شرب *** الخ وغير ذلك كثير •

أولا : المستوى الصوتي :

١ - تسهيل الهمزة : وهذا شائع في العامية يقولون غاس راس ،
فار ، في مأس ، ورأس ، وفأر •

والمعروف أن تسهيل الهمزة من خصائص اللهجة الحجازية ، كما
أن التحقيق من خصائص بنى تميم •

٢ - من الشائع في العامية قلب الألف المنطرفة همزة يقولون في
لا لا • ولعل ذلك نوع من لتحيين المشهور في بنى تميم •

٣ - كسر أوائل الكلمات :

المشهور أن أحرف المصارعة دائم مفتوحة ما لم يكن الفعل رباعيا
فتضم ، ولغة بهر • كسرهما مطلقا فيقولون في نحو « تعلم » بالفتح
تعلم بالكسر • وقيل انها منسوبة لبنى أسد ، وقيس وقيس وربيعه
والمعروف أن بهراء بطن من تميم •

وهذه الظاهرة تسمى « تثلثة » ، وعليها قراءة بحمى بن وثاب
« ولا تركنوا الى الذين ظلموا ... » بكسر الفاء فى « تركنوا » (٦٠)
وهى قراءة شاذة •

وعليها قول شاعر بنى تميم :

أو قلت ما فى قومها لم تبثم تفضلها فى حسب وميسم

وهذه التثلثة شائعة فى مدن مصر وقراها (٦١) •

وكما أن كسر أوائل الأفعال كان شائعا فى بعض اللهجات القديمة
مكذلك كسر أوائل الأسماء : حدث أثر بن بنى تميم كسر ما يفتح عند
أهل الحجاز يقولون : بعيد ، وشعير ، وسريز • بالكسر •
وهذا أيضا شائع فى العامية المصرية •

ثانيا : المستوى الصرفى :

— يشيع فى بنية لكلمات اسعامية ظاهرة القلب والابدال : حيث
يرى كثيرا من الكلمات وقد أبدلت حروفها بحروف تقرب منها مخرجا
أو صفة ، أو صفة ومخرجا •

فقولون مثلا : فى بدثر : بدثر ، بقلب الثاء تاء ، وفى شعلب تعلب ،
قال آل ، بقلب القاف همزة ، وهكذا •

كما يشيع عندهم هيلهم لى تغيير حركتى الضم والكسر على بعض
الصيغ الى الفتح مثل :

(٦٠) سورة هود آية ١١٢ •

(٦١) انظر الصحاح لابن فارس ص ٢٧ والخصائص لابن جنى

١٢/٢ ، والبحر المحیط لأبى حيان ٢٢/١ وانشىء ٢٧٢/٢ ويحدث بيمور

ص ٨٦ ومميزات لغات العرب ص ٢٣ ، ٢٤ لحنى ناصف •

١ - فَعْلُول بضم الفاء : غيرها العامة الى فَعْلُول بفتحها مثل
خُطُوم ، وصندوق وعربون •

٢ - فَعْلِيل (بكسر الفاء) غيرها العامة الى فَعْلِيل بفتحها مثل
قنديل •

٣ - مَفْعَلَة (بكسر الميم) غيرها العامة الى مَفْعَلَة بفتحها مثل
مدخنة ، مكتبة •

الشائع في هذه الصيغ وغيرها ميل للعامة الى الفتح سهولته •
٢ - ويلاحظ كذلك ميلهم الى حذف آخر حروف الجر يقولون :
خرجت من البيت •

يقولون : خرجت م البيت ، ع الشارع ، فـ المدرسة •
واشهور في بعض اللهجات العربية حذف نون من المجارة ، واللام
والألف من « على » •

« م » (٦٢) - اشهور في نون من الحارة أن تنفى دائما سواء
ولبها متحرك أو ساكن • الا أنها تكون سائلة اذا وليها متحرك ،
ومكسورة اذا وليها ساكن غير أل ، ومفتوحة اذا وليها أل •

مثالها في مواضع الثلاثة « من ابتداء الساعة الأولى من يوم
الجمعة ما رأيت أحدا من الناس » الأولى مكسورة ، والثانية ساكنة ،
والثالثة مفتوحة •

وخشتم وزيد هـ من قبل ، لـ ليمن يـ حذفون النون اذا وليها
ساكن فيقولون : خرجت ما لدار ، خرجت لمسجد •

وقال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أقفية العدا بما حاوز الآمال ملا سر والقتل

وهي مستعملة عند العامة في مصر وغير مصر ، وكثير من الشعراء
تأبعمهم في ذلك :

وتجَنَّبَ اذْب الخُلصاء كاسُنَاتُ بِهَا

ملا نس أعذب من سلافة صرَّخد

ومطارغا ملسود يلتحفونها

يرخي الحفى على الحفى بمحفد

وصرَّخد اسم بلدة بالشَّام تتسب اليها الخفر الجيدة ، والحفى
المدينى النصوح ، والمحفد : طرف القوب •

— « على » (٦٣) لغة بلحرث حذف اللام والألف من «على» الجارة
إذا وليها ساكن • فيقولون : (ركبنا علفرس) ورأيت كائى أمشى
علماء) •

وهذه اللغة لا يكاد يستعمل سواها عند العوام ، فيقولون : أقعد
علكرسى ، وصل عالنبي •

ثالثا : المستوى النحوى :

١ — من مظاهر العامية في هذا المستوى ترك الاعراب • ويتمثل
ذلك في تسكين أواخر الكلمات يقال : أخى سافر ، أو يسافر بتسكين
الفعل ، كما يقال : شربت شراب ، وأكلت طعام • بتسكين أواخر
الأسماء •

٢ — حذف نون الرفع لغير فاصب أو جازم يقولون : أنتم تحبوا
الخير ، والمشهور في الفصحى « تحبون » (٦٤) •

(٦٣) السابق ص ٣٥ •

(٦٤) مشكلات اللغة العربية ص ١٩٠ محمود تيجور •

٣ - الوقوف على المنقوص بثبات الياء يقال : الدنيا نالهي .
وتسالي . . . » وحتى من العرب جوازها « ربه قريء قوله تعالى
« ولكل قد رم هادي » (٦٥) وقوله تعالى « وما لهم من دونه من
والي » (٦٦) . وذلك في حالة الوقف (٦٧) .

يقول ابن الجزري : قرأ ابن كثير هاد ووال وواق وما عند الله
باق . بالتقوين في الرحمن . فاذا وقف ، وقف بالياء في هذه الأربعة
الأحرف حيث وقعت لا غير . والساكنون يصارون بالتقوين ، ويقتنون
بغير ياء » (٦٨) .

٤ - في تصحيح والاسلال (٦٩) : المشهور بقاء الألف من المقصور
على حالها . في الأضامة نداء هذا فتك . فتى . وهذيل تقلبها ياء
إذا أضيف الاسم لياء المكلم ، فيقولون : عمى مع فتى ، قال شاعرهم
(أبو ذؤيب الهذلي) :

سبقوا هوى واحنةوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
وسائر مسكن مصر يقلبون ألف التنوين ياء عند الاضافة للياء
فيقولون : رجلى . وعينى : أى رجلاى وعيناي فلعل ذلك توسع منهم
في لغة هذيل .

رابعاً : المستوى الأدللى :

لاشك أن كثيراً من الألفاظ العامية التي لها أصل في النصحي .

(٦٥) سورة الرعد آية ٧ .

(٦٦) سورة الرعد آية ١١ .

(٦٧) مشكلات اللغة العربية ص ١٩١ .

(٦٨) انظر تحرير التيسير لابن الجزري ص ١٢٨ .

(٦٩) مميزات لغات العرب ص ٢٩ .

لم تتغير دلالاتها في الاستعمال العامي • بل ان بعض هذه الألفاظ عرسي صحيح وقد يظنه بعض المثقفين أنها عامية •

اللفاظ يظنها البعض عامية مثل :

١ - كلمة « مدشوش » (٧٠) يقال « دس مدشوش » ويحاول بعض الناس تصحيحها لى مجروش » (٧١) • وكلاهما لفضان «ربيان صحيحان •

٢ - رز (٧٢) : ذلك النبات ذو الحب المعروف : يظن العامة أن الصواب أرز • ولكنهما كلمتان فصيحتان ، بل ان الفراء قال : رز ولا تقل أرز •

٣ - شب (٧٣) : يقال : « شب فلان على قدميه » وهذه الكلمة صحيحة في العامية • فالشب : الارتفاع •

- ألفاظ حرفتها العامة بإبدال الحركات ولم تتغير دلالاتها (٧٤) :

١ - الدكة : بفتح الدال ما يقعد عليه ، وينطقها العامة بكسر الدال • •

٢ - اللهه . بكسر اللام وفتح الراء اللحم حول الأسنان ، والعامة ينطقونها بفتح اللام •

٣ - رزمة : تقول رزمة من الورق والجمع : رزم بكسر الراء وقد تفتح وهي ضروب متنوعة ، وإحالات مختلفة تشد بعضها الى بعض ، والعامة تنطقها بضم الراء •

(٧٠) الوسيط مادة د ش ش •

(٧١) السابق مادة ج ر ش وجرش الحب : لم ينعم دقة ، ومثله دس

(٧٢) انظر السابق مادة أرز ورز ولسان العرب •

(٧٣) الوسيط مادة (شب) •

(٧٤) يرجع الى معاجم اللغة وبخاصة الوسيط في معاني هذه

اللفاظ •

— الألفاظ الخطأ العامة في معانيها :

١ — يقولون : خط ثنبيه • والصواب طر ثناربه ، أي نبت : أما الشنب : فهو رقة الأسنان وعذوبتها •

٢ — يقولون : ملان غاو لكذا — والصواب هزو أو مدد له • أما العوى فهو اتصال : يفعل عوى يغوى غواية فهو غاو •

٣ — يقولون : استلمت ددا : ويديلون الكتبة يقولهم : المستم والصواب تسلمت — المتسلم •

ففي معاجم اللغة : تسلم منى الشيء قبضه وأخذه ، والماعل متسلم ، وسلمت الشيء إليه فتسلمه أي : أخذه •

ويقال : استلم الحجر الأسود : مسه باللميلة أو اليد ، واستسلم الزرع : أخرج سنبله •

— أما الألفاظ التي اخترعها العامة ، فهي بادره وقليله ، حداد ، وتذكر في موطن التدبر والتفكه •

ومعاجم العامية بها المئات من الألفاظ التي لها علاقة جد وثيقة بالفصحى . وكذا الكتب التي تناولت هذه الظاهرة بلغت والدراسة التي تأكد من خلالها تحقيق الهدف الأسمى من بحوث التقريب بين العامية والفصحى ، ونضوج العامية وارتقيتها إلى الفصحى ، فيما يسمى بالفصحى المعاصرة •

وبختمت هذا الحب بمجموعة من الآراء والمقترحات التي تساعد في تحقيق هذا الأمل المرجو ، القريب تحقيقه بإذن الله •

من هذه لاقتراحات ما دعا إليه المذكور شوقي ضيف « من وضع معجم في كل بلد عربي يستقصى فيه الألفاظ العامية العربية الأصل التي

جميع في السفة أبنائه مع النص على التفرع من هذه الأعطال بين البلاد العربية ليستغل ذلك في الأدباء المعاصرون في كتابتهم القصصية والصحفية» (٧٥) •

بالإضافة الى :

— جمع نطّات لأجنبية يستعمله في اللهج المنفرد في البلاد العربية ، وتدريب ما يقادها من الألفاظ العربية في معجمات خاصة بكل بلد ، ثم جمعها في مجمع واحد للبلاد العربية كلها (٧٦) •

وهذا العمل يحتاج الى تصافر جهود الجامعات العربية كلها والهيئات اللغوية والجامعات المهمة بالأدراكات العربية ، والتزام من جميع المؤسسات ، الهيئات ، والوزارات وغيرها بقرارات ومقترحات المجمع العربية المأهولة • وهذا ، كما لوحدت المصطلحات ، وعدم تعدد ما في كل قطر ، والقضاء على تلك الفوضى اللغوية •

— من شأن يلزم من حذام العربية في كل المجالات ، ولا يصح بقرائن الحال الفكرية والتمكث والمؤسسات الأسماء شردية •

— أن يكون مجمع اللغة العربية سلطة لغوية ، ويستلزم ذلك اتصاله بكل الهيئات والمؤسسات ذات التأثير اللغوي والأدبي كالجامعات وعلى قمته جامعة الأزهر وبعض الوزارات ، والصحافة ، ووسائل الأعلام جمعها • ومؤسسة لطباعة والنشر الكثرى لإعداد الكتب ومقترحات المجمع ، وتصحيح وتقويم ما تقاير من مصطلحات •

(٧٥) مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ ص ١٧ (انقصر)

(انقصر) •

(٧٦) السابق ص ١٧ •

أو إيجاد البديل للعربية للكتابة و اصطلاحات التي نستحدث في هذه
المواقع كلها .

وحينما دعو الى سن قانون ملزم للعربية الفصحى ، لا أدعو
الى مدعه . وإنما متأسياً بدولة عربية تسقيتة هي العراق ، حيث أقترح
المجمع العلمي العراقي خطة المنهوض باللغة العربية والمحافظة على
سلامتها، فأصدرت الدولة القانون ٦٤ لسنة ١٩٧٧م وهو قانون الحفاظ على
سلامة اللغة العربية ، وقد نشر في الجريدة الرسمية في العدد ٢٥٨٧ في
١٦/٥/١٩٧٧م واعتبر نافذاً بعد ثلاثة أشهر .

وقد أوجب القانون اعتماد اللغة العربية في كل المجالات (٧٦) ،
نعم ان الدستور في مصر ينص على أن العربية هي اللغة الرسمية ،
ولكننا نريد قانوناً ملزماً ، والله الحافظ للغة قرآنه ، والغد مبشر ، واني
متفائل بقرب تحقيق الأمل .

دكتور / عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم

(٧٧) انظر تفصيل القانون في «مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١
س ١٧ بحث للدكتور حسين علي محفوظ بعنوان « تقريب العامية من
الفصحى » .

مصادر البحث

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - أخبار السحويين البصريين للسيرافي - تحقيق الأستاذين طه محمد الزبيبي ومحمد عبد المنعم خفاجي - مطبعة وفشر مصطفى البابي الحلبي .
- ٣ - الأخطاء السفوية الشائعة للأستاذ محمد علي السجار .
- ٤ - أدبيات لغة العربية ج ١ للأستاذ محمد عاطف بك وآخرين، المطبعة الأميرية بمصر الطبعة الأولى ١٩٠٦ م .
- ٥ - أزمة التعبير الأدبي بين العامية والفصحى للأستاذين إبراهيم الأبياري ورضوان إبراهيم - دار الطباعة الحديثة ١٩٥٨ م .
- ٦ - البحر المحيط لأبي حيان النحوي الأندلسي - مطبعة السعادة - ١٣٢٨ هـ .
- ٧ - بحوث في اللغة والأدب للأستاذ عباس محمود العقاد - مكتبة غريب للطبع والنشر .
- ٨ - البيان والنبين للجاحظ - دار صعب - بيروت .
- ٩ - تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر - دكتورة نهوسة زكريا - دار المعارف .
- ١٠ - تاريخ اللغات السامية - دكتور إسرائيل ليفسون - مطبعة الاعتماد - الطبعة الأولى .
- ١١ - تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة - لابن الحزري - تحقيق الشيخين / عبد الفتاح القاضي ، ومحمد الصادق قمحاوي - دار التراث بمصر .
- ١٢ - الخصائص لابن حني - تحقيق الأستاذ محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة والنشر بيروت .

- ١٣ - درة الغواص في أوهام الخواص للحريزي - بحسب الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر بالقاهرة .
- ١٤ - ذيل قصيح ثعلب لعبد اللطيف بن محمد البغددي نشر وتعليق دكتور محمد عبد المنعم خفاجي - المطبعة النموذجية - الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .
- ١٥ - الصحابي لابن فارس - تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر - مطبعة عيسى البابي الحلبي .
- ١٦ - فصول في فقه العربية دكتور رمضان عبد الواب - مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- ١٧ - فقه اللغة - لدكتور علي عبد الواحد واهي - دار نهضة مصر - الطبعة السابعة .
- ١٨ - فقه اللغة العربية وخصائصها دكتور اميل بديع يعقوب - دار العام للملايين بيروت .
- ١٩ - في المصاحف العربية - دكتور إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الخامسة .
- ٢٠ - لسان العرب - لابن منظور - دار المعارف .
- ٢١ - لمتنا والحياة - دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) . معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٦٩م .
- ٢٢ - اللغة لفندريس - ترجمة الدكتور الدواخلى والدكتور القصاص - مطبعة لجنة البيان العربى - نشر الانجلو المصرية .
- ٢٣ - اللغة العربية خصائصها وسماتها - دكتور عبد الغفار حامد خليل - مطبعة الحضارة المصرية .
- ٢٤ - اللغة العربية المعاصرة - دكتور محمد كامل حسين - دار المعارف
- ٢٥ - اللغة والنحو بين القديم والحديث - للأستاذ عباس حسن - دار المعارف .

٢٦ - اللغة والنحو - دراسات تاريخية وتحليلية مقارنة - للدكتور
حسن عون - مطبعة رويال بالاسكندرية - الطبعة الأولى سنة
١٩٥٢م .

٢٧ - لهجات العرب - للأستاذ أحمد تيمور - الهيئة المصرية العامة
للكتاب .

٢٨ - اللهجات العربية - نشأتها وخصائصها - دكتور عبد الله ربيع ،
دكتور عبد العزيز علام - المكتبة الموفيقية - الطبعة الأولى
١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

٢٩ - مجلد مجمع اللغة العربية بالقاهرة - طباعة الهيئة العامة لشئون
المطابع الأميرية .

(أ) الجزء الثامن والعشرون - رمضان ١٣٩١هـ - نوفمبر ١٩٧١م
(ب) الجزء التاسع والثلاثون - جمادى الأولى ١٣٩٧هـ - مايو
١٩٧٧م .

(ج) الجزء الحادى والأربعون - جمادى الأولى ١٣٩٨هـ - يونيو
١٩٧٨م .

٣٠ - مشكلات اللغة العربية للأسناد محمود تيمور - المطبعة النموذجية
- الطبعة الأولى ١٩٥٦م .

٣١ - مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى - تحقيق الأستاذ محمد
أبو الفضل ابراهيم - دار نهضة مصر بالقاهرة .

٣٢ - معجم تيمور الكبير - للأستاذ أحمد تيمور - اعداد وتحقيق
دكتور حسين نصار - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٣ - المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الطبعة الثانية
- دار المعارف .

٣٤ - المقدمة لابن خلدون - طبعة دار الشعب .

- ٣٥ - مميزات لغات العرب - للأستاذ حفيظ ناصف - مطبعة السعادة ب
الطبعة الثانية سنة ١٣٣٠هـ .
- ٣٦ - لمحمد في اللغة والأعلام - دار المشرق بيروت - الطبعة
السبعة والعشرون .
- ٣٧ - مولد اللغة - للأستاذ أحمد رضا - دار التراث العربي ، بيروت
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٣٨ - نزهة الألباء لابن الأنباري - تقديم الأستاذ علي يوسف . جمعته
احياء مآثر علماء العرب .
- ٣٩ - النشر في القراءات العشر لابن الجزري . تصحيح ومراجعة الشيخ
محمد علي الضباع - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٤٠ - لوسيط في الأدب العربي وتاريخه للشيخ أحمد الاسكندري
والشيخ مصطفى عناني - مطبعة المعارف باهجالة - الطبعة
السادسة ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م .

هذا وبالله التوفيق .

ابن الناطم ومذهب الخوئي

د. أحمد مرسى أحمد الجمل

أستاذ مساعد ورئيس قسم اللغويات بالكلية

عصر ابن الناطم والحركة العلمية

عاش ابن الناطم في النصف الثاني من القرن السابع الهجري —
على أرجح الأقوال — بدمشق *

و ذا المنير نظرة سريعة على عصره والحركة العلمية فيه نجد
أن القرن السابع الهجري قد بدأ والعالم العربي يهوج بفقس واضطرابات
سياسية شملت كل جزء فيه من شرقه الى غربه *

دعى النمام كسب الدولة العباسية في « بغداد » ضعيفة الحول
والحول حيث كان انفراد المملى للسلاجقة في كثير من بلاد الشرق ، فلما
نالت سنة (٥٦٠ هـ) أعار اسار بقيادة « هولاكو » على « بغداد »
بمساعدة لورين ابن النمام الرافضي (١) وتديره ، فاستولى لتتسار
عليها وقتلوا الخليفة « المستعصم بالله » آخر ائمه العباسيين ،
وبذلك انتهى حكم العباسيين والسلاجقة *

وفي مصر كانت الدولة الأيوبية في أخرىاف أبامها . وقد لاف
كثيرا من المعناء والضعف بسبب الحروب الصليبية وغارات الفرنجة
وملون النمام وقد . سقطت الدولة الأيوبية سنة (٥٦٨ هـ) وقامت على
أنقاضها دولة المماليك البحريةية *

أما بلاد الأندلس فقد كان المسلمون في غاية الضعف بسبب
قتلهم واحتلالهم . وسافسهم على الملك ، الأمر الذي أدى الى

(١) انظر : الاسلام والحضارة العربية : محمد كرد علي ٢٢٣/١ *

استيلاء « الأسبان » على أكثر حصون البلاد وهدنها المشهيرة ، ولم يبق للمسلمين في « الأندلس » سوى « غرناطة » وضواحيها ، وضعف أمر الموحدين •

هذه هي الحالة السياسية للعالم العربي في القرن السابع الهجري ، ولاشك أن هذه الأحداث والاضطرابات السياسية ، وما تتبعها من مساد اجتماعي واقتصادي من شأنها أن تجعل سوق العلم راكدة بوجه ما ، وأن تطبع التأليف بطابع خاص (٢) •

والرجع إلى الوراء قليلا لتعرف على حالة النحو فهو الذي يعنيت في هذا المقام فتقول : حين أظن القرن السادس الهجري كنت مسائل النحو قد أشبعت درسا وتعليلا ، ولم يبق إلا المصنف البارع الذي يجيد صياغة هذا الموروث الضخم لمفيد منه المبتدئ والمنتهى على السواء • ولقد شهدت نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع ثلاثة من الرجال حمارا هذه الأمانة وقاموا بهذا الواجب خير قيام ، حيث بسطوا قواعد النحو وبوبوا مسائله وفصلوا فروعها ، وهم : ابن معط (٨٦٢ هـ) ، وابن الحاجب المتوفى (٦٤٦ هـ) ، وابن مالك المتوفى (٦٧٢ هـ) ، وعلى شروح هؤلاء الرجال استوى النحو على مسووقه وأينع وأثمر •

في القرن السادس ازدهرت علوم العربية من نحو • وفقه • ودراسة • وبيان • وتاريخ • وسير • وفيها يتجلى بالدراسات • تشهد للعالم العربي في هذا العصر علماء أفذا خطبوا بالدراسات المدوية خطوات واسعة نحو الكمال فذكر منهم الجزولي ، والمسهلي ، والشلبيني ، وابن معط ، وابن خروف ، وابن عصفور ، وابن مضاء ، وابن مالك ، وغيرهم •

(٢) المسح المبين في طبقات الأصوليين • عبد الله مصطفى المراغي

وفي القرن السابع شهدت البلاد العربية في المشرق والمغرب أحداثا واضطرابات سياسية — كما أسلفنا — كن من نتائج أن تضعف الحياة العلمية وحركة التأليف ، ولكن لما كانت العصور ، تداخل ولا يمكن الفصل بينها بدقة ، فقد بقيت الحركة العلمية مزدهرة — بوجه ما — في المشرق والمغرب ، وإن كانت حركة التأليف قد صيغت بطابع خاص ، فبدأ عهد جديد من التأليف هو عهد المتن والمختصرات مما دفع العلماء إلى العناية بشرحها ووضع الحواشي على تلك الشروح ، الأمر الذي أدى إلى صرف الهمم عن التفكير والاجتهاد ، فإذا ظهر من بينهم مجتهد كان ذلك من النادرة مكان فظهر في هذا العصر — في المشرق والمغرب — علماء أسهموا أسهاما كبيرا في شرح وتفسير هذا الموروث من المتن والمختصرات نذكر منهم :

أبا اليمان الكندي (٥٦١٣هـ) ، وسليمان بن بئين الدقيقي (٥٦١٤هـ) ، وابن الرماح بن عبد الصمد (٥٦٣٣هـ) ، وابن الحبير (٥٦٣٧هـ) ، وابن يعيش (٥٦٤٣هـ) وعلم الدين السخاوي (٥٦٤٣هـ) وابن صاحب (٥٦٤٦هـ) وابن أياز (٥٦٨١هـ) وهؤلاء هم أبرز نخبة القاطنين في مصر ابن الناظم .

« ابن الناظم » :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك ، در الدين الشافعي الطائي الكائن بالدمشق (٣) . عرف بابن الناظم وبخاصة عند شراح الألفية ، ويرى بعض الباحثين لاحقين أن أول من سماه بهذا الاسم هو أبو حيان الأندلسي . ثم جاء بعده ابن هشام وغيره من النحاة فتابعوا أبا حيان في ذلك حتى صار علما عليه . والسبب في تلك التسمية واضح ، فأبوه هو ابن مالك صاحب

(٣) الوافي بالوفيات ٢٠٤/١ ، ومعجم المؤلفين ٢٣٩/١١ ، وروضات

الألحيه وابن مالك يعرف عدد سراح الألبه بالناظم . فاطلقوا على ابنه
— بدر الدين — ابن الناظم .

ولما كان بدر الدين هو أول من شرح ألفيه أبيه بعد أطلق عليه .
سعى سراح الألفية — كالمكودي ، والإشمونى — المشرح ، فاد
ذكرت كلمة « المشرح » عندهما من المعنى بهب : بدر الدين بن
الناظم (٤) .

هذا ولم تذكر المصادر التى ترجمت له سنة ولادته . ولقد رجع
محمد تامل بركات الذى حقق التسهيل لأن مالك انه ولد سنة ٦٤٠هـ
أو بعد بقليل (٥) . أما سنة وفاته فقد أجمع المترجمون على أنه توفي
سنة ٦٩٦هـ بسبب مرض كان يعترده فيجد منه ألام شديدا ، ودفن
بمقبر باب الصغير في دمشق يوم الاثنين التاسع من المحرم (٦) .

ولم يكن ابن الناظم ذا حظ كبير عند المترجمين له ، فلم يذكروا
على وجه التحديد المكان الذى ولد فيه . ولا البلاد التى طوف بها .
ولا من القفى به وتردد عليه ، غير ما ذكر من أنه أقام ببعلبك مدة بعد
مغادرته دمشق غصبا من أبيه ، وأيضا لم يذكروا الى صفاته وأخلاقه
اللهم الا ما ذكر عنه من أنه كان ماجنا يحب اللهو ومعاشرة قرناء
السوء الأمر الذى جعل أباه يقصيه عنه ، فأقام ببعلبك كما أسلفنا (٧) .

ولقد ذكر « الصفدى » أنه قصة يؤخذ منها أنه كان فظا غليظا
لا يراعى حرمة من هو أكبر منه سنا وأكثر منه علما حيث قال : قيل
انه حضر مجلس الشيخ شمس الدين اذلى . وكان الشيخ يعرف

(٤) نشأة السحو : ٢٣١ .

(٥) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ١٤ .

(٦) شذرات الذهب ٣٩٨/٥ .

(٧) نشأة السحو ٢٣٠ .

الكشف لأرهخسرى معرفة مليحة ، ففقد بدر الدين لا يتكلم والشيخ بلقى درسه ، فقال له الشيخ : مالك لا تكلم ؟ فقال : ما أقول ومن وقت كلمت فيه الى الآن عدت عليك احدى وثلاثين لحنة (٨) .

فأنت ترى أنه لم يرع حرمة لهذا الشيخ في مجلسه وبين طلابه ، ماداً كانت هذه أخلاقه مع العلماء فنييف به مع سائر الناس ؟ وليس هذا بمستغرب من شخص فقد أباه ولاحقه في مسائل كثيرة بحر وبغير حق كما سنوضح ذلك في حينه .

« شيوخه وتلاميذه »

لم يذكر المترجمون له شيوخاً أخذ عنهم غير أبيه « ابن مالك » ، وقد ذكر في شرحه على الكافية شيخاً له اسمه « قتي الدين » (٩) ولم نعرف ترجمة لقي الدين هداوهن المتوهم دايعاً أن يكون يكون له شيوخ أخذ عنهم غير أبيه ، ولكن أنى لنا أن نعرف دايعهم .

أما تلاميذه فهم قليلون أيضاً ، ولعل السر في ذلك سوء معاملته ومعاشقته للناس ، وبخاصة أنه وجد في عصره كبير من العلماء يُقدِّز الذين تصد إليهم انرجال . ويؤد ما ذهب إليه أن معظم تلاميذه معروفين في مجال الدراسات البحرية والغربية وهم :

١ — بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣ هـ ، فقد ذكر السبكي أنه أخذ عن بدر الدين بن مالك (١٠) .

٢ — شمس الدين الاندلسي ، المولود سنة ٦٤٤ هـ ، فقد ذكر السبكي أنه أخذ النحوي عن بدر الدين بن مالك (١١) .

(٨) اتوافى بتاريخ ٢٠٥/١ .

(٩) شرح الكافية لابن الناظم ق ٨٦ .

(١٠) طبقات الشافعية ٢٢٠/٥ ، والدرر الكامنة ٢٨٠/٣ .

(١١) المدارس في تاريخ المدارس ٥٥٩/٢ .

٣ - أبو بكر الصواف المتوفى سنة ٥٧١٥ هـ •

قال ابن لجزري : انه قسريء متصدر مشهور فلا المبيع على الكمال الضرير ، وموتضى بن جماعة ، وروى الشاطبية عنهما عن محمد ابن النازم (١٢) •

٤ - كمال الدين بن الزمكاني المتوفى سنة ٥٧٢٧ هـ •

قال المسبكي : قرأ لأصول على الشيخ صفى الدين الهندي والنحو على الشيخ بدر الدين بن مالك (١٣) •

٥ - صدر الدين بن الوكيل المتوفى سنة ٥٧١٦ هـ •

قيل : انه أخذ الاصلين عن صفى الدين الهندي ، والنحو عن بدر الدين بن مالك ، وقيل عنه لم يكن قوي في النحو فكان يقع في اللحن كثيرا (١٤) •

٦ - نجم الدين المعبادى الماورد سنة ٦٤١ هـ •

ذكر المسبكي انه قرأ المنهاج لابن مالك على بدر الدين ابن مالك (١٥) •

« مكانته ونشاطه العلمى » :

لم تذكر المصادر التى عانيت بالترجمة لابن النازم شيوا أخذ عنهم غير آية كما ذكرنا ، وقلنا أيضا ان ذلك مستبعد ، فلا بد أن

(١٢) غاية النهاية فى طبقات القراء ١٨١/١ •

(١٣) طبقات الشافعية ٢٥٢/٥ •

(١٤) المدارس فى تاريخ المدارس ٢٧/١ ، والدرر الكامنة ٤٧٣/٣ •

وشذرات الذهب ١١٨/٦ •

(١٥) بغية الوعاة ٣٥١/٢ •

يكون له أكثر من واحد اخذ عنه وبخاصة انه برع في كثير من علوم عصره ، كما نص على ذلك المترجمون له ، فبرع في النحو ، والبلاغة بفروعها ، والعروض ، والمنطق ، والتفسير ، واقراءات ، والفقه . والأصول ، الحديث (١٦) ، وليس من المعقول أن يتلقى ذلك كله عن أبيه ، وعلى كل حال فقد تعددت ثقافته ، وغلب عليه الجانب المنطقي والعقلي .

وما ذكره السيوطي لهو أكبر ما ذهبنا إليه ، فقد قال : سئل الشيخ بدر الدين بن العلامة جمال الدين بن مالك — رحمهما الله تعالى : «ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتوارة وهم معرضون» (١٧) فأجاب ان الآية على صورة المضرب لاول من المشكل الاول من لتياس الاول المؤلف من متصلين لأنها مشتملة على قصيتين متصلتين موجبتين كليتين وبيتهما حد أوسط هو قال في الصغرى مقدم في الكبرى، وذلك يستلزم قضية أخرى متصلة مركبة من مقدم الصغرى وتالى الكبرى وهو «ولو علم الله فيهم خيرا لتوارة وهم معرضون» (١٨) .

ثم يستمر السيوطي في ذكر جواب ابن الفناظم في تفسير تلك الآية على النحو المنطقي الذي رأيت مما يؤكد ما ذهبنا اليه من غلبة المنطق والتقسيمات العقلية على ثقافته ، ويبدو أن ذلك كن سمة من سمات العصر الذي عاش فيه ، ولذى انتشرت فيه مصنفات المشاركة ذات الطبع العقلي كمصنفات الزمخشري والسكاكي ، ولقد أكسبه كتاب مفتاح العلوم للسكاكي تلك النزعة العقلية والمفسفية

(١٦) الوافي بالوفيات ٢٠٤/١ ، وغاية النهاية في طبقات القراء

• ١٨١/١

(١٧) الأنفال ٢٣ .

(١٨) الأشباه والنظائر ٣٠٣/٤ ، ٣٠٤ .

حيث عكف على دراسته وقام باختصار قسم المعاشي منه ، وكلنا نعرف كتب السككي وما فيها من منطق ودراسة فلسفية لا تبارى .

وكان تفوق ابن النظم وبراعته في كثير من العلوم السبب في جعله محمداً أنظار الدارسين ومحمداً تقدير من الجميع . فتصدر للتدريس في « بعليك » في الفترة التي قضها هناك ، فلفت الناس حوله وأعجبوا بعلمه وثقافته .

ولما توفي والده تاركاً وراءه المشيخة الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق (١٩) توجهت الأنظار إلى ابنه ، ووجدوا فيه خير خلف لخير سلف . فعاد بغداد متوجهة إلى دمشق وتولى مكان أبيه الذي كان يرفقوا إليه ويظلم فيه الشيخ شهاب الدين الشاغوري ، ويرى أنه الأحق بالأجدر بأن يخلف ابن ملك ، فلم أخذ أهل دمشق وقضاوا بدر الدين عليه ترك دمشق وتوجه إلى اليمن مقاماً غاضباً (٢٠) .

ولعل تنفضيل الدمشقيين لبدر الدين وتقديرهم على الشيخ شهاب الدين الشاغوري كان دواعي من الوفاء لأبن مالك لا لأنه أعم منه ، لأن الشاغوري مشهوراً له بالعلم حتى قيل عنه : كان يلقي ثلاثين درساً في ثلاثين علماً (٢١) .

« مؤلفاته » :

برع ابن النظم في كثير من علوم عصره ، وتعددت مواهبه ونشوءت ثقافته ، فألف في عديد من العلوم وبخاصة علوم اللغة العربية ، وكانت أغلب مؤلفاته عبارة عن شروح لمؤلفين وضعها سابقوه — كشأن غيره من

(١٩) الوافي بالوفيات ٢٠٤/١ .

(٢٠) بغية النواة ٤٧٣/١ .

(٢١) الدرر الكامنة ٤٦٨/١ .

نحوى ذلك العصر — وبخاصة مؤلفات أبيه التى شاعت فى ذلك الوقت
وحظيت بمناجاة دارسين •

واليك قائمة بمؤلفاته :

• شرح الكافية الشافية لابن مالك (٢٢) •

والشافية الشافية عبارة عن منظومة فى النحو والصرف من بحر
الرجز تتبع فى سبعة وخمسين وسبعمئة وألفى بيت (٢٧٥٧) وقد
اختصرها ابن مالك فى ألفيته المشهورة •

٢ — شرح لامية الأفعال لابن مالك :

وهو عبارة عن شرح مختصر لمنظومة وضعها والده فى مئة
وأربعة عشر بيتا (١١٤) على حرف اللام تحدث فيها عن أبنية الأفعال،
وهذه المنظومة تتضمن خمسة أبواب : باب أبنية الفعل المجرد
وتصاريفه ، باب أبنية الفعل المزيد فيه ، باب أبنية أسماء الفاعلين
والفعلولين ، باب أبنية المصادر ، باب مفعل ومفعول ومعانيهما ، وقد
حذبت هذه المنظومة بعناية كثير من الشراح ، وكان بدر الدين أول
من شرحها •

٣ — شرح ألفية ابن مالك ، المعروف بشرح ابن الساجم •

حظيت لامية ابن مالك بما لم يحط به مؤلف نحوى من قبل ومن
بعد ، نعم لقد سبقها كثير من أمهات كتب النحو ، ولكن لم تنتشر هذه
الكتب بين الدارسين انتشار الألفية ، ولعل سر شهرتها يكمن فى أنها
قطعت النحو وعرضته بطريقة سهلة تتناسب وعقلية العصر الذى
قطعت فيه والعصور التى جاءت بعده ، أما الكتب التى سبقتها كانت

تتطلب في الدارس أن يكون ذا خلفية عريضة في النحو تكتفي الإشارة
عن طول العبارة •

ومن ثم شاعت الألفية وانتشرت وشهدت انتباه النحاة ، فوضعوا
عليها الشروح والمختصرات والحواشي والتفريعات ، ولقد ذكر صاحب
كشف الظنون ما يقرب من أربعين شرحا عليها لنحاة مختلفين (٢٣) •
وكان أول من شرحها ومهد السبيل لمن جاء بعده ابنه
بدر الدين (٢٤) ولقد نال هذا الشرح إعجاب المؤرخين فهذا « المصفي »
يقول : وهو شرح فصل منقح ، ولم تشرح الخلاصة بأحسن ولا أسد
ولا أجزل على كثرة شروحها ، وأراها في الشروح كالشرح الذي
لابن يونس على التتبية (٢٥) • وقد اعتمد عليه النحاة من بعده ، فأخذوا
منه كأبي حيان في كتابه « ارتشاف الضرب من لسان العرب » ، ومنهج
المسالك إلى ألفية ابن مسالك ، وكبير عقيل في شرحه على الألفية
والتههيل •

ولقد ذكر لب ابن الداظم منهجه في مقدمة شرحه فقال : فإني ذأكر
في هذا الكتاب أرجوزة وأدى — رحمه الله — في علم النحو المسند
بالخلاصة ، ومرصعها بشرح يحل منها المشكل ويفتح من أبوابها كل
مهمل ، جانبت فيها الإيجاز المخل والأضباب الممل ، حرصا على
التفريب لفهم مقاصدهم ، والحصول على حمله موائدها (٢٦) •

ثم توالت الشروح على الألفية بعد ذلك ، ولعل أهم الشروح هي
الموجودة بين أيدينا لأن ونرجع إليها دائما كمنهج المسالك في الكلام

• (٢٣) كشف الظنون ١/ ١٥١ •

• (٢٤) نشأة النحو ٢٣١ •

• (٢٥) الرافى بالوفيات ١/ ٢٠٥ •

• (٢٦) شرح ابن الناظم على الألفية ص ٢ •

على ألفية ابن مالك لأبى حيان الأندلسى (٧٤٥هـ) وهو شرح لم يتتم
 إذ وصل في شرحه إلى باب « أعمل التفصيل » وأوضح المسلك إلى
 ألفية ابن مالك لابن هشام (٧٦١هـ) ، وهو عبارة عن نثر للألفية .
 وتقريرت عليها يمتاز ببساطة العرض وجزالة الأسلوب ووضوح
 العبارة مع كثرة الاستشهاد بآيات القرآنية والشواهد الشعرية .
 وشرح ابن عقيل (٧٦٩هـ) وهو شرح سهل العبارة يعيد منه المبدئ
 والمنتهى على السواء ، وشرح المكودى وهو أبو زيد عبد الرحمن بن
 على المكودى (٨٠٧هـ) والمكودى شرحان على الألفية (٢٧) المطبوع
 منهما هو الشرح الصغير ، والبحر الموضىء في شرح الألفية
 للسيوطى (٩١١هـ) وهو شرح موجز الفائدة ، وشرح الأشمونى (٩٢٩هـ)
 وهو منهج المسالك إلى ألفية ابن مالك ، وهو من الشروح النافعة
 الجامعة لكثير من الفوائد النحوية .

٤ - شرح كافية ابن الحاجب .

نص على ذلك السيوطى (٢٨) وسماه الحاجية ، ونقل عنه الشيخ
 خالد الأزهري في موضعين من كتابه « النصريح على القوضيح »
 وسماه « نكت الحاجية » .

أوضح الأول حين قال ويطلق لكلام لغة ويراد به المفرد نحو
 « زيد » في نحو قولهم . من أمت ؟ زيد عند سيوطيه . قاله ابن النظم
 في نكت الحاجية (٢٩) .

والموضع الثامن حين قال : واختلف في تدوين الشرح والعلم
 على أقوال

-
- (٢٧) كشف الظنون ١/١٥١ .
 - (٢٨) بغية الوعاة ١/٢٢٥ .
 - (٢٩) النصريح على التوضيح ١/٢٨ .

والثالث ، هو الحق كما قال ابن مالك في التخمة وتبعه ابنه في
تكت المحاميه أنهما ليسا بتصريين ، هما نونان زیدتا في الوقف (٣٠) •

٥ - شرح شافعية ابن الحاجب :

ذكر صاحب كشف لصون شراح شافعية ، ولم يذكر منهم ابن
لناظم (٣١) • ووجدت النسخ خالد لأرهورى يشير الى أنه شرح
الشافعية حيث شرح بذلك في موضع من كتابه ، فعند حديثه على جمع
« مكن » على « أمكن » قال • وفيه شذوذان أحدهما : أنه مذكر وحق
مثله أن يأتي على مثال « فعله » والنفس أنه شبه فيه الأصل بالزائد
محذف ، والمزائد بالأدس مثبت فعالمو « أمكن » والقياس في بناء
« مكن » على « أفعل » أن يقال « أكون » محذف الميم الزائدة وبقاء
عين الكلمة • قاله ابن الناطم في شرح شافعية ابن الحاجب (٣٢) • ونسبه
اليه أيضا « الأسوى » حيث قال • ووضع ابن لناظم شرحا على
غريب التصريف لابن الحاجب (٣٣) وهذا يرجح أنه شرح الشافعية :

٦ - شرح ملحة الاعراب للحريري :

وهو شرح لمنظومة الحريري صاحب المقامات تعرف بملحة
الاعراب وتبلغ هذه المنظومة ٣٧٥ بيتا • وقد شرحها الحريري نفسه
وشرح ابن النظم لها من الشروح المفقودة (٣٤) •

٧ - مقدمة في علم العروض :

-
- (٣٠) التصريح على التوضيح ٢٧/١
 - (٣١) كشف الظنون ١٠٢/٢
 - (٣٢) التصريح على التوضيح ٢١٩/٢
 - (٣٣) طبقات الشافعية ٤٥٥/٢
 - (٣٤) بنية الوعاة ٢٢٥/١ ، وكشف الظنون ١٨١٧/٢

ذكر ذلك المسيوطي ، ودحى خليفته (٣٥) ، ونسبها بعضهم لابن مالك ، وليس بصحيح .

٨ - روض الأذهان في المعاني والبيان .

نص على ذلك المسيوطي ، وصاحب كشف الظنون (٣٦) .

٩ - المصباح في علم المعاني والبيان والبديع .

وبرى المذكور أحمد مطلوب أن مصباح وهو أول تلخيص لكتاب مفتاح العلوم للسكاكي وصل إليه (٣٧) ، وقد احتل كتبه هذا مكانا مرموقا عند البلاغيين حيث افادوا منه واعتبروه مصدرا من مصادر مؤلفاتهم . فخصه ابن البحريه في كتاب له سماه « ضوء المصباح » ثم سرحه في كتاب آخر سماه « أسفار المصباح على ضوء المصباح » (٣٨) . واشاد به الفيرويني في كتابيه . التلخيص ، والإيضاح ، واعتمده السبكي مصدرا من مصادر كتابه . وروس الأفراح ، وانتفع به السيوطي ونقل عنه في كتابيه . معترك الأقران في أعجاز القرآن ، والاتقان في علوم القرآن وعقبره من الكتب المعنية بالأعجاز وفنون البلاغة (٣٩) .

١٠ - بغية الأريب وغنية الأديب :

قال عنه صاحب كشف الظنون : مختصر في الأصول ... مرتب على أربعة مطلع وخاتمة (٤٠) .

(٣٥) بغية الوعاة ٢٢٥/١ ، وكشف الظنون ١١٣٤ .

(٣٦) بغية الوعاة ٢٢٥/١ ، وكشف الظنون ٩١٦/١ .

(٣٧) البلاغة عند السكاكي ص ١٨ .

(٣٨) الدور الكامنة ٢٨٥/٤ ، وطبقات النحاة واللغويين ٢٧٢ .

(٣٩) الاتقان في علوم القرآن ١٩/١ .

(٤٠) كشف الظنون ٢٤٧/١ .

١١ - مقدمة في المنطق *

نص على ذلك لصفدى والسيوطي (٤١) . ويقول الأستاذ محمد على حمزة : ويعلم شئ طى أن الأصل الذى اعتمد عليه ابن الفاضل في تأليف مقدمته هذه هو القسم الحاصل بعلم الاستدلال وما يتعلق به من مبحث الحد من كتب (مفتاح العلوم) للسكاكي ، ثم يقول : ومما يقرر ما ذهب إليه هو أن ابن الفاضل اختصر القسم الثالث من المفتاح وسماه « اصباح » دون أن يشير إلى عمله في هذا الاحتسار . بل ادعى تأليفه (٤٢) *

« مذهب النحوى » :

عرفنا مما سبق أن المدرجين هم يدكروا لابن الفاضل سيوخا أخذ منهم غير أبيه ، فلا غرابة إذن أن يتأثر الابن بأبيه ويهجم بهجه ويسير على طريقته ومذهبه . وبن مأك كان بصري المذهب بوجه دم ، ومع ذلك فقد كان يميل أحيانا إلى مذهب الكوفيين . فنابعهم في كثير من آرائهم ، وكذلك كان ابن الفاضل ، ويمكن أن نحسم مذهبه إلى طورين :

الطور الأول : تأثره بأبيه واتباع مذهبه البصري مع الأخذ بظاهره من الآراء الكوفية ، وهذا الطور يمثل صدق تمثيل شرحه على كافية ابن الحاجب ، وفي شرحه هذا كان صورة طبق الأصل من أبيه يتبع المذهب البصري غالبا مع ميله أحيانا إلى المذهب الكوفي .

الطور الثاني : وفيه تأصل المذهب البصري في دراسته النحوية ، وهذا الطور يمثل شرحه على ألمية أبيه . فقد عدر في شرحه هذا من

(٤١) الواسي بالوفيات ٢٠٥/١ ، بحية الوعاء ٢٢٥/١ .

(٤٢) ابن الفاضل النحوى ٤٧ .

كثير من الآراء الكوفية التي أخذ بها في الطور الأول ، واليك بعض
مأذج ما ذهبنا إليه :

١ - ذهب ابن الحاجب الى أن « ان » المحففة من الثقيلة يجوز
دخولها نلى فعل من أفعال المبتدأ حلاً لسكوتيين . وعلى ذلك
ابن الناظم في « شرح الكافية » بما يبدو منه ميئه الى الكوفيين .
حيث قال : للكوفيين في ذلك شواهد منها قول أسماء رضى الله عنها :
ثكلتك أمك ان قتلت مسلماً حلفت عليك عفوهُ المسمود

ومنه قولهم : « ان يزينك لنفسك وان يثيبك ليهيه » (٤٣) . ثم
رجع عن موافقة الكوفيين في شرح الألفية فقال (٤٤) . وإذا حفت
« ان » وليها الفعل فالغالب كونه ماضياً مسحاً لا ابتداءً نحو قوله
« وان كنت لكبيرة » (٤٥) وأما نحو « وان يكذبوا الذين كفروا
ليزلقونك » (٤٦) وقول الشاعر :

شلت يمينك ان قتلت مسلماً حلفت عليك عفوهُ المسمود (٤٧)

(٤٣) شرح ابن الناظم على الكافية ق ٩ .

(٤٤) شرح ابن الناظم على الألفية ص ٦٨ .

(٤٥) البقرة ١٤٣ .

(٤٦) القلم ٥١ .

(٤٧) البيت لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية ، وهي

سب عم امر المؤمنين عمر بن الخطاب ، برى روحها الزهر من العوام

وتسمى على قاتله عمرو بن جرموز .

مناقشة :

الشيور على السنة الناس « شلت يده » على صيغة « لم يسم فاعنه

وهي كما قل « تعذب » لغة رديئة ، والقصيحة « شلت » بصيغة المبني

للفاعل ، دل الأعرى . سمعت أعراساً يقول « شلت يد فلان » بصيغة

مما ولى « ان » المخففة فيه مضارع نسخ للابتداه ، وماض غير نسخ فتليل ، وأقل منه قولهم فيما حكاه الكوفيون « ان يزينك لنفسك وان يثمينك ليهيه » (٤٨) •

٢ - يرى ابن الحاجب أن « اذ » ظرف لما مضى من الزمان (٤٩) ، وهو في ذلك موافق للبصريين ، أما ابن المظم فقد مل إلى مذهب الكوفيين حيث علق على ذلك بقوله « هذا في الأكثر » وقد تجيء للمستقبل كقوله تعالى « اذ اذغلال في أعناقهم والسلاسل » (٥٠) فان « اذ » مفعولة لفعل دخل عليه « سوف » وهي تخلص الفعل للاستقبال ويقع بعدها الجملتان لأنها بمعنى زمان مجرد عن الشرط فصح تفسيرها بها (٥١) •

ثم تجده في شرحه على الألفية يعود إلى مذهب البصريين الذين يرون أنها ظرف لما مضى من الزمن ، يؤخذ ذلك من قوله (٥٢) وهما « اد » وتضاف إلى جملة اسمية نحو « كن ذاك اذ ريد أمير » أو فعلية نحو « كن ذلك اذ قام زيد » ولا تفارقها الاضافة معنى ولا لفظاً أيضاً إلا اذا عوض عن المضاف اليه بالتقوين كما في قوله تعالى « يومئذ نحدث أخبارها » (٥٣) فنلاحظ أنه عندما مثل لها بم

المبني غير المعامل - ولم أسمعه من غيره ، وجعلها أبو أحمد المسكري من أوهم أنى عساه معمر بن المثنى • راجع في ذلك . بناء الفعل لمير للماءن لصاحب البحث ص ١٦٣ •

(٤٨) شرح ابن الناطم على الألفية ص ٦٨ •

(٤٩) شرح الكافية للرضي ١٠٨/١ •

(٥٠) غافر ٧١ •

(٥١) شرح الكافية لابن الناطم ق ٥٣

(٥٢) شرح ابن الناطم على الألفية ص ١٥٢ •

(٥٣) انزارة ٤ •

يمثل الا بالماضي ، ولم يشر لى ما نحن عليه في شرح الدغية من أنه
قد تأتى للمستقبل •

٣ - يرى ابن الحاجب أن الاضافة كما تكون بمعنى « من »
و « اللام » تكون بمعنى « في » هي عنده ثلاثة أنواع : وتابعه
ابن مالك في ذلك حيث قال :

والثنى اجور وانو من أوفى اذا
لم يصلح الا ذاك واللام هذا
لما سوى ذينك واخصم أولا
أو اعطيه التعريف بالذى تلا

وسار على هذا الدرب ابن الناصم في شرح الكافية حيث قال :
بقوله - أى ابن الحاجب - : وبمعنى في ظرفه أى الزمن والمكان ،
ومنه قوله « بل مكر لليل والنهار » (٥٣) أى : في الليل ، و « يا صاحبي
السجن » (٥٥) أى : في السجن ، ولا « هو ألد الخصام » (٥٦) أى :
فيه ، ومنه : يا سارق الليلة أهل الدار (٥٧) •

ثم نجد في شرح الدغية يعدل عن اثبات الاضافة بمعنى « في »
ويرى رأى الجمهور وسببويه القائلين بأنها اما بمعنى « من أو اللام »
فقط ، ويدافع عن ذلك ويؤكد به قوله (٥٨) : « والذى عليه سببويه وأكثر
المحققين أن الاضافة لا تعدو أن تكون بمعنى « اللام » ، وبمعنى

(٥٤) سما ٣٣ •

(٥٥) يوسف ٢٩ •

(٥٦) البقرة ٢٠٤ •

(٥٧) شرح الكافية لابن الناصم ق ٣٦ •

(٥٨) شرح الألفية لابن الناصم ١٤٧ ، ١٤٨ •

« من » وهوهم الاضافة بمعنى « في » محمول على أنها فيه بمعنى « اللام » على المجاز ، ويدل على ذلك أمور :

أحدها . أن دعوى كون الاضافة بمعنى « في » يستلزم دعوى كثرة الاشتراك في معناها . وهو خلاف الأصل فيجب اجتنابها .

الثاني : أن كل ما ادعى فيه أن الاضافة بمعنى « في » حقيقة يصح فيه أن يكون بمعنى « اللام » مجازاً . فيجب حمله عليه لوجهين :

أحدهما : أن المصير الى المجاز خير من المصير الى الاشتراك .
والثاني : أن الاضافة لمجاز الملك .

والاختصاص ثابتة بالاتفاق كما في قول الشاعر :

اد كَوَّسَ الحرقاء لاح مسحره سهيل أذعت غزلها في اغرائب(٥٩)
وقبول الآخر :

إذا قال قدنى قال بالله حلقة لتغنى عنى ذالنائك أجمعا

والاضافة بمعنى « في » مختلف فيها ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه .

قال ابن الحاجب : إذا عطف على الضمير المرفوع المتصل كذا بمفصل(٦٠) . وهو في ذلك موافق للبصريين(٦١) ولقد مال ابن الناطم في تعليقه على قول ابن الحاجب الى رأي الكوفيين حيث قال : ليس

(٥٩) لابيت لا يعرف قتله ، وهو من شواهد المقرب لابن عصفور

٢١٣/١ والمحاسب لاس حتى ٢٢٨/٢ ، واللسان (غرب) ، والمفصل ٩٠

(٦٠) شرح الكافية للرضي ٢٩٥/١ .

(٦١) الانصاف : مسألة ٦٦ .

التوكيد والمصل لازما ولا بد، قال الله تعالى «ما أشركت ولا كانا» (٦٢) ولا يقال حصل فصل «بلا» لأنها بعد حرف العطف فلم يفصل . وفي حديث علي - رضي الله عنه - : رحمك الله أبا بكر فلقد كنت كثيرا ما أسمع كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول كنت وأبو بكر وعمر ، وانطلقت وأبو بكر وعمر . قال الشاعر

وقال الأخيطل مع سفاهة رأيه
ما لم يقل وأب له أيضا (٦٣)

وقال آخر :

قلت إذا أقبلت وزهر تهسادي
كعاج الفلا تعسفن رملا (٦٤)

ولا يقال هذا للضرورة ، لأن نصيهما على المفعول معه كان ممكنا فعلم أنه رفعهما اختيارا (٦٥) .

(٦٢) الأنعام ١٤٨ .

(٦٣) البيت في ديوان جرير برواية «ورجا» ص ٣٦٢ .

وهو من شواهد : الكامل ١/١٨٩ ، والانصاف ١/٢٥٣ ، والأشعر

١١٤/٢ ، والهمع ٢/١٣٨ ، والنصريح ٢/١٥١ .

والشاهد في «أب» حيث عطف على الضمير المستتر المرفوع هو

«يقل» من غير توكيد ولا فصل .

(٦٤) البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤٩٨ ، وهو أيضا في

ديوان العرجي ص ١٢٣ وهو من شواهد : الكتاب ١/٣٩٠ ، والكماس

١/١٨٩ ، والانصاف ٢/٢٥٢ ، والخزانة ٤/١٦١ .

والشاهد في «زهر» حيث عطف على الضمير المستتر المرفوع،

«أقبلت» من غير توكيد ولا فصل .

(٦٥) شرح الكلية لابن الناطم ق ٣٩ .

وهو في هذا متأثر بأية دستور على مذهبه حيث سبقه الى ذلك في كتابه شواهد الموضح (٦٦) : فهناك أورد على هذه المسألة حديد على - كرم الله وجهه - السابق ذكره ، وحديث عمر - رضي الله عنه وهو : كنت وجار لي من الأنصار « - ثم قال : وتضمن الحديد صحة العطف على ضمير الرفع المتصل غير انفصول بتوكيد أو غيره ، وهو مما لا يجيزه النحويون في البئر الا على ضعف ، ويزعمون أن بانه الشعر ، والصحيح حوازه دثرا ونظما ، فمن البئر ما يقدم من قول على وعمر - رضي الله عنهما - ومثلهما قوله تعالى « ولو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » .

ثم نجد في شرح الألفية يعود الى ما قرره البصريون ، فيقول وأما المصل فاما مرشوع أو منصوب أو محروور ، فان كان مرفوعا فهو والمستتر سواء في أنه لا يحدن المعطف عليهما ، لا مع الفصل والمغالبة كونه بصير منفصل مؤكدا للمعطوف عليه كقوله تعالى « ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » (٦٧) وقد يفصل بمفعول أو غيره كقوله تعالى « يدخلونها ومن صالح من آباءهم » (٦٨) وربما اكتفى بمصل « لا » بين المعطف والمعطوف عليه كقوله تعالى « ما أشركنا ولا آباؤنا » (٦٩) وأجاز صاحب الكشف في قوله تعالى « أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » (٦٩) أن يكون « آباؤنا » معطوفا على المضمير في « المبعوثون » للفصل بالهمزة (٧١) ، وقد يعطف على المضمير المتصل المرفوع بلا فصل كقول جرير :

(٦٦) شواهد الموضح والتصحيح على مشكلات الجامع المصحح

ص ١١٢ .

(٦٧) الأنعام ٩١ .

(٦٨) الرعد ٢٣ .

(٦٩) الأنعام ١٤٨ .

(٧٠) المدافات ١٦ ، ١٧ ، والواقعة ٤٧ : ٤٨ .

(٧١) الكشف ٥٩/٤ .

ورجا الأخطل من سفاهة رأيه ما لم يكن وأب له لينالا

وقول عمر بن أبي ربيعة :

قلت اذا أقبلت ورهز تهادي كنماج الملا تعسفن رملا

— وليس بمقصود على الشعر ، حكى سيبويه « مررت برجل
سواء والعدم » يعطف « العدم » على الضمير في « سواء » ومع ذلك
فهو قائل في الكلام ضعيف في القياس لما فيه من إيهام عطف الاسم
على الفعل (٧٢) •

هذا قاي من كثير ، ويكتفينا بذلك في تأكيد ما قررناه سابقا ، ثم
تأصل المذهب البصري في دراساته نحوية فصار على طريقتهم واتبع
مذهبهم ، واليك ما يؤكد ذلك :

١ — يرى البصريون أن حـر « ما » الحجازية منصوب بها ،
وذهب الكوفيون إلى أنه منصوب بنزع الخافض (٧٣) ، تابع ابن النظم
البصريين في ذلك حيث قال : ألحق أهل الحجاز « ما » النافية بـ« ليس »
في العمل إذ كانت مثلها في المعنى فرفعوا بها الاسم ونصبوا الخبر
نحو « ما هذا بشرا » (٧٤) و « ما هن أمهاتهم » (٧٥) وأهملها
القيميون لعدم اختصاصها بالأسماء (٧٦) •

٢ — ذهب البصريون إلى أن « ان » وأخواتها تنصب الاسم
وترفع الخبر فهي المعاملة في الجزئين ، بينما يرى الكوفيون أن الاسم
منصوب بها ، أما الخبر فهو باق على ما كان عليه قبل دخولها (٧٦) •

(٧٢) شرح الألفية لابن النظم ص ٢١١ ، ٢١٢ •

(٧٣) الاتصاف : مسألة ١٩ •

(٧٤) يوسف ٣١ •

(٧٥) المجادلة ٢ •

(٧٦) الانصاف : مسألة ٢٢ ، والتصريح ١/ ٢١٠ •

وسر بن النازم على مذهب البصريين حيث قال : وهذه الحروف
شبيهة « بكن » لما فيها من سكون الحشو وفتح آخر ، وازوم المبتدأ
والحبر ، فعلت عكس عمل « كان » أيكون المعزولان معها كمفعول
قدم وفاعل آخر ، فيثبت فرعيتها فلذلك نصبت الاسم ورفعت
الخير (٧٧) •

٣ - يرى البصريون أن المصدر أصل للفعل وجميع المشتقات ،
بينما ذهب الكوفيون إلى أن الفعل وهو الأصل (٧٨) • وسلك ابن النازم
طريق البصريين ، قال في باب « المفعول المطلق » عند شرح قول
ابن مالك :

بمثله أو فعل أو وصف نصب وكونه أصلاً لمهذين انتخب

فوله « وكونه أصلاً لمهذين انتخب » لأن المصدر أصل للفعل
ولنوصف في الاشتقاق وذهب الكوفيون إلى أن لفعل أصل للمصدر ،
وهو باطل لأن المصارع لا بد فيه من معنى الأصل زيادة ، ولا شك أن
الفعل يدل على المصدر والزمان ففيه معنى المصدر وزيادة فهو فرع
والمصدر أصل ، لأنه دل على بعض ما يدل عليه الفعل ، وبالنسبة لما ثبت
به فرعوية الفعل يثبت فرعوية الصفات من أسماء الفاعلين ، أسماء
المفعولين وغيرهما ، فإن « ضارباً » مثلاً يتضمن المصدر وزيادة الدلالة
على ذات الفاعل للضرب ، و « مضروباً » يتضمن المصدر وزيادة الدلالة
على ذات الواقعة به الضرب فهما مشتقات من « الضرب » وكذا باسائر
الصفات (٧٩) •

٤ - يرى البصريون أن الظرف منصوب بالواقع فيه من فعل
أو شبه فعل مظهراً أو متدرجاً ، وذهب الكوفيون إلى أنه منصوب على

(٧٧) شرح الألفية لابن النازم ٦٢ •

(٧٨) الانصاف : مسألة ٧٨ •

(٧٩) شرح الألفية لابن النازم ١٠٢ ، ١٠٣ •

الخلاف (٨٥) • تابع ابن النازم المذهب البصري في ذلك حيث قال في باب « المفعول فيه » عند شرحه لقول النازم :

فانصبه بالواقع فيه مظهرا كان والا فانوه مقتدرا

قوله « فانصبه بالواقع فيه مظهرا • • البيت » معناه : أن الذي يستحقه الظرف من الازراب وهو النصب ، وأن الناصب له هو الواقع فيه من فعل أو شبهه أما ظاهرا نحو « جلست أمام زيد » وصدت يوم الجمعة ، وزيد جالس أمامك ، وصائم يوم الجمعة « وأما مضمرا جوازا كقولك لمن قال : كم سرت ؟ فرسخين ؟ وإن قال : ما عبت عن زيد • بلى يومين ، وجوبا فيما وقع خبرا أو صفة أو حالا أو صلة نحو « زيد عندك » ومرت بطائر فوق غصن ، ورأيت الهلال بين السحاب ، وعرفت الذي معك » (٨١) •

• المفعول معه منصوب بما تقدم عليه من فعل أو شبهه عند البصريين ، وعند الكوفيين منصوب على الخلاف (٨٢) • ووافق ابن النازم رأي البصريين في ذلك كما فعل أبوه من قبل حيث قال في الألفية :

بنصب تالي المواو مفعولا معه

في نحو سيرى والطريق مسرعه

بما من الفعل وشبهه سبق

ذا النصب لا بالواو في القول الأحق

وعلى ابن النازم على ذلك بقوله : ثم ان ناصب المفعول معه ما تقدم عليه من فعل ظاهر أو مقدر ، أو من اسم يشبه الفعل، مثال

(٨٠) الايضاف مسألة ٢٩ ، وشرح الكافية ليرضى ١/٨٣ •

(٨١) شرح الألفية لابن النازم ١٠٧ ، ١٠٨ •

(٨٢) الايضاف • مسألة ٣٠ ، وشرح الكافية ليرضى ١/١٧٨ •

المعطر الطاهر : استوى الماء والخشبة ، وجاء الورد والطيايسة « ومثال
الفعل أفدر : « كيف أنت وقصصه من ثريد » تقديره : كيف تكون
وقصعة من ثريد ، ومثال الاسم المشبه للفعل « حسبك وزيدا درهم »
أى : كافيك وزيدا درهم (٨٣) *

٦ — يرى البصريون أن « أفعل » فى قولك « ما أفعله » فمض
ماض لا يتصرف ، وذهب بعض الكوفيين الى أنه اسم (٨٤) اسم
بدليل تصغيره فى قول الشاعر :

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا من هؤليائكن الضال والسمر (٨٥)

وتمسك ابن الناظم بمذهب البصريين ، ورد أدلة الكوفيين وضعف
مذهبهم ، فقال فى « باب التعجب » وأحسن فعل ماض لا يتصرف
مسندا الى ضمير « ما » والدليل على معانيته : لزومه متصلا ببناء المكلم
نون الوقاية نحو « ما أحرفنى بكذا » ولا يكون كذلك إلا الفعل ،
وعند بعض الكوفيين أن « ما أفعل » فى التعجب اسم لجيئه مصغرا
نحو قول الشاعر :

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا من هؤليائكن الضال والسمر

(٨٣) شرح الألفية لابن النظم ١١٠ *

(٨٤) الانصاف ١٥ مسألة *

(٨٥) نسب هذا البيت لأكثر من قائل :

فقريل هو للعرجى ، أو المجنون ، أو ذى الرمة ، أو الحسين بن عبد الله
أو كمال الثقفى ، أو لعل بن بدال *

وهو فى ديوان العرجى ص ١٨٣ ، والحزاة ٤٥/١ ، ٥٥/٤ ،
والانصاف ٧٤/١ ، واللسان والصحاح (ملح) برواية « عطرون -
هؤليائكن » وشدن : ماضى : شدن يشدن شدونا : أى قوى وطلع قرناه
وامسحنى عن أمه *

• واذا التصغير للاسماء •

ولا حجة فيما أورده لشذوذه ، ولا يمكن أن يكون التصغير دخله
لنسبه بأفعل لفظا ومعنى ، والشئ قد يخرج عن بابيه بمجرد التشبيه
بعيره (٨٦) •

٧ - نعم وبئس : فعلان عند جميع البصريين ، والكسائي من
المكوفيين ، واسمان عند باقي الكوفيين (٨٧) •

أخذ ابن الناطم برأى البصريين في تلك المسألة الخلافيه ، ورد
على « الفراء » الذى يمثل المذهب اسكوفى فقال : نعم وبئس فعلان
ماضيان اللفظ لا يتصرفان ، والمقصود بهما انشاء المدح والذم والدليل
على فعليتهما جواز دخول تاء التأنيث الساكنة عليهما عند جميع العرب ،
واتصال ضمير الرفع البارز بهما في لغة قوم ، حكى الكسائي عنهم
« الزيدان نعما رجائين ، والزيدون نعموا رجالا » ، وذهب « الفراء »
وأكثر المكوفيين الى أنهما اسمان ، واحتجوا بدخول حرف الجر عليهما
تأول بعضهم وقد بشر بنبت « والله ما هى بنعم الوند نصرها بكاء
وبرها سرقة » وقول الآخر « نعم اسير على بئس المعير » ...
ولا حجة فيما أورده ، وارجع الى شرحه على الألفية لترى فريدا من
الكلام على رد مذهب المكوفيين وتفنيده أدلتهم (٨٨) •

٨ - يرى البصريون ان الخبر اذا كان جامدا لا يتحمل ضميرا
يعود على المبدأ خلافا للمكوفيين (٨٩) •

وقد وافق ابن الناطم أباة فى الأخذ برأى البصريين فى تلك
اسألة ، فقال عند قول أبيه :

-
- (٨٦) شرح الألفية لابن الناطم ١٧٧ •
 - (٨٧) الانصاف - مسألة ١٤ ، والتصريح ٩٤/٢ •
 - (٨٨) شرح الألفية لابن الناطم ١٨١ ، ١٨٢ •
 - (٨٩) الانصاف - مسألة ٧ ، والتصريح ١٦٠/١ •

والمفرد الجامد فارغ وان يثبت فهو ذو ضمير مستكن

الخبر المفرد لا يخلو ما أن يكون جامداً أو مشتقاً ، فإن كان جامداً لم يتحمل ضمير المبتدأ خلافاً للكوفيين ، لأن الجامد لا يصلح لتحمل الضمير إلا على تأويله بالمشتق ، كقولك « زيد أسد » والجارية فمر « لعل تأويل : هو شجاع ، وهي منيرة ، والجامد إذا كان مفعولاً لا يحتاج إلى ذلك لأنه يكفي في صحة الأخبار به كونه صادقاً على ما صدق عليه المبتدأ ، وذلك كقولك « زيد أخوك » وهذا عبد الله » وما أشبه ذلك (٩٠) •

٩ - الاسم المرفوع بعد « لولا » مرفوع بالابتداء عند البصريين ، وهو عند الكوفيين مرفوع به (٩١) •

أخذ ابن النخعي بذهب البصريين في هذه المسألة حيث قال عند شرحه لقول أبيه : « وبعد لولا غالباً حذف الخبر » •

حاصله : أن ما يجب حذفه من الخبر أربعة ، الأول خبر المبتدأ بعد « لولا » الامتناعية بشرط تعليق امتناع الجواب على نفس المبتدأ ، وهو المغالب كقولك : « لولا زيد لزررتك » تقديره لأجل ضرورة تصحيح الكلام « لولا زيد مانع لزررتك » ثم التزم فيه حذف الخبر للعلم به وسد جواب «لولا» مسده (٩٢) •

ثم قال في موضع آخر : المبتدأ والخبر مرفوعان ، ولا خلاف عند البصريين أن المبتدأ مرفوع بالابتداء ، أما الخبر فالصحيح أنه مرفوع بالمبتدأ ، قال سيبويه : فأما الذي يبنى عليه شيء هو هو فإن المبنى عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء ، وذلك كقولك : عبد الله مدطلق ،

(٩٠) شرح الألفية لابن الناطم ٤٣ •

(٩١) الانصاف - مسألة ١٠ •

(٩٢) شرح الألفية لابن الناطم ٤٨ •

ورثيل رافع الجزئين هو الابتداء لانه اقتصاهما فعمل فيهما وهو ضميم
 أن أقوى المعامل وهو الفعل لا يعمل رفعين بدون اتباع فما ليس
 أقوى أولى أن لا يعمل ذلك ، وعند « المبرد » أن الابتداء رافع
 للمبتدأ وهما رافعان للخبر وهو قول بما لا نخير له ، وذهب الكوفيون
 الى أن المبتدأ والخبر مترافعان ، ويبطله أن الخبر يرفع المائل كما
 في نحو : « زيد قائم أبوه » ، فلا يصلح لرفع المبتدأ لأنه أقوى لمعامل
 وهو الفعل لا يعمل رفعين بدون اتباع فما ليس أقوى لا ينبغي
 له ذلك (٩٣) •

١٠ - أي الموصولة نبتى على الضم بشرطين . أن تكون مصاعفة ،
 وأن يكون صدر حلتها ضميراً محذوفاً ، وذلك عند البصريين أما
 الكوفيون فيعربونها مطلقاً (٩٤) •

وسار ابن النظم في هذه المسألة على مذهب البصريين حيث
 قال : من الأسماء الموصولة : « أي » وأعربت دون أخواتها
 لأن شبهها بالحرف في الافتقار الى جملة معارض بلزومها الاضافة في
 المعنى فسقطت على الأصل في الأسماء ، وقد قبضى وذلك اذا صرح بما
 تضاف اليه وكان المعاند مبتدأ محذوفاً كقوله تعالى « ثم لننزعن من كل
 شيعة أيهم أشد الى الرحمن عيا » (٩٥) تقديره : أيهم هو أشد . ومثل
 ذلك قول الشاعر :

إذا ما لقيت بنى مالك فصلم على أيهم أفضل (٩٦)

(٩٣) شرح الألفية لابن النظم ٤٣ •

(٩٤) الانصاف - مسألة ١٠٢ ، وأسرار العربية ٣٨٣ •

(٩٥) مريم ٦٩ •

(٩٦) البيت لغسان بن وعلة •

وهو من شواهد : المفصل ٨٤/١ برواية « بنى عامر » والمغنى

٧٣/١ ، واللسان مادة « أيا » والحزانة ٥٢٢/٢ ، والأشعر ١٢/١ •

وشرح مصول ابن معطى للنخوى ٤٥٥ •

وأما إذا لم يكن العائد مبتدأ محذوفا فلا بد من اعراب « أي » سواء كان العائد مبتدأ مذكورا نحو « مررت بأيهم هو أفضل » أو غيره نحو « امرر بأيهم قام أبوه » وكذا إذا لم يصرح بما تضاف إليه « أي » فلا بد من اعرابها سواء كان العائد مبتدأ محذوفا نحو « امرر بأي أفضل أو لم يكن نحو « امرر بأي هو أفضل » وأي قام أبوه » .

ومن العرب من يعرب « أيا » مطلقا (٩٧) ، وعليه قراءة بعضهم « ثم لنزعن من كل شيعة أيهم أشد » بالنصب (٩٨) انتهى كلام ابن النظم (٩٩) .

من كل ما تقدم ينضح لنا أن ابن النظم كان بصري المذهب وبخاصة في طوره الثاني الذي يمثله أصدق تمثيل شرحه على ألفية أبيه .

« موقف ابن النظم من أبيه »

قلنا شيئا سبق أن مذهب ابن النظم قد مر بطورين : في الطور الأول كان متأثرا بأبيه « سالكاً مذهبه وهو الأخذ بمنهج البصريين مع

(٩٧) انظر : الكتاب ٢٩٧/١ ، والأشمونى ١٦٦/١ .

(٩٨) قال أبو حيان : الرفع قراءة الجمهور « والمغرب قراءة صالحة

ابن جصروف ومعاد بن مسلم الهراء - استأذ القراء - وزائدة عن الأعمش على أنه مفعول « لنزعن » ؛

انظر البحر ٢٠٨/٦ ، والكشاف ٢٦/٣ .

الكوفيون يرون أن الضمة في القراءة المشهورة صمة اعراب

لا صمة بناء .

انظر : عمادى القرآن للفراء ٤٧/١ ، ٤٨ ، والكشاف ٢٤/٣ .

(٩٩) شرح الألفية لابن النظم ٣٦ .

ميه أحيانا الى المنهج الكرمي . وفي الطور الثاني تمكن منه المذهب البصري أيما تمكن فحالف أباه في كثير من الحدود والضوابط وطائفه من المسائل النحوية .

وفسد أرجع الاستاذ ممد علي حمزة (١٠٠) السبب في مخالفته لأبييه في لحدود النحوية الى اختلاف ثقافته عن ثقافة أبيه ، فكان امن الناطم من الدارسين المنطقيين المعروفين في ذلك العصر . فلا غرو ذن أن يهتم بالحدود النحوية التي هي من مظاهر علم المنطق في لدراسات النحوية ، أما أبوه فقد غلب عليه طبع الحفظ والرواية . ولذا قل اهتمامه بالحدود النحوية من حيث كونها جامعة مانعة .

أما سبب مخالفته لأبيه في كثير من المسائل النحوية فهو عبنة الاتجاه البصري الى دراساته النحوية وعزوفه عن الاتجاه الكرمي . أما أبوه فقد ظل ثابتا على مذهبه وهو الأخذ بمذهب الكرميين في صائفة من المسائل النحوية ، فحالفه ابنه فيها ، وليك بعض نماذج من تلك المخالفات .

١ - قال ابن مالك في حد الضمير :

فما لذى غيبة أو حضور كانت وهو سم بالضمير

علق ابن الناطم على ما قاله أبوه بقوله « لصور ما دل على نفس المتكلم أو المخاطب أو الغائب كأنا وأنت وهو » وقد درج قسمي المتكلم والمخاطب تحت دي الحضور ، لأن المتكلم حاضر للمخاطب والمخاطب حاضر للمتكلم ، لكن فيه ايهام ادخال اسم الاشارة في المضمر ، لأن الحاضر ثلاثة : متكلم ومخاطب ولا متكلم ولا مخاطب وهو المشار اليه (١٠١) .

(١٠٠) ابن الناطم النحوي ١٨٠ .

(١٠١) شرح الألفية لابن الناطم ٢٠٠ .

٢ - قال ابن مالك في حد الحال :

الحال وصف فضله منتصب مفهم في حال كفرها أذهب

وعلق على هذا التعريف ابن السطيم بقوله : قوله « الحال وصف فضله منتصب مفهم في حال » أي في حال كذا ، فيه مع ادخل حكم في الحد بقوله « منتصب » أنه حد غير مانع ، لأنه يشمل النعت ، ألا ترى أن قولك « مررت برجل راكب » في معنى مررت برجل في حال ركوبه ، كما أن قولك « جاء زيد ضاحك » في معنى جاء زيد في حال ضحكته ، فلأجل ذلك عدلت عن هذه العبارة إلى قولي « المذكور فضلة لبيان هيئة ما هو له ، وحق الحال المنصب لأنها فضله ، والنصب اعراب الفضلات » (١٠٢) .

وتابعه ابن هشام في ذلك الاختلاف حيث قال : وفي هذا الحد نظر ، لأن المنصب حكم والحكم فرع للتصور ، والتصور متوقف على الحد فجاء الدور (١٠٣) وبعد من شرح الشيخ د. خالد الأزهري سلام ابن هشام نقل ما ينفي الدور عن حد ابن مالك ، ولكنه عاد ونقل ما يثبت كلام ابن السطيم وابن هشام ، فقال : رحا كلام ابن هشام : وفي الحد الذي ذكره الناظم نظر لأن المقصود من الحد تصور مادية الحد وهو لا يتصور إلا بجميع أجزاء الحد ، وقد جعل المنصب جزءا من الحد مع أنه حكم من أحكام المحدود ولحكم فرع التصور ، إذ لا يحكم على شيء إلا بعد تصوره ، والتصور لما فيه المحدود موقوف على جميع أجزاء الحد ومن جملتها المنصب وهو حكم فجاء الدور . وهو توقف الشيء على ما يتوقف عليه . والدور مطلق بالحد ، وأجيب باختلاف الجهة : فإن الحكم ليس موقوف على التصور لكنه الحقيقة

(١٠٢) المصدر السابق ١٢٤ .

(١٠٣) أوضح المسالك ٢/ ٢٩٦ .

المتوقعة على احد حتى يلزم البطال . واما هو متوقف على التقصور بوجه ما ، وذلك لا يتوقف على احد . فلا يلزم لبطال . وغيره نظر لأن النرحس من احد بمرده لحدود ساقه هيئت احدهم عليه . بالتصور يوجه ما لا يكفي في ذلك (١٠٤) .

٣ - قال ابن مالك في تعريف النعت :

واقعت بمشتق كصعب وقرب وشبهه كذا ودى والمتسبب

عان ابن الناقم على ذلك بقوله . اشتق ما أخذ من لفظ المصدر فإدلاء على معنى هو وب اليه . فلو قلنا : « وقعت بورد ف » . « صعب وقرب » . « أن أمثل » . لأن من المشتق أسماء لزمان ولين ولالة . ولا ينسب بشيء منها إنما ينعت بما كان صفة ودى ما دل على حدث وصاحبه كصعب وقرب ، وخيارب ومصروب ، وأفسد ذلك ، أو سما مضمنا معنى المصفة اما وضعنا كاسم الإشارة وذن معنى صاحب أو بمعنى لدى وكأسماء النسب ، واما استعمالا كـ « ولهم » « ميرت بقاع عوفج كله ، أي : خشن » (١٠٥) .

٤ - قال ابن السكيت : من هو اصح حذف الخبر وجوبا . خبر المبتدأ اذا كان مصدرا سهلا في مفسر صاحب حال وافع بعده نحو « صربنى العبد مسيئا » أو أعمل نقضين مضائا الى المصدر المذكور نحو « أقم تبينى الحق منوطا بالحكم » . مسيئا حال من الضمير في « كان » . المفسر بمفعول المصدر المقدر مع الفعل المصناف اليه الخبر . وكذلك « منوطا » . والتقدير : صربنى العبد اذا كان مسيئا . وأتم تبينى الحق

(١٠٤) شرح التصريح ٣٦٧/١ ، وانظر في ذلك أيضا : حاشيته

الشيخ يس على التصريح .

(١٠٥) شرح الألفية لابن الناقم ١٩٣ .

إذا كان منوطاً بالحكم . وقد ألزم في هذا الحرف حذف الخبر العلم به
وسد الحال مسدده (١٠٦) .

من النص السابق يصح لنا أن ابن الناطم سلك مسلك جمهور
البصريين حيث جعل الخبر محذوف مقدراً « ساداً كان » ، أما أبوه فقد
اختار مذهب الخمس الذي يرى أن الحرف محذوف مقدر بمصدر
مضاف إلى صاحب الدال ، فيقدر في « خري العبد مسيئاً » ضربه
مسيئاً (١٠٧) .

• قال ابن الناطم ثمارها قول أبيه :

ووصل ما بدى الحروف مبطل أعمالها وقد بقي العمل

متحصل « ما » المرثدة على « ن وأخوانها » عنكها عن اسم
ال « أبيت » سببها وجهان ، أقول : إما يريد « ن » ، وإما « ن »
ولكنما عمرو حسن ولعلنا أحوك « ن » ولا يدل إلى العمل . لأن
« ما » قد زالت اختصاص هذه الأحرف بالأسماء « وجب أعمالها »
وتقول : لئتما أباك حاضر وإن شئت قلب « لئتما أبوك حاضر » لأن
« ما » لم تزل اختصاص « ليت » بالأسماء ، فكأن تعملها إلى بقاء
الاختصاص . وإنك أن تعملها نظراً إلى الكف كما قال الشاعر :

قالت أليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد (١٠٨)

(١٠٦) شرح الألفية لابن الناطم ٤٩ .

(١٠٧) أوضح المسالك ٢٢٧/١ .

(١٠٨) البيت للناطقة الندياني . يحكى من امرأ أنها رأت حمام

من الحمام يطير ، فسمعت أن يكون لها مثل مقدار هذا الحمام أو نصفه ،

فإذا حصل لها ذلك فقد كفها وأعناها .

يروى بنصب « الحمام » ورفعته ، وذكر ابن برهان أن الأخفش
 روى « نما زيدا قائم » وعزا مثل ذلك إلى لكسني وهو غريب (١٠٩) .
 فإين الناظم يرى أن « ما » الزائدة إذا دخلت على « ان
 وأحوالها » أزيلت اختصاصها بالأسماء ووجب أن تكفوا عن العمل .
 ويعرب ما بعدها مبتدأ إلا « لت » فيجوز معها لوجهان . وهو بذلك
 مخالف لأبيه الذي يرى حوار الأعمال دخول سقناء ويؤخذ ذلك من
 قوله السابق « وقد يبقى العمل » .

٦ - قال ابن مالك في شروط أعمال اسم الفاعل :

كفعله سم فاعل في العمل
 ان كان عن مضييه بممزل
 وولى استقفاها أو حرف ندا
 أو نفيا أو جاسفة أو مسندا

من نص ابن مالك السابق يوضح لنا أن من شروط أعمال اسم
 الفاعل اعتماده على حرف النداء ، ولم يوافق به على ذلك حيث قال :
 وقرله « أو حرف ندا » مثله « يا طالب جبالا » والمندوع لأعمال
 « طالعا » هـ هو اعتماده على موصوف محذوف تقديره « يا رجلا
 طالعا جبالا » وليس المندوع الاعتماد على حرف النداء لأنه ليس

قال الخطيب التبريزي : يروى « الحمام » بالرفع والنصب ، وكذلك
 « نصفه » فإذا نصبت تكون « ما » زائدة ، وإذا رفعته تكون « ما
 كامة » الليت » عن العمل ويصير ما بعدها مبتدأ وخبرا كما تقول : إنما
 ربه تعالى . انظر : أوضح المسالك ٢/ ٢٤٩ .
 وقد : اسم فعل بمعنى يكفى ، أو اسم بمعنى كاف .
 (١٠٩) شرح الألفية لابن الناظم ٦٦ .

كالاستفهام والنفي في التقريب من الفعل لأن النداء من خواص
الاسماء (١١٠) •

وقد تابعه ابن هشام في تلك المخالفة حيث قال : ومنه « يا طالعا
جبلا » أى : يا رجلا طالعا جبلا ، وقول ابن مالك أنه اعتمد على حرف
النداء سهو لأنه مختص بالاسم فكيف يكون مقربا من الفعل (١١١) •

هذا قليل من كثير وما ذكرناه كاف في اعطاء صورة لمذهب وثقافة
تل من الأب والابن ، تلك الثقافة هي التي كانت السبب الحقيقي وراء
تلك المخالفات التي داعت وانتشرت بين النحاة ، وقد نوه بها بعض
الباحثين المحدثين كالشيخ الطنطاوى حيث قال عن شرح ابن النازم :
يعتب على الظن أنه أول شرح على الألفية مهد السبيل لمن شرحوها
بعده ، فنقلوا عنه وعنوا ببسط ما فيه حتى امتاز أن يصير علما باغلبة
« للتأريح » إذا أطلق في هذه المصنفات ، وقد تعقب ابن النازم أباه
دون هراذه ، وربما حمله التعقب على الاتيان ببیت يدل بيت الناظم •
الا أن الشراح بعده كابن هشام وابن عقيل والأشعموني وغيرهم
سددوا للرد عليه بما جعل حملاته على الناظم طائشة (١١٢) •

رحم الله الأب والابن وجزأهما عن النحو العربى خير الجزاء ••

(١١٠) شرح الألفية لابن النازم ١٦٣ •

(١١١) أوضح المسالك ٢/٢١٩ •

(١١٢) نشأة النحو ٢٣١ •

موضوعات البحث

- ١ - عصر ابن الناظم والحركة العلمية .
- ٢ - ابن الناظم .
- ٣ - شروحه ، وتلاميذه .
- ٤ - مكتبته ، ونشاطه العلمي .
- ٥ - مؤلفاته .
- ٦ - مذهبه النحوى .
- ٧ - موقف ابن الناظم من أبيه .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الاتقان فى علوم القرآن - السيوطى . مطبعة المشهد الحسينى . القاهرة ١٩٦٧م .
- ٣ - الاسلام والحضارة العربية . محمد كرد على .
- ٤ - الأسماء والصفات فى النحو - السيوطى - طبعة دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .
- ٥ - الانصاف فى مسائل الخلاف - الأنبارى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (ط ٣) ١٩٥٥م .
- ٦ - أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك . ابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين (ط ٦) ١٩٧٤م .
- ٧ - ابن الناظم النحوى - محمد على حمزة - مطبعة اسعد بيغداد .
- ٨ - البحر المحیط : لابی حيان - مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٩هـ .
- ٩ - بغية الوعاة - السيوطى - مطبعة السعادة بمصر (ط ١) ١٣٢٦هـ .
- ١٠ - البلاغة عند السكاكى - أحمد مطلوب - مكتبة النهضة - بغداد ١٩٦٤م .

- ١١ - سهيل الفوائد وتكميل المقاصد - ابن مالك تحقيق محمد كامل
بركات - القاهرة ١٩٦٨م .
- ١٢ - التصريح على التوضيح - خالد الأزهرى - طبعة الحلبي .
- ١٣ - خزائن الأدب - البغدادي - طبعة بولاق .
- ١٤ - اندور الكامنة في أعيان المائة الثامنة - ابن حجر العسقلاني -
تحقيق محمد سيد جادالحق - دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٩٦٦م
- ١٥ - المدارس في تاريخ المدارس - النعماني - تحقيق جعفر الحسني -
مطبعة الترقى ١٩٤٨م .
- ١٦ - ديوان جرير - طبعة بيروت ١٩٦٤م .
- ١٧ - ديوان عمر بن أبي ربيعة - شرح محمد محيي الدين (ط ٢)
١٩٦٠م .
- ١٨ - ديوان العرجي - تحقيق خضر الطائي ، ورشيد العبيدي -
بغداد ١٩٥٦م .
- ١٩ - ديوان النابغة - تحقيق وشرح كرم البستاني - بيروت ١٩٦٠م
- ٢٠ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات - الخواتم -
طبع حجر .
- ٢١ - شرح ألفية ابن مالك - ابن الناطم - منشورات ناظر خسرو
بيروت لبنان .
- ٢٢ - شرح التسهيل - ابن عميل (المساعد على سهيل الفوائد) تحقيق
محمد كامل بركات - نشر مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى .
- ٢٣ - شرح الكافية - الرضي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- ٢٤ - شرح الكافية - ابن الناطم - مخطوط - الأسكوريال رقم ٢٠٠ .
- ٢٥ - شرح فصول ابن معط - الحوي - تحقيق أحمد مرسى الجمل
« رسالة دكتوراه » .

- ٢٦ - شرح الأسموسى على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان - طبعة الحلبي
- ٢٧ - شواهد البوضيح والتصحیح على مشكلات الجامع المسحیح -
ابن مالك - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار العروبة ١٩٥٧م
- ٢٨ - طبقات الشافعية - السبكي - المطبعة الحسينية ببصر (ط ١) .
- ٢٩ - طبقات النحاة والمغويين - ابن قاضي شهاب - تحقيق محمد عياض
- طبع العراق ١٩٧٣م .
- ٣٠ - عاية النهاية في طبقات القراء - ابن الجزري - مطبعة الخانجي ١٩٣٢م
- ٣١ - الفتح المبين في طبقات الأصوليين - عبد الله مصطفى المراتي -
مطبعة دار السنة ١٩٤٧م .
- ٣٢ - كتاب سبويه - طبعة بولاق - مصر ١٣١٦هـ .
- ٣٣ - كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون - حاجي خليفة (ط ٣)
طهران ١٩٤٧م .
- ٣٤ - الكشف - الزمخشري - دار المعرفة - بيروت لبنان .
- ٣٥ - لسان العرب - ابن منظور - طبعة بيروت ١٩٥٦م .
- ٣٦ - معجم المؤلفين - عمر رضا كحانة - مطبعة الزقزوق - دمشق ١٩٥٧م
- ٣٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي -
دار الحديث - القاهرة .
- ٣٨ - معاني القرآن - الفراء - تحقيق أحمد نجاشي ومحمد النجار -
دار الكتب (ط ١) ١٩٥٥م .
- ٣٩ - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة - الشيخ محمد الطبطبائي -
تحقيق عبد العظيم الشنناري ومحمد عبد الرحمن الكردي
(ط ٢) ١٩٦٩م .
- ٤٠ - الوافي بالوفيات - الصفدي - استانبول ١٩٣١م .

التجويد

وعلاقته بالأصوات والقراءات

الدكتور عبد المناح أبو الفتوح ابراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة — جامعة الأزهر

التجويد : تعريف وأهمية :

التجويد : مصدر ، من جرد الشيء تجويدا إذا حسنه وأتقنه ،
والاسم منه الجودة ، ضد الرداءة «(١)» •

وفي القرآن الكريم : «لَتَجِدَنَّ أَلْفَافًا مَجْرُومَةً» (١) ،
لرداءة في المنطق • ومعناه : انتهاء الغاية في التصحيح • وبأرغ النهاية
في التحسين «(٢)» •

وفي تعريف آخر : « التجويد لغة : الإقبال بالحيد ، واصطلاحا
علم يعرف به إعطاء كل حرف حقه ومسندفه من الصفات والمدود ، وغير
ذلك ، كالترقيق ، والتفخيم ، ونحوهما » (٣) في ألفاظ القرآن الكريم

(١) انشر في القراءات العشر لابن الجزرى ٢١٠/١ •

(٢) السابق •

(٣) هداية المستفيد في أحكام التجويد للشيخ محمد محمود ص •

(وحق الحروف صفاتها الذاتية اللازمة لها ، كالجهر والشدة والاستعلاء ،

ونها لازمة بذوات بعض الحروف غير منفكة عنها ، فان انفكت يكون

الامكان لنا جليا في بعض الصفات ، ولها خفيا في بعض •

وأن مسبقا : ما يشأ عن تلك الصفات الذاتية اللازمة كالتفخيم

التي هي موضوع هذا العلم . وكلام النبي صلى الله عليه وسلم عدد
بعض العلماء .

ويصفه ابن الجزري موضحا لكيفية الاتقان والتحسين بقوله :
« هو حلية التلاوة ، وزينة القراءة ، وهو عطاء الحروف حركاتها ،
وترتيبها مراتبها ، ورد الحرف الى مخرجه وأصله ، والحاقة بنظيره ،
وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته ، وكمال هيئته ،
من غير اسراف ولا تعسف ، ولا افراط ، ولا تكلف » (٤) .

وأهمية هذا العلم تتضح من خلال الغرض منه : وهو بارغ المعاية

=

فانه ناشئ عن كل من الاستعلاء ، والتكرير ، وكالتريق : فانه ناشئ
عن الاستعلاء ، وذلك أن التفخيم الناشئ عن الاستعلاء والتكرير يكون
في حرف حال سكونه ، وتحريكه بالفتح والضم فقط . واما حال
تحريكه بالكسر فلا يوجد فيه التفخيم بل ضده وهو الترقيق ، لأن بين
الكسر والتفخيم مانعة الجمع ، اد الكسر يستدعي انخفاص السينان
والتفخيم يستدعي ارتفاعه .

وأن الترقيق الناشئ عن الاستعلاء المذكور يكون في الراء حال
كسرها ، وفي اللام اذا لم تكن في الاسم الجليل وقبلها ضم أو فتح . .
أما حال سكون الراء مع انتفاء سبب الترقيق قبلها وتحريكها بغير الكسر
فلا يكون فيها ترقيق مع أنها مستقلة . وكذلك اللام اذا كانت في الاسم
الجليل وقبلها فتح أو ضم فلا يكون فيها ترقيق مع أنها مستقلة أيضا .
(نهاية القول المفيد ص ١٠ ، ١١ - الشيخ محمد حكي نصر) .

وتفخيم اللام المستقلة المسبوقة بضم وفتح يروح الى تأثر الأصوات
بعضها ببعض ، حيث أن الضمة والفتحة من أصوات الاستعلاء .

في اتقان لفظ القرآن الكريم على ما تنبئ من الحضرة النبوية « (٥) لأن به « صون اللسان عن الخطأ في كتاب الله ، أو اللحن فيه » (٦) ، وذلك بالمعرفة التامة لقواعد النطق الصحيحة ، ومخرج الأصوات السليمة ، ولذا يقول ابن الجزري : « ان أولى العاوم ذكرا وفكرا ، وأشرفها منزلة وقدرها ، وأظمها ذخرا وفخرا كلام من خلق من الماء بشرا فجعله نسبا ، وصورا ، فهو العلم الذي لا يخشى معه جهالة ، ولا يغشى به ضلالة ، وان أولى ما قدم من علومه ، ومعرفة تجويده ، وإقامة ألفاظه » (٧) .

واقصد ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ما يدعو بل ما يوجب علينا نحن المسلمين تحسين القراءة وتجويدها .

من ذلك قوله تعالى : « وقل القرآن ترتيلا » (٨) « ورتلناه ترتيلا » (٩) .

والترتيل في القراءة : تبين حروفها ، والتأني في أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها « (١٠) » .

واقصد ورد عن السلف في تفسير هذه الآية ، ما نقله الطبري بسند

(٥) هداية المستفيد في أحكام التجويد ص ٥ .

(٦) السابق .

(٧) التمهيد في علم التجويد لابن الجزري ص ٥٢ تحقيق عاتم قسوري

(٨) سورة المزمل آية ٤ .

(٩) سورة الفرقان آية ٣٢ .

(١٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني

صحيح عن مجاهد ، في قوله تعالى : « ورتل القرآن » قال : بعضه في اثر بعض على مؤده • وعن قتادة قال : بينه بيانا (١١) •

وعن حفصة أم المؤمنين فيما أخرجه مسلم في أثناء حديث « كان النبي صلى الله عليه وسلم — يرتل المسورة حتى تكون أطول من أطول منها » (١٢) •

وفي حديث علقمة ، أنه قرأ على ابن مسعود ، فقال (له) « رتل فذاك أبى وأمى ، فانه زينة القرآن » (١٣) •

وعن عبد الله بن معقل قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو على ناقته — أو جملة — وهي تسير به ، وهو يقرأ سورة الفتح ، أو من سورة الفتح ، قراءة لينة ، يقرأ وهو يرجع » (١٤) •

والترجيع : هو تقارب ضروب الحركات في القراءة ، أصله : التردد وترجيع الصوت : ترديده في الحلق • وهو قدر زائد على الترتيل ، قال الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة : معنى الترجيع : تحسين القلاوة ، لا ترجيع الغناء (١٥) •

وعن أبي موسى — رضى الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١١) السابق ٧٠٧/٨ •

(١٢) السابق ٧٠٩/٨ •

(١٣) السابق ٧٠٩/٨ •

(١٤) السابق ٧١٠/٨ •

(١٥) السابق •

قال له : يا أبا موسى لقد أرتيت مزمارا من مزامير آل داود « (١٦) » .

وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله « من أحب أن يقرأ القرآن غصا كما أنزل ، فليقرأ قراءة ابن أم عبد » ، يعنى عبد الله ابن مسعود . وكان رضى الله عنه قد أعطى حظا عظيما في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيبه (١٧) .

كما ورد عن ابن مسعود قوله : « جودوا القرآن ، وزينوه بأحسن الأصوات ، واتربوه ، فإنه عربى ، والله يحب أن يعرب به » (١٨) .

وغير ذلك كثير مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة والسلف الصالح مما يؤكد أن تجويد القرآن الكريم ليس من كمال القراءة وجودها ، ومن تمام العبادة . فعدم الالتزام بأحكام التجويد يمد لحدا ، وخروج على الفصاحة ، ومخالفة آداب القراءة القرآنية ، بل أكثر من ذلك عند جمهرة العلماء ، حيث ورد في شأن دراسة قواعد هذا العلم وتعلم أحكامه بأنه : « فرض كفاية ، والعمل به

(١٦) السابق ٧١١/٨ . (آل داود : قال الخطيب : قوله ما آل داود ،

يريد داود نفسه لأنه لم يقل أن أحدا من أولاد داود ولا من أقاربه كان أعطى من حسن الصوت ما أعطى .

والمراد بامزمار : الصوت الحسن ، وأصده الآية : قيل هي آلة تشبه النعود وقيل : الناي . وأطلق اسمه على الصوت للمشابهة - انظر فتح .

الدرى السابق ٧١٢/٨) .

(١٧) انشر في القراءات العشر ٢١٢/١ .

(١٨) السابق ٢١٠/١ .

فرض عين على كل مسلم ومسلمة من المكلفين ، وقد ثبتت فرضيته
بالكتاب والسنة ، واجماع الأمة « (١٩) » .

ويؤكد هذه الحقيقة ابن الجزري بقوله : « لا شك أن الأمة كما هم
متعبدون بفهم معاني القرآن ، وإقامة حدوده ، متعبدون بتصحح الفاظه
 وإقامة درومه على الحسنة المتألفة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة
 النبوية الأفضحية ، العربية ، التي لا يجوز مخالفتها ، ولا العدول عنها
 إلى غيرها » (٢٠) .

وأشار إلى مثل ذلك السيرطي بقوله « وقد عد العلماء القراءة
 بغير تجويد لحنا » (٢١) . كما ذكر الشيخ برهان الدين القلقلي أن النبي
 صلى الله عليه وسلم سمي قارئ القرآن بغير تجويد فاسقا ، وهو مذهب
 الامام الشافعي رضي الله عنه (٢٢) .

وقد قال الشيخ الامام أبو عبد الله نصر بن علي بن محمد الشيرازي
 « ان حسن الأداء فرض في القراءة ، ويجب على القارئ أن يقرأ القرآن
 حق تلاوته ، ، سيما لقرآن أن يجد اللحن والتغيير اليه سببلا » (٢٣) .

علاقة التجويد بالأصوات :

لا يستطيع من أوتي حظا قليلا من العلم أن ينكر العلاقة المقتضية
 بين التجويد والأصوات . وأهمية كل منهما في العربية ، لا تحصى .
 بانقرآن الكريم .

(١٩) نهاية القول المفيد ص ٧ للشيخ محمد مكي .

(٢٠) النشر ٢١٠/١ .

(٢١) الاتقان في علوم القرآن ١٣٢/١ .

(٢٢) نهاية القول المفيد ص ٩ .

(٢٣) النشر ٢١١/١ .

فـ . جـ ريد : هو العلم الذى يدرس الصوت اللغوى فى نطاق ألفاظ القرآن الكريم بخاصة .

أما الأصوات : فهو العلم الذى يدرس الصوت اللغوى بوجه عام .
أو هو « لعلم الذى يدرس لصوت الانسانى من وجهة النظر اللغوية » (٢٤)
فهو فرع من علم اللغة ، يعنى « باللغة المنطوقة دون أشكال الاتصال
الأخرى المنظمة ، كالمعسة المكتوبة ، ورموز الصمم البكم ، وعلامات
البشارة المتفق عليها ... الخ .

ومن ثم فـ علم الأصوات لا يهتم إلا بالتعبير اللغوى دون المدسمون
الذى يقوم تحليله على القواعد والمعجم ، أى الجانب النحوى
والدلالى للغة » (٢٥) .

وهذا العلم يشتمل على أربعة أفرع .

١ - علم الأصوات العام : وهو دراسة الامكانات لصوتية
لفيزيائية للانسان ، ودراسة تشغيل جهازه الصوت .

٢ - علم الأصوات الوصفى : وهو دراسة الخصائص الأصواتية
للغة معينة ، أو لهجة .

٣ - علم الأصوات التطورى أو التاريخى : وهو دراسة التغيرات
لأصواتية التى قنعرض لها لغة معينة من خلال تاريخها . (ويمكن أن
يكون لعلم الأصوات التطورى جانب عام يدرس فيه العوامل العامة

(٢٤) علم الصوتيات ص ١١ دكتور عبد الله ربيع ، د . عبد العزيز

علام .

(٢٥) علم الأصوات ص ٦ برتيل مالبرج ترجمة دكتور عبد الصبور

نصاين .

التي تحكم التطور الصوتي) •

٤ - الضبط ، أو علم الأصوات المعيارى : وهو مجموعة القواعد التي تحكم النطق السليم للغة معينة ، فالضبط يستلزم وجود معيار للنطق الصحيح داخل مجموعة لغوية ، دولة كانت ، أو مقاطعة ، أو وحدة ثقافية ، أو مجموعة اجتماعية (٢٦) •

ولعل الفرع الأخير هو أكثر الفروع اتصالاً وتشبيهاً بأحكام التجويد . وعلى ذلك فالعلاقة بين الأصوات والتجويد علاقة العموم والخصوص •

جادة القراءة القرآنية ، وانتقانها وفقاً لأحكام التجويد ، لا تقتضى إلا بالمعرفة السامة الواعية ، بخارج الأصوات ، وصفتهما ، والمدرس والمتدرب على كيمييه النطق الصحيح ، لأن أى انحراف عن مخرج الصوت ، أو صفته ، يترتب عليه خلط الأصوات اللغوية ، واختلال المعانى . فمثلاً (٢٧) : « انحاء والمعين » مخرجهما واحد وهو الحلق ، ولكن الذى ينفرد بينهما اختلاف صفة كل منهما • فالحاء : صوت حلقى حكاكى مهموس (غير مهتز) • والعين : صوت حلقى احتكاكى (رخو) مجهور (مهتز) •

(٢٦) السابق ص ٧ ، ٨ •

(٢٧) اعتمدنا فى ذكر الحقائق الصوتية على الكتب الآتية :

- ١ - الأصوات اللغوية د • إبراهيم أنيس •
- ٢ - الأصوات د • كمال بشر •
- ٣ - علم الصوتيات د • عبد الله ربيع ، د • عبد العزيز علام •
- ٤ - أصوات اللغة العربية د • عبد الغفار حامد هلال •

والفرق بينهما هو الجهر (الاهتزاز) في العين ، وعدمه (الهمس) في الحاء .

وعلى ذلك : لو أن قارئاً قرأ « الحمد » ولم يعط صوت « الخاء »
حقه من الصفة المذكورة لانحرف الى صوت العين لتصير الكلمة
« العمدة » . مما يقترب على ذلك عدم صحة القراءة ، ولو كانت في
صلاة بطلت عند بعض العلماء ، يقول ابن الجزري : « أجمع من نعلمه
من العلماء على أنه لا تصح صلاة قارئ حلف أمي ، وهو من لا يحسن
القراءة ، واحتلوا في صلاة من يبدل حرفاً بغيره ، سواء تجانسا (٢٨) ،
أم تقارباً (٢٩) ، وأصح القولين عدم الصحة ، كمن قرأ « الحمد »
بـالعين ، أو « المدين » بدناء أو « المغضوب » بالحاء أو الخاء ، ولذلك
عد العلماء القراءة بغير نجريد لحناً ، وعدوا القارئ بها لحناً » (٣٠) .

(٢٨) التجانس : الاتحاد في المخرج ، والاتصال في الصيغة ، كالعين
 وإحياء في المثال المذكور والبدال والتاء كذلك فلا يصح إبدال الغين
 جاء في المفضوب حتى لا نصير « المحضوب » (وانظر في تعريف التجانس
 تقرير المشر لاين الجزري ص ٩) .

(٢٩) التقارب : هو تقارب الحرفين مخرجا وصفة ، كالتاء والتاء .
فالتاء مخرجه طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، والتاء : طرف
اللسان مع أطراف الثنايا العليا ، فتقاربا مخرجا ، وهما مجهولان ولكن
انتاء صوت شديد ، والتاء رحو فتقاربا صفة . وفي الأمثلة المذكورة
اضداد والظاء ، فالضاد من مخرج التاء ، والظاء من مخرج التاء . وكلاهما
عنوان مطبقان مجهوران . ولكن الظاء رحو ، والضاد شديدة
فلا يصح ابتداء الضاد ظاءا حتى لا تصير « المعقوب » (وانظر في تعريف

(٣) النفقة ٢١٦/١ + ٢١٦/٢

كل هذا وغيره من الآراء التي يؤيدها التطبيق الفعلي من الناحية الصوتية لتبيان اللحن واختلال المعاني مما لا يتسع المجال لذكره وسرده من عدم اتقان النطق واجادة الفراءه . ويؤكد الأهمية البالغة لعلم الأصوات وقيمته التوطيئية في خدمة القرآن الكريم ، من خلال التزامه بينه وبين علم التجويد .

ولقد نبغ في تلك الدراسات الصوتية أعلام العربية القدماء وأوارها اهتماما عظيما في مؤلفاتهم كالخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وابن جني . وابن سينا ، وابن الجزري وغيرهم ، وليس ذلك الا لمعرفةهم الراحية لقيمة تلك الدراسات الصوتية في العربية ، ثم قام على أمرها المحدثون استمرارا لجهود القدماء ، واستكمالا لبعض الجوانب .

ومع وضوح تلك القيم الصوتية قديما وحديثا في الدراسات العربية عامة ، والقرآنية بخاصة نرى بعض الذين قلت بضاعتهم من العلم والمعرفة ، يعدون دراسة الأصوات ترفا علميا أو فضلة لغوية ويتشدقون بعدم جدواها ، وانعدام نفعها ، ولو أنهم أحسنوا لأنصفوا ، واو كان عذرهم الجهل لوجب عليهم العلم ، والتعمق فيه لسر أغوار تلك الدراسة للوقوف على حقيقتها وطبيعتها ، وأهميتها ، ثم لهم بعد ذلك أن يحكموا اما عليها أولاها .

ولو أنهم عرفوا الاثم لما وقع على من لا يحسن قراءة القرآن ، وفقها للمقاييس الصوتية ، والأحكام التجويدية المؤسسة على تلك المقاييس لما استهانوا بها وكفى تلك الدراسة شرفا وفخرا ، وقيمة ومنزلة ما تقوم به في تقويم الألسنة ، وتصحيح النطق ، وتجويد القراءة ، ليس في القرآن الكريم فحسب ، أو في حديث رسول الله ﷺ ، بل في العربية بوجه عام ، فمن المضحك والمؤسف معا أن تتطق أصوات العربية دون إعطائها حقها ومستحقها كأصوات القرآن الكريم ، لأن

الخطأ واحد واللحن لا يتجزأ • فانظر مثلاً : الى من يطق « القاهرة »
 هو قد رقق القاف والراء فيها أو أحدهما • ومثل ذلك في « مصر » فيمن
 يسلب الصاد تفخيمها • ومن أمثلة القاف : القلب ، القط ، قنطار ،
 قليل ، قلق ، دق ، شق ... الخ • وانظر كيف يتغير المعنى تماماً في
 كثير من الكلمات حينما تسلب التفخيم من هذه الكلمات ، فالصوت
 حينئذ سوف يتبدل الى نظير آخر وهو الكاف •

ومن أمثلة الصاد : حمار ، صام ، صبر ، أصر : حيث يتبدل الصاد
 بسلبه التثخيم الى سين ، ... الخ • والأمثلة بالقياس على ذلك كثيرة ،
 مما يجعلنا نستمسك بقواعد النطق الصحيحة • وهذا يستلزم تدريباً
 وتمهيداً ، ورياضة صوتية تمكن من تحقيق الغاية في الجودة والانتقان ،
 لأن المرء لا يستطيع أن يبلغ الغاية في هذا الفن الا بعد مران وتدريب ،
 وممارسة ، وتلق ومشافهة ، من دارس متخصص في تلك الدراسات
 الصوتية والتجريدية بصفة خاصة حتى لا يحرف القارئ عن قواعد
 وأحكامها ، فتصبح قراءته مجوجة ، وتلاوته مرزولة ، أو ملحونة ،
 يقول ابن الجوزي : « ولا أعلم سبباً لباوغ نهاية الانتقان ، والتجويد ،
 ووصول غاية التصحيح والتسديد ، مثل رياضة الألسن ، والتكرار على
 اللفظ المتلقى من فم المحسن ، وأنت ترى تجويد حروف الكتابة كيف
 يبلغ الكاتب بالرباطة وتوقيف الأستاذ » (٣١) • فكما أننا نعلم النشء
 كيفية الكتابة منذ نعومة أظفارهم حتى يبلغوا فيها مبلغ الجودة
 والاحسان ، يجب كذلك علينا أن نعلمهم كيفية النطق الصحيح للأصوات
 حتى يشعروا وقد بلغوا منها الغاية في الانتقان •

والله در الحافظ أبي عمرو الداني — رحمه الله — حيث يقول :

« ليس بين التجويد وتركه إلا رياضة أن أتبره بفكّه ، فلقد صدق ويصر ،
وأوجز في القول وما قصر • فليس التجويد بتمضيغ اللسان (٣٢) .
ولا بتقوير الفم (٣٣) ، ولا بتعويج الفك (٣٤) ، ولا بقرعيد الصوت (٣٥) .
ولا بتمطيط الشد (٣٦) ، ولا بتمطيط المسد ، ولا بتقطين الغنات (٣٧) ،
ولا بحصرمة الراءات (٣٨) ، قراءة تتفرع بها الطباع ، وتمجها القلوب

(٣٢) بمصغ اللسان : يلوكه ويحركه كما يحرك الطعام ، وهذا
يخرج الراءة عن صحتها ، وينحرف بالأصوات عن صفاتها وطبيعتها •
(٣٣) التقوير في القراءة : أن يتنطق الأصوات بتكلف شديد وكأنه
يخرجها جميعها من أقصى الحلق وهو ما نسميه بالعامية « يحزق في قراءته »
(٣٤) تعويج الفك تحريكه يمنة ويسرة ، مما يترتب عليه انحراف
الأصوات عن طبيعتها ، وهذا يحل بجردة القراءة •

(٣٥) رعد الصوت : اخرج به بقوة شديدة كصوت الرعد المفزع
مما يستجيب عنه شديدا وادهاقا للقاري ونفورا للسامع •
(٣٦) تمطيط الصوت المشدد : هو المبالغة والافراط في تشديده ،
وتلويته ومدّه مما يفقده حتى حرف منه عند البلاوة بهذه الكيفية (بهاء
القول المقيّد ص ٩١) •

(٣٧) العنة : لغة : صوت في الخيشوم ، واصطلاحا صوت اديد
مركب في حسم النون والميم ، فهي ثابتة فيهما مطلقا ، الا أنها في المشدد
أثقل منها في المنقسم (انظر في المصباح المنير مادة عن) •
(انظر بهاية لقول المقيّد ص ٥٩ والمصباح المنير مادة عن) •
وتطمين الغنة زيادة رنينها والساوج عند النطق بها مما يخرجها عن
مدارها وهو حركات كالمدة الطبيعي لا يزيد ولا ينقص (القول المقيّد
السابق) •

(٣٨) حصرمة الراءات : تضيق المخرج عن طبيعته عند النطق
باراء مما يعوق تكريرها •

والأسماع ، بل القراءة المسهلة العذبة ، الحلاوة اللطيفة التي لا مضغ فيها ولا لوك ، ولا تعسف ، ولا تكلف ، ولا تصنيع ولا تقطع (٣٩) ، ولا تخرج عن طبع العرب ، وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والآداء » (٤٠) .

وهذا التدريب العملي على كيفية النطق الصحيح ، وتلك الرياضة الصوتية تمر بمرحلتين تتقدمان على مبدأ التدرج ، فالمرحلة الأولى يكون التدريب فيها على الأصوات المفردة ، صوتاً صوتاً ، والمرحلة الثانية تقوم على الحروف المركبة في كلمات . وفي هذا يقول ابن الجزري ان « أول ما يجب على مرید اتقان قراءة القرآن ، تصحيح اخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحاً يمتاز به مقاربه ، وتوفية كل حرف صفته المعروفة به ، توفية تخرجه عن مجانسه ، بعمل لسانه وقمه ، بالرياضة في ذلك أعمالا يصير ذلك له طبعاً وسليقة ، فكل حرف شارك غيره في مخرج فانه لا يمتاز عن مشاركته الا بالصفات ، وكل حرف شارك غيره في صفاته فانه لا يمتاز عنه الا بالمخرج .

فاذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته ، موف حقه ، علىعمل نفسه بأحكامه حالة التركيب ، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الافراد وذلك ظاهر ، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة ، بحسب ما يجاورها من مجانس ، ومقارب ، وقوى ، وضعيف ،

(٣٩) التنطع : انتكف والمخالاة .

(٤٠) النشر ١/ ٢١٣ .

(اعتمدنا في شرح المعاني السابقة غير ما ذكر على لسان العرب

والمعجم الوسيط) .

ومفخم ومرقق ، فيجذب القوى الضعيف (٤١) ، ويغلب المفخم المرقق ، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه الا بالرياضة الشديدة حالة التركيب ، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصل حقيقة التجويد بالالتقان والتدريب » (٤٢) •

ولن نزيد أو نضيف أدلة أكثر من ذلك لاستزيد يمارى في حقيقة العلاقة بين الأصوات والتجويد لنهئى ، بحثنا بالعلاقة بين التجويد والقراءات •

التجويد والقراءات

القرآن الكريم : هو كلام الله القديم الذى نزل به الأهمين جبريل على سيدنا محمد - ﷺ - بلسان عربى مبين ، باللفظ والمعنى ، للتعبير بتأثيره ، والعمل بأحكامه • وهو المعجزة الكبرى الخالدة على مر المئين وكر الدهور •

والقراءات القرآنية : هى اختلاف ألفاظ الوحي فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتقديد ، وغيرهما (٤٣) ، كالفك والادغام ، والفتح والإمالة ، وتحقيق الهمزة وتسهيلها ، وغير ذلك من مظاهر القراءات •

وعلم القراءات : علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافهما معرو

(٤١) مثال ذلك إطاء والتاء - فالطاء صوت مفخم ، وتبى أقوى من التاء الضعيفة ولذا نرى أنها تبنى فى الأداء حيث تقلب طاء وتندغمان كما فى قوله تعالى « لئن بسطت الى يدك ، سورة المائدة ٢٨ •

(٤٢) التفسير ٢/٢٩٣ •

(٤٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/٣١٨ •

لنقله (٤٤) ، وهو موضوعه : كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها وكيفية أدائها • وشأنه : العصمة من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية ، وصيانتها من التحريف والتعبير ، والعلم بما يقرأ به امام من أئمة القراء ، والتميز بين ما يقرأ به ، وما لا يقرأ به • • • ويستمد هذا العلم من النقول الصحيحة والتواترة من علماء القراءات الموصولة السند إلى رسول الله ﷺ (٤٥) • • •

والقسري : هو العالم بالقراءات ، رواها مشافهة عن شيوخه بها « (٤٦) ، وواضعه من الراجع أن أول من دون القراءات هو أبو سعيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٥٢٢ هـ « (٤٧) •

ويرجع أسباب اختلاف القراءات عند جمهرة العلماء إلى اختلاف اللهجات العربية ، وفي ذلك تخفيف على القراء المنسوبين إلى تلك القبائل المتباعدة في بعض المظاهر اللغوية •

ولقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الشأن منها :

— ما روى عن رسول الله ﷺ : « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فآرأوا ما تيسر منه » (٤٨) •

— وعن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال :

(٤٤) منجد القارئين لابن الجزري ص ٦١ •

(٤٥) انظر الارشادات الجلية ص ٥ • سالم محيسن ، والبدر

الزاهرة ص ٥

• للمشيخ عبد الفتاح القاضي •

(٤٦) منجد القارئين ص ٦١ •

(٤٧) النشر ٣٤/١ •

(٤٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦٤٣/٨ •

« أقرأني جبريل على حرف فراجعت ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » (٤٩) •

وبالمقارنة بين التجويد والقراءات ترى :

١ - أن التجويد يهتم بكيفية الأداء الصحيح المتقن للألفاظ القرآنية بما فيها اختلاف القراء في كيفية القراءة ، في القراءات الصحيحة الموصولة بالسند برسول الله ﷺ •

أما القراءات فتهتم باختلاف كيفية القراءة تبعاً لاختلاف القراء •

٢ - كلا العلمين يقوم على أساس علم الأصوات ، ولا يستقيمان إلا بالالتزام بقواعده وأحكامه •

٣ - يفرد علم التجويد ببعض الأحكام التي لا تتم بخلافات القراء وتنوع القراءات كالقلب والاختفاء ، والأظهار والغنة ، وغير ذلك من أحكام التجويد •

وسوف نذكر مثالين اثنين لتوضيح تلك العلاقة :

— في قوله تعالى « من آمن » يجب أظهار الذون الساكنة الواقعة قبل الهزة من الناحية التجريدية • وليس في النسخ ذاتها قراءة أم خلاف بين القراء فيها ، وإنما الخلاف في الهزة الواقعة بعد الذون حيث تقرأ الهزة الأولى بالتحقيق • عند بعض القراء ، وهي لهجة تميم ، وتقرأ عند البعض بالتسهيل حيث تصير مدا • وهي لهجة أهل الحجاز • — الادغام بغنة مع الذون الساكنة والتنوير •

(٤٩) السابق ٦٣٩/٨ • (واختلف في معنى الأحرف بقيل لهجات • وقراءات ، وأوجه وغير ذلك وكلها تؤدي إلى امراد من التيسير والتسهيل كما اختلف في حقيقة العدد سبعة ، والأرجح أنه يفيد الكثرة ولا يعني التحديد) انظر السابق ٦٤٤/٨ ، والنشر ٢٥/١ ، ٢٦ •

— في قوله تعالى : « هدى ورحمة » حيث ادغمت الواو في التنوين مع الغنة وهنا قراءة في « هدى » حيث تقرأ بالفتح أو الإمالة وكتبا القراءتين لا تؤثر على الحكم التجويدي . والمعروف ان الفتح لهجة قريش والإمالة لبنى تميم .*

وكتب التجويد والقراءات مملوءة بكثير من هذه النماذج التي يتضح من خلالها علاقة التجويد بالقراءات وعلاقة كليهما بالأصوات .

دكتور عبد الفتاح أبو الفتوح إبراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة - جامعة الأزهر

المراجع والمصادر

- ١ - القرآن الكريم •
- ٢ - الأصوات ، د. كمال بشر ، دار المعارف •
- ٣ - الأصوات اللغوية د. إبراهيم انيس ، مكتبة الانجلو المصرية •
- ٤ - أصوات اللغة العربية ، د. عبد الغفار حامد هلال ، الطبعة الثانية مطبعة الجبلاوى •
- ٥ - الاذن في علوم القرآن . للسيوطي ، مصطفى البابي الحلبي •
- ٦ - الارشادات الجلية في القراءات لسبع من أريق الشاطية -
دكتور محمد سالم محسن - الشركة المصرية للطباعة وادشر
٥١٣٩٦ •
- ٧ - المبدور الراهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح
القاضي - مطبعة دار المعلم العربي ٥١٣٩٧ - ١٩٧٧م •
- ٨ - البرهان في علوم القرآن للزركشي - مطبعة الحلبي ٥١٣٨٢ -
١٩٦٣م •
- ٩ - تقريب الشر لابن الجزري - تحقيق ابراهيم عطوة - مصطفى
البابي الحلبي •
- ١٠ - التمهيد في علم التجويد لابن الجزري - تحقيق غام مدوري -
مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٦م •
- ١١ - علم الأصوات - برقيال مالمبرج - ترجمة د. عبد الصور شاهين
مكتبة الشباب ١٩٨٧م •
- ١٢ - علم الصوتيات - د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام •
المكتبة التوفيقية ١٩٧٧م •

- ١٣ — فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني —
المكتبة السلفية •
- ١٤ — لسان العرب لابن منظور — دار المعارف •
- ١٥ — المصباح المنير للأفيومي — المكتبة العلمية — بيروت •
- ١٦ — المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) الطبعة الثانية
دار المعارف •
- ١٧ — منجد المقرئين لابن الجزري — تحقيق د. عبد الحى الفرماوى
دار المطبوعات الدولية •
- ١٨ — النشر فى القراءات العشر لابن الجزري — تصحيح ومراجعة
الشيخ على الضباع — دار الكتب العلمية — بيروت •
- ١٩ — نهاية القول المفيد — للشيخ محمد مكى نصر — مصطفى البابى
الحلبى •
- ٢٠ — هداية المستفيد فى أحكام التجويد — للشيخ محمد محمود —
عالم الفكر •

محتويات العدد

صفحة

- ١ افتتاحية العدد
٣ بقلم الأستاذ الدكتور محمود السمان عميد الكلية
- ٢ النعديم والتأخير بين الامام عبد القاهر والمؤخرين
٧ د. الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت
- ٣ الهامة الأدبية عند عبد الملك بن مروان
٦٨ د. محمد كريم
- ٤ نقد الاختيار والامانة
١٢٤ د. محمد ابراهيم خليل
- ٥ القرية الفلسفية في شعر العقاد
١٥٦ د. رزق محمد داود
- ٦ قصيدة السفينة والطوفان الدكتور صابر عبد الدايم
١٨٠ تحليل ونقد الدكتور محمد علي داود
- ٧ السخاوي ومنهجه في كتابه الاعلان بالتوبيخ
٢٠٩ د. محمد نيسان سلمان
- ٨ العامة والفصحى
٢٣٣ د. عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم
- ٩ ابن النظم ومذهبه النحوي
٢٧٦ د. أحمد مرسى أحمد الجمل
- ١٠ التجويد وعلاقته بالأصوات والقراءات
٣١٣ د. عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٦١٩٦

مطبعة الأمانة
شارع بمبيرة بدار الكتب

